
المجمع العلمي العراقي
بغداد
مجلة المجمع العلمي



مجلة المجمع العلمي



في المنهج النقدي

ـ الحلقة الرابعة ـ

الدكتور احمد مطلوب

عضو المجمع العلمي ـ بغداد

الملخص :

يتعرض هذا البحث لقصيدة أحمد شوقي في رثاء اسماعيل صبري ، وقد وقف عند بعض ما يلقي الضوء عليها ، ثم فسرها وحللها أسلوبيا وتصويريا ، وقارن بينها وبين قصيدة أبي العلاء المعري في رثاء الطاهر الموسوي ، وانتهى الى أن شوقي لم يعارض القصيدة بمعنى المعارضة الدقيق ، وأن المنهج الذي اتبع في النقد لم يبعثر أبيات القصيدة ، وإنما حافظ على روحها وأسلوبها الرفيع .

(١)

اسماعيل صبري (١٨٥٤ ـ ١٩٢٣م) شاعر تميز بالذوق الرفيع ورقة التعبير ، ونسبه عباس محمود العقاد الى الذوق القاهري ، قال : ((فنشأ على ذوق قاهري صادق يعرف الرقة بسليقته وفكره ، وليس يتكلفها بشفتيه ولسانه))[١]. وقال الدكتور شوقي ضيف : ((لعل مصر لم تعرف في عصرها الحديث الى نهاية الربع الأول من هذا القرن[٢] شاعرا يسيل رقة وعذوبة على نحو ما عرفت ذلك عند اسماعيل صبري ، فله غزليات تجيش بسيل دافق من العاطفة والوجدان ، وقلما تحس فيها بتكلف أو ما يشبه التكلف ، وإنما تحس

---

[١] شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ـ مجموعة أعلام الشعر ص٢٤٨ .

[٢] أي القرن العشرين .

بصدق الشعور الذي يأخذ بمجامع القلوب))[٣] . وعزا تلك الرقة الى ندوة ميّ زيادة التي كان يختلف اليها ((فيستمع الى الأحاديث الناعمة ، والمحاورات الرقيقة مع المرأة فيتأثر بذلك في صميم نفسه ويكون سببا من أسباب رقة حواشيه)) .[٤]

وكان يختلف الى تلك الندوة كثير من أدباء مصر ومفكريها[٥] ، وكانوا يجدون فيها الأدب الرفيع والآراء الحرة ، ويتملّون من جمال ميّ ورقتها ، وكان بعضهم يميل اليها وينظم الغزل فيها ، واتخذها العقاد حبيبة في روايته (سارة) ، ولكنها لم تعبأ بهم ؛ لأن قلبها كان متجها الى جبران خليل جبران .

كان اسماعيل صبري معجبا بميّ كلّ الاعجاب ، ويقال إن قصيدته ((لواء الحسن)) من وحيها :[٦]

يا لواءَ الحسْنِ أحزاب الهوى	أيقظوا الفتنة في ظلّ اللواء
فرقتهم في الهوى ثاراتهم	فاجمعي الأمر وصوني الأبرياء
إنّ هذا الحسن كالماء الذي	فيه للأنفس رِيٌّ وشفاء
لا تذودي بعضنا عن وِرْده	دون بعض واعدلي بين الظماء
أنتِ يمُّ الحسن فيك ازدحمتْ	سُفُنُ الآمال يُزجيها الرجاء

---

(٣) دراسات في الشعر العربي المعاصر ص٣٣ .

(٤) المصدر نفسه ص٣٤ .

(٥) منهم : يعقوب صروف وشبلي شميل واحمد لطفي السيد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي وعباس محمود العقاد واحمد شوقي وولي الدين يكن . وكانت الندوة تعقد يوم الثلاثاء .

(٦) ينظر الموازنة ص٢٨٦ ، مجموعة أعلام الشعر ص٢٤٩ ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ص٣٥ ، مي زيادة في حياتها وآثارها ص١٢٥ .

وكان يبعث اليها بالرسائل أو الشعر إذا ما غاب عن حضور النـــدوة[٧]

رُوحي على بعضِ دورِ الحيِّ حائمةٌ   كظامئِ الطيرِ حوّاما الى الماءِ
إنْ لم أُمتّع بمـيّ ناظـــريَّ غدا   أنكرتُ صبحكِ يا يومَ الثلاثاءِ

كان لحضوره ندوة ميّ أثر في رقة ذوقه ، فضلا عن أنه قــد شبَّ في عهد نهضة مصر ، ودخل المدارس الحديثة ، وأكمل تعليمــه في فرنسا ونال منها إجازة الحقوق سنة ١٨٧٨م ، وتــذوق الحضـــارة الفرنسية ، واطلع على ثقافتها وآدابها ، وحين عاد الى وطنــه مصــر عمل قاضيا ومحافظا ووكيلا لوزارة الحقانية ــ العدل ــ . وفــي آذار سنة ١٩٠٧م أُحيل على المعاش ولم يبلغ سِنَّ التقاعد إذ كان عمره ثلاثة وخمسين عاما ، وذلك ليعينوا احمد فتحي زغلول مكانه مكافأة له على قرار الاعدام الذي أصدره في قضـــية (دنشـــواي) ، قـــال إبـــراهيم الهلباوي في خطبته الانتخابية لعضوية مجلس النواب : وكان المــدعي العام للمحكمة : ((يعيدون مرافعتي ، ولا يذكرون أن المرحوم فتحــي باشا زغلول شقيق سعد باشا ، هو الذي قبلــت ذمتــه أن يحكــم مــع الآخرين بتلك العقوبات ؛ لأن الحكم كان بالاجماع ، وقَبِــلَ قلمــه أن يسطر تلك الحيثيات ؛ لأنه وحده الذي سطر حيثيات الحكم التي تنفــث لهبا ونارا)) ، ثم قال : ((إن فتحي زغلول بعد الحكــم فــي قضـــية (دنشواي) استحق المكافأة من الانجليز فأخرجوا المرحوم صبري من مسند وكالة الحقانية بطريقة استبدادية ، وأجلسوا محله بطريق الترقيـــة العظيم صاحب العزة أحمد فتحي بك زغلول بمرتــب (١٢٥) جنيهـــا شهريا ، ومنحه رتبة (باشا) . ولكي يتموا جميلهم على هـــذا البيــت

---

[٧] مي زيادة في حياتها وآثارها ص١١٨ ، وتنظر ص١٢٤ .

الكريم رقوا شقيقه الكبير معالي سعد باشا في السنة نفسها من مستشار في الاستئناف الى وزير للمعارف)) .[8]

وروصف أحمد حسن الزيات أحوال صبري بعد إحالته على التقاعد : ((ولزم داره يدارس أصحابه الأدب ، ويساجلهم القريض ، ويرسل عواطف قلبه وخواطر فكره ، أنغاما موقعه على قيثارة شعره ، وكانت داره منتدى للشعراء ومثابة للأُدباء ، يفدون اليها للسمر فينشدون أشعارهم فينقدها نقد الصيرف ، ويهذبها تهذيب المعلم حتى نعتوه بالأستاذيه وأقروا له بالأولية ، وظل على هذه الحال الى أن مُني بداء القلب فغالبه بضع سنين ، ثم صرعه سنة ١٩٢٣م[9] ، وهو في التاسعة والستين من عمره))[10] .

وكان شوقي يحضر مجلسه ، وكان يعده أُستاذه ، إذ أَرسل من منفاه في الأندلس ببيتين الى رئيس تحرير جريدة (الأهرام) وطلب عرضهما على ((أستاذ الشعراء اسماعيل صبري باشا ليبدي رأيه في معناهما)) وهما :

يا ساريَ البرْق يَرمي عن جوانحنا بعد الهدوء ويَهْمي عن مآقينا
ترقرقَ الماءُ في دَمْعِ السَّماء وما غاضَ الأسى فخضبنا الأرَض باكينا

وأَجابه صبري بأبيات على وزنهما ورويهما[11] . ولولا اعتراف شوقي بمكانة صبري الشعرية وذوقه الرفيع وحسه المرهف ما

---

[8] الشوقيات المجهولة ج٢ ص٨٤ ، وتنظر ص٥٥ .

[9] توفي صباح الحادي والعشرين من آذار سنة ١٩٢٣م (ينظر الموازنة بين الشعراء ص٢٨٤) .

[10] تأريخ الأدب العربي ص٤٩٦ .

[11] ينظر الشوقيات المجهولة ج٢ ص١٦٦ .

أرسل اليه بالبيتين ليرى رأيه فيهما ، قبل أن يضمهما الى نونيته الأندلسية :[١٢]

يا نائحَ الطلْح أشباهٌ عوادينا نَشْجَى لواديك أم نأسَى لوادينا

والعلاقة بين الشاعرين قديمة ، فمنذ سنة ١٨٩١م توطدت الصداقة بينهما ((وكانا فرسي رهان يتباريان في نظم القصائد في الموضوع الواحد على سنن واحد)) ، وكانت تلك الصداقة ((خصبة مثمرة كلها نماء وبركة)) وكانا ((كوكبين يدوران في فلك واحد من الصداقة والفن ولا يمكن دَرْسُ شعرهما إلا في ضوء العلاقة القديمة الخالصة التي ظللتهما زمانا))[١٣] ، وحينما مات عمر بن اسماعيل سنة ١٩٠٨عزاه شوقي بكلمة رثاء .[١٤]

(٢)

عاد شوقي من منفاه بعد أن ألقت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، ووجد صبري يصارع مرض القلب حتى صرعه سنة ١٩٢٣م فرثاه :[١٥]

أَجَلٌ . وإنْ طال الزمانُ ــ مُوافي أَخلى يديكَ من الخليلِ الوافي

وهي في ثلاثة وسبعين بيتا من البحر الكامل ، وهو وزن يتحمل مشاعر الحب والحزن والأسى ، وقد أجاد شوقي في هذه المرثية كما أَجاد في رثاء مصطفى كامل وحافظ ابراهيم . جَرَّدَ شوقي من نفسه شخصا آخر وخاطبه : ((أَخلى يديكَ من الخليل الوافي)) ،

---

[١٢] تنظر في الشوقيات ج٢ ص١٢٧ .

[١٣] ينظر الشوقيات المجهولة ج١ ص٩٢ ، ٩٨ ، وينظر ج٢ ص١٤٠ .

[١٤] تنظر في الشوقيات المجهولة ج٢ ص١٠٣ .

[١٥] تنظر القصيدة في الشوقيات ج٣ ص١١٣ .

ومضى يصف حاله حين سمع بنعي اسماعيل صبري الذي كان من صفوة أُلاَّفه ، حيث انهمرت الدموع حزنا عليه ، ثم انثنى نحو الحكمة ، وقال لاشيء يعدل مودة الرجال :

أَجَلٌ ــ وإنْ طال الزمانُ ــ مُوافي أَخْلى يديكَ من الخليل الوافي
داعٍ الى حَقٍّ أهابَ بخاشعٍ لبس النذير على هُدًى وعفافِ
ذهَبَ الشبابُ فلم يكنْ رُزئي بــه دُونَ المصاب بصفوة الأُلاَّفِ
جَلَلٌ مــن الأرزاء في أمثاله همَمُ العزاء قليلةُ الإسعافِ
خَفَّتْ له العَبَراتُ وهي أبيةٌ في حادثاتِ الدهر غيرُ خِفافِ
ولكل ما أتلَفْتَ من مُستكرَمٍ إلا مَودَّاتِ الرجالِ تلافِ

وخاطب الدنيا :

ما أنتِ يادنيا أرؤيا نائمٍ أم ليلُ عرسٍ أم بِساطُ سُلافِ ؟
نعماؤكِ الريحانُ إلا أنه مَسَّتْ حواشيه نقيعُ زُعافِ
مازِلْتُ أصحب فيك خُلْقًا ثابتا حتى ظفِرتُ بخلقك المتنافي

ووصف المرثي بالطهر ونقاء السريرة ، وطيب الكفن :

ذهَبَ الذبيحُ السَّمْحُ مِثْلَ سميّه طُهْرَ المكفَّنِ طيِّبَ الأَلفافِ

وأراد بالسميّ النبي اسماعيل ــ عليه السلام ــ الذي هَمَّ أبوه ابراهيم ــ عليه السلام ــ بذبحه استجابة للرؤيا ، والصلة بين صبري وسميه أنه كان يعاني من مرض القلب والذبحة الصدرية ، والى هذا أشار بقوله :

كم باتَ يذبح صَدْرَهُ لشَكاته أتُراه يَحسبها من الأضياف ؟

إنها علة نزلت على صدره ورئتيه ، وتقلبت في جوانبه :

نزلَت على سَحْرِ السَّماح ونحره وتقلَّبت في أكرمِ الأكنافِ
لَجَّتْ على الصدر الرحيبِ وبرَّحَتْ بالكاظمِ الغيظ الصفوحِ العافي

ومضى يتحدث عن هذه العلة ، وعن قلب الفقيد الذي لو انتظم القلوبَ حنانُهُ ما بقي قلب قاسٍ :

ما كان أَقْسَى قلبها من علَّةٍ — عَلِقَتْ بأرحم حَبَّةٍ وشَغـــافِ
قلْبٌ لو انتَظم القلوبَ حنانه — لم يبقَ قاسٍ في الجوانح جافِ
حتى رماه بالمنية فانجلَتْ — مَنْ يَبْتَلي بقضائه ويُعـــافي

فماذا فعلت ؟

أَخْنَتْ على الفلك المُدار فلم يَدُرْ — وعلى العُباب فَقَر في الرجَّافِ
وَمَضَتْ بنارِ العبقرية لم تَدَعْ — غيرَ الرماد ودارساتِ أثافــي

وانتقل الى وصف نعش الراحل :

حملوا على الاكتاف نُورَ جلالةٍ — يَذَرُ العيونَ حواسدَ الأكتــافِ
وتقلدوا النعشَ الكريــمَ يتيمــةً — ولكم نعوشٍ في الرقابِ زِيافِ
متمايلَ الأعواد مما مسَّ مــن — كَرَمٍ ومما ضَمَّ من أعطــافِ
وإذا جلالُ الموت وافٍ سابغٌ — وإذا جلالُ العبقريةِ ضافــي

والتفت الى الشباب وقد تخطر بينهم نعش الفقيد وسأل : هــل متعــوا بالتمسُّح والطواف حول النعش ، ثم قال : لو أن زعيم الشباب مصطفى كامل كان حيا لنكس اللواء تحية لصبري :

ويحَ الشباب وقد تَخَطَّر بينهم — هل مُتعوا بتمسُّــحٍ وطوافِ ؟
لو عاش قدوتُهم وربُّ لوائِهم — نكَسَ اللــواءَ لثابتٍ وقّــافِ
فلكم سقاه الـــودَّ حين وِدادُه — حَرْبٌ لأهلِ الحكمِ والأشرافِ
لا يومَ للأقوام حتى ينهضوا — بقوادمٍ من أمْسِهم وخَوافـــي

وعاد الى الذين يضربون على قبور الموتى القباب ويزورونها كما زوروا قصورهم مما جعل الأرض تضحك عليهم ، ويسخر مــنهم الرفات السافي :

لا يُعجبَنّكَ ما تَرى من قُبــــةٍ ... ضربوا على موتاهــمُ وطــرافِ

هجموا على الحق المبين بباطلٍ ... وعلى سبيلِ القَصْــدِ والإسـرافِ

يبنون دارَ الله كيف بَدا لهـــم ... غُرفـاتِ مُثْرٍ أو سَقيفةَ عافـــي

ويزوِّرون قبورَهم كقصورهــم ... والأرضُ تضحكُ والرفاتُ السافي

ولا تخلُّ هذه اللوحة بوحدة القصيدة لأنها إشارة الى مـا قَـدّم المرثي في حياته من أعمال تخلده ، والى من اهتم بالمظاهر الزائلة .

وعاد في اللوحة الرابعـة الـى صـبري ، وصَـوَّرَ فجيعـة مصر بموته :

فُجعت رُبَى الوادي بواحدِ أيكها ... وتجرعَتْ شُكْلَ الغدير الصافي

فَقَدَتْ بَنانا كالربيعِ مُجيـــدةً ... وَشْيَ الرياض وصَنْعَةَ الأفوافِ

وهنا تذكر رثاء المعري للشريف الموسوي والــد الشـريفين : الرضى والمرتضى ، وشهرتهما بالبلاغة وحسن البيان ، فقال إنْ فاته نسبهم فلم يفته سحر البيان ، وهو العصامي

إنْ فاته نسبُ الرضيّ فربمـــا ... جَريا لغاية سـؤددٍ وطــرافِ

أو كان دُون أبي الرضيّ أبـوةً ... فلقد أعادَ بيانَ (عبدِ منــافِ)

شَرَفُ العِصاميين صُنْعُ نفوسهم ... مَنْ ذا يقيسُ بهم بني الأشرافِ

قل للمشيــر الى أبيه وجَـــدّه ... أعلِمْتَ للقمريــنِ من أسـلافِ

لو أن (عِمرانا) نِجارك لم تَسُدْ ... حتى يُشار اليك في الأعــرافِ

وكان صبري قاضيا تُعرض عليه القضايا ويصدر الأحكام التي قد تُستأنف ، ولكن قضية الموت لا استئناف لها :

قاضي القضاةِ جَرَتْ عليه قضيةٌ ... للموتِ ليس لها من استئنافِ

ومُصرِّفُ الأحكام موكولٌ الــى ... حُكْمِ المنية ما له من كافـــي

ومُنادِمُ الأملاك تحت قبابهــــم ... أمس تُنادمــه ذئابُ فيــا فـي

في منزلٍ دارتْ على الصيِّد العلا ... فيه الرحى وَمَشَتْ على الأرْدافِ
وأذيل من حُسْنِ الوجوه وعزِّها ... ما كان يُبعد من وراءِ سجافِ
من كل لَمّاحِ النعيمِ تقلبتْ ... ديباجتاه على بلًى وجَفافِ
وترى الجماجم في التراب تماثلَتْ ... بعد العقولِ تماثُلَ الأَصدافِ
وترى العيونَ القاتلاتِ بنظرةٍ ... منهوبةَ الأجفانِ والأسيافِ
وتُراع من ضَحِكِ الثغور وطالما ... فَتَنَتْ بحلوِ تبسّمٍ وَهُتافِ
غَمزَتِ القرونَ الذاهبتينَ غزالةٌ ... دَمُهم بذمّةِ قَرْنها الرّعّافِ
يجري القضاءُ بها ويجري الدهر عن ... يدِها فيا لثلاثةٍ أحلافِ
ترمي البريةَ بالحُبول وتارةً ... بحبائلٍ من خيطها وكفافِ
نَسجت ثلاثَ عمائمٍ واستحدثتْ ... أكفانَ موتى من ثياب زَفافِ

هذا ما فعل الموت بالناس كبيرهم وصغيرهم ، ملكهم وصعلوكهم ، إنه قضية لاستئناف لها ، فكل من على الارض فانٍ ، وإن ((حكم المنية في البرية جارِ)) لا فرار منه .

وخاطبه في اللوحة السادسة باسم ولده (حسين) وحيا تربته الطاهرة ، وأبلغه سلام الأهل الوُلَّه والصحابة الحسرى ، وقال : إنه لا يملك ما يقدمه له سوى شعره ، يزجيه بين يديه :

أأبا (الحسين) تحيةً لثراكَ من ... رَوحٍ وريحانٍ وعَذْبِ نِطافِ
وسلامُ أهْلٍ وُلَّهٍ وصحابةٍ ... حَرْى على تلك الخلالِ لِهافِ
هل في يَدَيّ سوى قريضٍ خالدٍ ... أُزجيه بين يديك لِلاتحافِ
ما كان أكرمه عليك فهل ترى ... أني بَعثتُ بأكرمِ الألْطافِ
هذا هو الريحانُ إلا أنّهُ ... نفحاتُ تلك الروضةِ المِئنافِ
والدرُّ إلا أنَّ مَهْدَ يتيمهِ ... بالأمس لُحبَّةُ بحرك القذّافِ

أيامَ أمرحُ في غُبارِك ناشئــا منهَجَ الهارِ على غُبار خِصافِ

أتعلّم الغاياتِ كيفَ نــزام في مضمارِ فضلٍ أو مجالِ قوافِ

وفي هذه اللوحة اعترف شوقي بفضل صبري عليه ، فما شعره إلا من نفحاته ومن بحر شعره ، وما جريه فــي مضــمار الحيــاة إلا بفضله العميم .

وفي اللوحة النابغة وَصَفَ نعشه ، وإنه سائر به حيث المنتهى :

ياراكبَ الحدباء خَلِّ زمامَهــا ليس السبيلُ على الدليل بخافِ

دانَ المطيَّ الناسُ غير مطيةٍ للحــق لا عجلى ولا ميجــافِ

لا في الجيادِ ولا النياقِ وإنما خُلِقَتْ بغيــر حوافرٍ وخِفــافِ

تنتابُ بالركبان منزلة الهدى وتؤمُّ دارَ الحــق والإنصــاف

قد بلَّغت رَبَّ المدائن وانتهتْ حيث انتهيتَ بصاحبِ الأحقافِ

وفي اللوحة الثامنة أمر بغير حقيقته :

نَمْ مِلءَ جَفْنك فالغدوُّ غوافــلٌ عما يَروعك والعشيُّ غَوافــي

في مضجع يكفيك من حَسناته أنْ ليس جنبــُكَ عنه بالمتجافي

وأمتحكْ من الأقدار غير مُعَجِّز فاليومَ لَسْتَ لها من الأهــداف

والموتُ كنتَ تخافه بك ظافِرا حتى ظَفِرتَ به فَدَعْهُ كَفــافِ

وهنا يسأله عن الموت بعد أن طلب منه أن ينام هانئا في قبره ، بعيدا عما يروعه في الحياة الدنيا :

قُل لي بسابقةِ الــوِداد أَقاتــلٌ هو حين ينزِل بالفتى أَمْ شافي ؟

وفي هذا نقرع بما كان بين شوقي وصبري من صداقة وطيدة وحب ووداد .

وختم شوقي القصيدة بالكلام على أبوي صبري وجواره لهما :

في الأرضِ من أبويك كنزا رحمةٍ وهوًى وذلك من جِوارِ كافي

وبها شبابُك واللذات بُكيتَـــه وبكيتَهـم بالمدمْعِ الـــذَرَّاف

فاذهَبْ كمصباح السماء كلاكما مالَ النهارُ به ولـيس بطـافي

الشمس تُخْلَفُ بالنجوم وأنـت بالآثار والأخبار والأوصـافِ

غَلَبَ الحياةَ فتى يَسُدُّ مكانَهـا بالذكر فهو لها بَديـلٌ وافِ

هذه ملامح قصيدة رثاء اسماعيل صبري ، وقد جاءت معبرة عن مشاعر شوقي وحبه للفقيد الـذي توطـدت صـداقتهما وحسـنت علاقتهما زمنا طويلا .

لا يختلف أُسلوب شوقي في هذه القصيدة عـن أُسـلوبه فـي قصائده الأخرى ، فتراكيبه سليمة وعباراته فصيحة ، ومعانيه واضحة لمن عرف اسماعيل صبري وما أَحاط به . وتمتاز هذه القصيدة باللغة السلسة لولا ورود بعض الأَلفاظ التي تُعد غريبة فـي هـذه الأَيـام ، وتنجلي غرابتها بالرجوع الى حواشي الديوان . وهذه الألفـاظ هـي : المتكرم ـ الزعاف ـ الشكاة ـ السَّحْر ـ الأكنـاف ـ العبـاب ـ الرجاف ـ الأثافي ـ العافي ـ الأفواف ـ الطـراف ـ الأمـلاك ـ الأرداف ـ السـجاف ـ الرعـاف ـ الكفـاف ـ المئنـاف ـ خصاف ـ ميجاف .

بدأ شوقي قصيدته بنكرة موصوفة وفصل بين المبتدأ أو صفته بعبارة ـ وإِن طال الزمان ـ وهو غيـر جـائز[١٦] وإِنْ سُـمِعَ عـن العرب[١٧] . وجَرَّدَ في الشطر الثاني من المطلع شخصا آخر وأراد به نفسه : ((أخلى يديك متن الخليل الوافي)) . وفيه مـا يُشـبه جنـاس

---

[١٦] ينظر الأشباه والنظائر في النحو ج٤ ص١٥٥ .

[١٧] ينظر شرح ابن عقيل ج١ ص٢٥٠ .

الاشتقاق : (أخلى ــ الخليل) . وفي البيت ــ أيضا ــ جناس ناقص: (موافي) من (أوفى) و (الوافي) من (وفى) .

وحذف المبتدأ في البيت الثاني ، وتقديره : ((هو داعٍ)) وفصل بين الخبر والمبتدأ :

ولكل ما أتلفْتَ من مُستكْرَمٍ ــ إلاَّ موداتِ الرجال ــ تلاف

وتعجب تَعَجُّبَ ألم وحزن في : ((ما كان أقسى قلبها)) ، كما تعجب تعجب تقدير وإكرام في : ((ما كان أكرمه عليك)) ويريد به القريض بدليل ما قبله : ((هل في يدَيَّ سوى قريضٍ خالدٍ))، ثم قال :

هذا هو الريحانُ إلا أنــه نفحاتُ تلك الروضة المِئناف

وحذف المبتدأ في : ((قلب لو انتظم القلوبَ حنانّه)) ، أي : هو قلب .

وفصل بين الفعل (رماه) والفاعل (مَنْ) بعبارة : ((بالمنية فانجلت)) في قوله :

حتى رماه بالمنية فانجلتْ مَنْ يَبتلي بقضائه ويُعافي

والفاعل هنا هو الله ــ سبحانه وتعالى ــ الذي يمتحن الناس بالبلوى ويعافيهم .

وجاءت (كم) للتكثير : ((كم بات يذبح صدرَه لشَكاته)) وجاءت للتحقير : ((ولكم نعوشٍ في الرقاب زيــاف)) أي أنَّ نعش صبري كان عظيما لا يعد له نعش :

وتقلدوا النعش الكريم يتيمةً ولكم نعوشٍ في الرقاب زِيافِ

وجاءت للتقدير والاعتراف بالفضل : ((فلكم سقاه الود)) ، أي سقى المرثي مصطفى كامل زعيم الشباب ، وقد يريد شوقي غير ذلك أي سقى مصطفى المرثيَّ الودَ ، والمعنى الأول أقرب ، لأن صبري أكبر من مصطفى الذي ولد سنة ١٨٧٤م ، في حين أنَّ صبري ولد سنة

١٨٥٤م ، وقد يكون هذا الود هو الذي دفع الانكليز الى أن يحيلوا صبري على التقاعد سنة ١٩٠٧م ، ويعينوا مكانه أحمد فتحي زغلول صاحب محاكمة قضية (دنشواي) مكافأة له على إصدار حكم الاعدام بالمصريين .

واستعمل شوقي ((ويح الشباب)) للترحم والتوجع والتحسر .

وأتى بجواب (لو) بغير اللام :

لو عاش قدوتُهم وربُّ لوائهم نكَسَ اللِّواءَ لثابتٍ وقّافِ

وورود اللام هو الصحيح كما في أُسلوب القرآن الكريم ، ومن ذلك قول الله ــ تعالى ــ ((ولو شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بسمعِهم وأبصارِهم)) (البقرة من الآية ٢٠) وقوله : ((لو اطلعتَ عليهم لولّيتَ منهم فِرارا)) (الكهف من الآية ١٨) ومثلهما كثير في كتاب الله وكلام العرب .

وجعل ((أنْ ليس جنبك عنه بالمتجافي)) فاعلا لــ (يكفيك) في الشطر الأول :

في مضجع يكفيك من حَسناته أنْ ليس جنبُكَ عنه بالمتجافي

واستفهم بــ (ما) استفهام تعجب : ((ما أنتِ يا دنيا)) وأعقبها بالاستفهام بالهمزة في البيت نفسه :

ما أنتِ يادنيا أرؤيا نائمٍ أم ليلُ عُرْسٍ أم بِساطُ سُلافِ ؟

وأجاب :

نعماؤك الريحانُ إلا أنّه مَسَّتْ حواشيه نقيعُ زُعافِ

واستفهم استفهام تعجب : ((أتراه يحسبها من الأَضياف ؟)) أي العلة التي أصابت صبري ونزلت على رئتيه ونحره وأكنافه .

وجاءت (هل) للنفي : ((هل في يديَّ سوى قريض خالد ؟))
أي : ليس عندي سوى الشعر ، وجاءت بهذا المعنى في :

ما كان أكرمه عليك فهل ترى   أَني بعثتُ بأكــرم الأَلطافِ

وقد تكون للتقليل والاعتذار ، أي أنَّ ما قاله بحق صبري قليــل ، ولعل ما بعده يوضحه :

هذا هو الريحــانُ إلا أنــّه   نفحاتُ تلك الروضةِ المئنافِ
والدرُّ إلا أنَّ مَهــْدَ يتيمــه   بالأمس لجت بحرك القــذافِ

واستفهم بالهمزة أستفهام حيرة وتردد : ((أقاتلٌ هو حــين ينــزل بالفتى أم شافي ؟)) وتكرر أُسلوب الأمر فــي القصــيدة ، ومعظمــه لا يُراد به الأمر الحقيقي لأن الراقد في مثواه لن يجيب : ((نَمْ مِــلْءَ جفنك)) و ((اضحكْ من الأقدار)) و ((قُــلْ بســابقةِ الــوِداد)) و ((فاذهبْ كمصباحِ السماء)) .

وكان اسلوب النداء قليلا : (((أأبا الحسين)) وهو نداء بالهمزة ، و ((يا راكبَ الحدباء)) وهو نداء بالياء ، ولا يُراد به النــداء الحقيقــي وإنما هو لوعة أسى أرسلها الشاعر .

ويبدو في هذه القصيدة أُسلوب الرد والوصف الذي عُرِفَ به شوقي في معظم شعره ، ولذلك قَلَّ أسلوب الأنشاء الذي يكثر في قصائد الغزل والرثاء ، لأنه يُخفف من لوعة الحب أو الحزن عند اســتعمال الأمــر والنهي والاستفهام والتمني والنداء ، وكأنها تنفيس عمــا فــي الــنفس وجيشانها فرحا أو ترحا ، وتنهدات يرسلها المحب والمحزون .

(٤)

اعتمد شوقي في التصوير على أُسلوب الوصف ، ومن ذلك مــا يُنزِلُ الموتُ بالانسان من مواجع حين يرى أحبابه يرحلون ، وما ينتهي

به من خراب لما كان زهرا عامرا . ومنه وصف النعش الذي ليس له زمام لانه يَعرِف طريقه الى القبر ، وإن لم تكن له أرجل يسعى بها الى ما يريد .

وجاء التشبيه قليلا ومن ذلك استعمال حرف الكاف الذي يتصل بالمشبه به ، ومن ذلك : (يزوّرونَ قبورَهم كبيوتهم)) ووجه الشبه هو التزوير ، و ((فقدت بنانا كالربيع)) ووجه الشبه هو الاجادة كاجادة وشي الرياض وصنعة الأخواف . ومنه : (اذهب كمصباح السماء)) .
واستعمل ((مثل) للتشبيه :

ذَهَبَ الذبيحُ السَّمْحُ مثل سميّه طُهْرَ المكفَنِ طيّبَ الألفافِ

وجاء التشبيه بلا أداة :

ما أنتِ يادنيا أرُؤيا نائمٍ أم ليلُ عُرْسٍ أم بِساطُ سُلافِ ؟

إذ شبّه الدنيا مرةً بالنائم ، ومرةً بليل الفرس ، ومرةً ببساط السلاف ، وذلك باستعمال أُسلوب الاستفهام .

وشبه شعره بالريحان : ((هذا هو الريحان)) ، وجاء التشبيه بالمصدر :

وترى الجماجمَ في التراب تماثَلَتْ بعد العقولِ تماثُلَ الأَصدافِ

أي مثل تماثل الأصداف . ومنه :

أيامَ أمرحُ في غُبارك ناشِئا نَهَجَ المِهارِ على غُبار خِصافِ

أي : مثل نهج المهار لخِصاف ، وهو فرس عربي مشهور . ويُعد هذا اللوت من التشبيه من محاسن التشبيهات .

وقد يستعير ويُسند الشيء الى غير ما هو له في أصل اللغة ، ومن ذلك أنه أسند إخلاء يديه من الخليل الى الموت في مطلع القصيدة ، وكَنَّ عن الموت بالنذير : ((ليس النذيرُ على هُدًى وعفافِ))

وأسند الذهاب الى (الشباب) : ((ذهب الشبابُ)) ، والانسان هو الذي يذهب ، ولكن الفعل استعمل في كل ما يزول من حي وجماد .

وليس للعزاء همم :((هِمَمُ العزاء قليلةٌ)) ، والعبرات لا تخف : ((خَفَّتْ له العبارات)) أي نزلت بسرعة على الفقيد وإن كانت عصية من قبلُ .

وكَنَّ بالذبيح عن صبري لاصابته بمرض القلب ، وهو سَميُّ نبي الله اسماعيل ـ عليه السلام ـ حين هَمَّ أبوه ابراهيم ـ عليه السلام ـ يذبحه لرؤيا طافت به . وفي هذا إشارة الى قوله ـ تعالى ـ على لسان ابراهيم : (((فلما بلغ معه السعيَ قال : يابُنيَّ ، إني أرى في المنامِ أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبتِ افعلْ ما تؤمر ستجدني إنْ شاءَ اللَّهُ من الصابرين)) (الصافات ١٠٢)

وصوّر تحمل صبري المرض بمن يكظم غيظه :

لجَّت على الصدرِ الرحيب وبرَّحَتْ   بالكاظم الغيظ الصفوح العافي

وهذا المعنى إشارة الى قول الله ـ تعالى ـ : ((الذين يُنفقونَ في السَرّاءِ والضَراءِ والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن الناسِ ، والله يُحبُّ المحسنين)) (آل عمران ١٣٤)

وعَبَّرَ عن الاقتدار بالقوادم والخوافي ، لأن الانسان لن ينهض إلا بالارادة القوية ووسائل النهوض ، كما ينهض الطير بالقوادم والخوافي ، ولولا ذلك لظّل قعيدا ، أو مُسِفّا الى الأرض .

وذكر للموت قضية ، ولا قضية له كما للناس ولكنه الأجل الذي لا محيد منه ، وفي البيت ((قاضي القضاة)) و ((قضيةَ)) وهو ما يرجع الى جناس الاشتقاق . واستعمل (الأسياف) بمعنى اللحاظ :

وترى العيونَ القاتلاتِ بنظرة   منهوبةَ الأجفانِ والأسياف

ليجانس بين الأجفان وبينها ، وهذا هو جناس الاشارة ، أو جناس الكناية لأنه كَنَّى عن اللحاظ بكلمة (الأسياف) .

وجعل الغزالة وهي الشمس تغزو القرون ، وجعل لها قرنا أحمر ليدل على كثرة قتلاها :

غَزتِ القرونَ الذاهبينَ غزالةٌ   دمُهم بذمَّةَ قَرْنها الرَّعَافِ

إذ جانس بينَ (غزت) و (غزالة) وبين (القرون) و (قرنها) .

وكَنَّى بالعمائم الثلاث : عن أدوار الحياة الثلاثة وهي : الشعر الأسود الذي يدل على الشباب ، والشعر الأسود يخالطه الشيب الذي يدل على الكهولة ، والشعر الأبيض الذي يصيح بساعة الرحيل : ((نَسجت ثلاثَ عمائمٍ)) .

وعبر عن فضل صبري عليه تعبيرا بديعا ، فقريضه من نفحات روضة المرثي ومن لجة بحره المتدفق ، وقال إنه في متابعة صبري كالمهر الذي ينهج نَهْجَ الفرس الأصيلِ ، وإنه تعلم الغايات في مضمار فضل صبري وقوافيه .

وكنَّى بالحدباء عن النعش : ((يا راكبَ الحدباء)) وكان كعب بن زهير قد قال :

كلُّ ابنِ أُنثى وإنْ طالَتْ سلامتُهُ   يوما على آلةٍ حدباءَ محمولُ

وجعل للحدباء زِماما تشبها بالجياد والنياق ، ولكن ليس لها حوافر وخفاف لأنها محمولة على الاكتاف .

(٥)

ليست هذه المرثية معارضة لقصيدة المعري التي رثى بها أبا الشريفين الرضيّ والمرتضى ، وإن اتفقت معها في الغرض والوزن والقافية ، فالمعري تعرَّضَ لما عُرف به الشريف الطاهر الموسوي

ووصفه بأوصاف عصره ، وتعرض شوقي لما اشتهر بـــه اســـماعيل صبري ووصفه بأوصاف تنطبق عليه ، وهذا وجه الاختلاف الكبير بين القصيدتين . واستعراض قصيدة المعري يوضح ذلك ، إذ بدأ قصـــيدته بوصف المرثي بالكرم ، فهو مالُ الذي ذهـــب مالُـــه وعنبـــرُ الـــذي يستاف العطر :[١٨]

أوْدَى ــ فليت الحادثات ــ كفافِ مالُ المسيف وعَنْبرُ المُسْتَـــافِ

وهو الطاهر نسبا وفي كل شيء ، وقد توفي في ليلة رعـــد ، وبكى عليه الضمام ، وغاض البحر ، وتغير الليل والنهار ، والدر فـــي الأصداف ، ورعشت الرماح ، وتعطفت من فرط الوجد حتى اجتمـــع سنانُه وزجُّه كما تتعطف الحية حين تجعل رأسها عند ذنبها ، وذنبهـــا عند رأسها ، وتعطل تقويم الرماح .

ومضى المعري في ذكر مثل هذه الأوصاف ، حتـــى قـــال إنَّ الأغربة نعته للأصدقاء والأعداء ، وإنَّ أسَفَ الغربان أسفٌ بهـــا ؛ لأن الكمد أضعفها من الطيران ، فهي تهفو فوق التراب كما تهفو الـــريح . وشبّه نعيبها بنحيب النوادب ، وشبه سواد أجنحتها بالحداد الذي تلبسه الثواكل . وخاطب الغراب بقوله :

لاخابَ سعيك من خُفافٍ أسْحمٍ كسُحيم الأسدي أوكخُفَـــاف

أي كالشاعرين سُحيم وخُفاف بن ندبة ، ودعا له أنْ لا يخيـــب سعيه لما فعله من الحزن على الميت ، ثم قال له : لا خاب سعيك مـــن شاعر للبين قال مرثية في الميت على روي القاف ، يعني حكاية صوت

---

[١٨] تنظر القصيدة في شروح سـقط الزنـد ــ السـفر الثـاني ــ القسـم الثالـث ص١٢٦٤ .

الغراب : (غاق غاق) وهو يكرر الأصوات ، فكأنها قصـيدة قافيـة الروي ، وقد بُنيت على الإيطاء ، وكانت سالمة من الإقواء والإكفـاء والإصراف : [١٩]

بُنيتْ على الإيطاء سالمةً من الـ　　　إقواء والإكفاء والإصـراف

وحسدت البزاةُ الغرابَ لسواد ريشه وتمنت أنء تكون سـوادا مثله لتحزن على الميت كما حزنت عليه الطيور وإن لم تلبس حـدادا ، ولم تقل شعرا . وتمنى المعري أنْ يسلم المرثي من الموت وأن يموت غيره ، وأشار الى فروسيته وتمنى لو دفن سيفه معه :

هلاّ دفنتم سيفَه في قبره　　　معه فذاك له خليلٌ وافِ

وكان المرثي كريما حتى أن الموتى إذا زاروه في قبره كساهم أكفانا جُدُدا عوضا عن الأكفان البالية التي عليهم ، فإنْ لم يكن ذلك جاز أن يخلع عليهم كفنه ، وقال إن رضوان خازن الجنة طوع يديه يتحفـه من طرائف الجنة بما يريد .

إنَّ المرثي بحر من العطاء والكرم ، وتضمه درع كأنها غدير وإن كان في العظم كالبحر ، وهذه الدرع بيضاء تردها أسنة الرماح كما ترد الحمامُ الوُرْقُ المياة الصافيةَ . ولما شبَّهَ الدرع بالماء شبَّه نِصـال النبل من حيث أنها لا تعمل في الدرع ، ولا تؤثر فيه بالريش السـاقط على الماء ، يطفو عليه ولا يرسب فيه .

---

[١٩] الايطاء : إعادة الكلمة بلفظها ومعناها . الاقواء : تحريك المجـرى بحـركتين مختلفتين غير متباعدتين ، والمجرى هو حركة الروي المطلق أي المتحـرك الذي يعقبه ألف او واو أو ياء . الاكفاء : أن يؤتى في البيتين مـن القصـيدة بروي متجانس في المخرج لا في اللفظ . الاصراف : هو الجمع بين حركتين مختلفتين متباعدتَين .

وبعد أن انتهى من وصف الدرع عادا الى الرثـي وقـال : إنَّ الركْبَ بعده كرهوا أكل الزاد لما هم عليه من الكمد ، وإن الخيل التـي زايلها لو تمكنت من أعرافها لأَنْحَتْ بأيديها عليها الى أن تزيلهـا مـن الأسف والحزن عليه .

وَعَرَّجَ على ولديه الرضي والمرتضى ، وقال : إنهما أعظم مـن نور الكواكب ؛ لأن نورها يغلب عليه ضياءُ النهار ، ونورهما لا يغلب عليه شيء ، وقد ارتفعا في المكارم ، وهما في العطاء كالمطر الـذي يُحيي الأرض بما يصوب منه ، وهما في الظلمات كالقمرين المشرقين والنيرين المضيئين ، وقد رُزقا البيان ، وسـاوى أحـدهما الآخـر ، وتقاسما خطط العلا بتناصف وتصافي . وقال إن بيت الموسوي وبنيه). ما مال بموت الأب ، فهو كمثل بيت الشعر لا ينتقص إن ذهـب منـه ساكن أو حركة ، .

وذكر جدهم موسى الكاضم ــ رضي الله عنه ــ ووصفهم بالكرم حيث يُوقدون النار ببطون الأودية لأنها ممر الناس ، وهذه النار لها في الصيف ظل وفي الشتاء حرور ، وجمرها عظيم لا تستطيع الـريح إذا عصفت أن تحمله لثقله ، ولن يقدر على إطفائها زحل إذا جاء بـالبرد والقمر ، وهي توقد في العراق وعلى عِراص ذيول مكة تنسـحب أي تُرى لعظمها ، ويصل نورها الى منازل نائل وإساف .

وعلى هذه النار العظيمة قدور وجفاف عظام ، ركبت على أثاف عظيمة كأنها الجبال لعظمها وكبر حجمها .

وختم المعري مرثيته للموسوي بالاعتذار من تقصيره ، وقـال : إنَّ قصيدته حمولة قوم مُجْدِبين :

يا مالكي سَرْحَ القريض أتتكما منـي حمولةُ مُسْنِتِينَ عجـافِ

لا تعرِفُ الورَقَ اللَّجينَ وإنْ تُسَلْ   تُخبرْ عن انقلاَّمِ والخِذرافِ

أي : أنها عربية ، وهي من البادية تعرف الحمض والقلام والخذراف من الحمض ، ولا تعرف الورَق الَّجين لأنَه من علف أَهل الأَمصار :

وأنا الذي أهْدي أقلَّ بهارةٍ   حُسْنا لأحْسَنِ روضةٍ مِئْنافِ

وقال : إنَّ مدحه الذي هداه الى الشريفين : الرضي والمرتضى ليس تعرضا لعطائهما وفضلهما وإنما غرضه قضاء حقهما والتشرف بهما :

أَوضعتُ في طرق التشرف ساميا   بكما ولم أَسْلُكْ طريقَ العافي

أي طريق السائل المحتاج .

هذه خلاصة قصيدة المعري ، وهي بعيدة عن قصيدة شوقي في المعاني والتصوير لاختلاف أحوال المرثيين منزلةً وسلوكا وعصرا ، وإن كانت هناك ملامح لا تتضح بين القصيدتين كثيرا ، من ذلك قول شوقي :

ذهَبَ الذبيحُ السَّمْحُ مثل سَميّه   طهر المكفن طيبَ الألفافِ

حيث جنس تجنيس إشارة بين اسماعيل النبي واسماعيل الشاعر ، وكلاهما ذبيح ، وجنس المعري مثل هذا التجنيس في قوله :

ويخال موسى جدكم لجلاله   في النفس صاحب سورة الأعراف

وموسى هو موسى الكاظم ــ رضي الله عنه ــ والمذكور في سورة الأعراف هو النبي موسى ــ عليه السلام ــ .

قال المعري :

فارقت دهرك ساخطا أفعاله   وهو الجديرُ بقلة الإنصافِ

وقال شوقي:

نَمْ مِلءَ جفنك فالغدوُّ غوافـــلٌ	عما يروعك والعشيُّ غوافـــي
في مضجع يكفيك من حسناتـــه	أنْ ليس جنبك عنه بالمتجافي
واضحك مع الأقدار غير معجَّز	فاليوم لسْتَ لها من الأهـداف

فالموت يخلص الانسان من الحساد والكائدين فينام مرتاحا فـي قبره ، والشاعران يشيران الى ما كان المرثيان يتعرضـان لـه فـي حياتهما من كيد وجحود ، ولا سيما صبري الذي أحيل على المعـاش ليكافئ الانكليز احمد فتحي ويعينوه وكيلا لوزارة العدل مكانه .

وهذه الايماءات لا تقضي بمعارضة شوقي للمعري معارضـة بمعناها الدقيق ، وإن كام يجيل في نفسه بعض القصائد القديمة ، فتنبثق من صدره قصيدة جديدة ، وقد أشار هو الى هذا حين تحدث عن نظـم السينية وهو يتجول في الأندلس ويتملّى الآثار كما تملّى البحتري آثـار الايوان .[٢٠]

وذكر محمد الهـادي الطرابلسـي الموافقـات بـين مقـاطع القصيدتين[٢١] وهـي : الـوافي ـ عفـاف ـ الألاف ـ سـلاف ـ الأضياف ـ الرجاف ـ أشافي ـ أعطـاف ـ منـافي ـ طـواف ـ خوافي ـ الصافي ـ الأقواف ـ عبد مناف ـ سلاف ـ الأشراف ـ أسلاف ـ الأعراف ـ الأصداف ـ الأسياف ـ أحلـف ـ نطـاف ـ الاتحاف ـ الألطاف ـ قوافي ـ خـافي ـ الإنصـاف ـ كفـاف ـ الذراف ـ طاف ـ الأوصاف ـ المئناف .

---

[٢٠] ينظر الشوقيات ج٢ ص٥٢ وما بعدها .

[٢١] ينظر خصائص الأسلوب في الشوقيات ص٥٤٣ .

وهي الفاظ لابدّ أنْ تخطر في مخيلة الشاعر وهو ينظّم فائية ، ولا يبعد أنْ يستعمل كثيرا منها إن لم يجد مندوحة عنها . ولكن ـ على الرغم من هذا ـ فان بعض الألفاظ التي ذكرها المعري قد جاء بها شوقي متصلة بغيرها كما ذكرها الأول ومن ذلك : كلمة (الوافي) : قال المعري : ((خليل واف)) ، وقال شوقي : (الخليل الوافي)) .

و (عفاف) : قال المعري : ((بسؤدد وعفاف)) ، وقال شوقي : ((هدى وعفاف)) و (الرجاف) : قال المعري :

ويقال إن البحر غاض وإنها   ستعود سيفا لجبةُ الرجّافِ

وقال شوقي :

أَحْنَتْ على الفلك المُدار فلم يَدُرْ   وعلى العباب فقَرَّ في الرَّجافِ

و (طواف) : قال المعري : ((محسوبتان بعمرة وطواف)) وقال شوقي : ((بتمسح وطواف)) .

و (خوافي) : قال المعري : ((سواد قوادم وخوافي)) وقال شوقي : ((بقوادم من أمسهم وخوافي)) .

و (الصافي) : قال المعري : ((في غدير صاف)) ، وقال شوقي : ((الغدير الصافي)) .

و (عبد مناف) : قال المعري : ((جبل هوى من آل عبد مناف)) وقال شوقي : ((فلقد أعاد بيان عبد مناف)) .

والصلة بينهما أن المعري كان يرثي الموسوي الذي يرجع نسبه الى عبد مناف ، وكان شوقي يتحدث عن صبري الذي إنْ فاته نسب عبد مناف ، فانه لم يفته بيانه .

و (الأعراف) : قال المعري : ((صاحب سورة الأعراف)) وفيه جناس إشارة والمراد به النبي موسى ـ عليه السلام ـ وقال

شوقي : ((حتى يشار اليك في الأعــراف)) ، فعمــران أبــو موسى ــ عليه السلام ، وفي القرآن سورة آل عمران وســورة الأعراف ، وفيهما ورد اسم موسى .

و (أحلاف) : قال المعري : ((فيا لثلاثة أحــلاف)) والثلاثــة هــم الرضي والمرتضى والمرضي ، وقال شوقي : ((فيــا لثلاثــة أحلاف)) يريد الشعر الاسود ، والشعر الأبيض الذي يخالطــه السواد ، والشعر الأبيض ، وهي أدوار الحياة الثلاثة .

و(نطاف) : قال المعري : ((زُرْق نِطاف)) أي مياه صافية ، وقــال شوقي : (وعذب نطاف)) .

و (الاتحاف) : قال المعري : ((رضوان بين يديه للاتحاف)) وقــال شوقي : ((أزجيه بين يديك للاتحاف)) .

و(خافي) : قال المعري : ((أودى فليت الحادثات كفافِ)) ، وقــال شوقي ((حتى ظفرت به فَدَعْه كفافِ)) .

و (الذراف) : قال المعري : بدمعه الــذَّرَّاف)) ، وقــال شــوقي : ((بالمدمع الذَّرَّاف))

و (طاف) : قال المعري :

سطعت فما يسطيع إطفاءَ لها زُحَلٌ ونورُ الحقِ ليس بطافِ

وقال شوقي :

فاذهب كمصباح السماء كلاكما مالَ النهارُ به وليس بطــافي

ولا يعني هذا أنَّ قصيدة شوقي نقل لقصيدة المعري ، وإن اتفقت هذه الألفاظ في ائتلافها ؛ لأن شوقي عَبَّرَ بها عن غير مــا عبــر بهــا المعري ، فضلا عن أن حرف الفاء من الحروف المتوسطة الشيوع في

الروي[٢٢] ، مما يجعل الألفاظ المنتهية بالفاء تتردد نفسها في القصائد الفائية الطويلة كقصيدتي المعري وشوقي .

(٦)

كانت منزلة شوقي الفنية والاجتماعية سببا في نقده نقدا غير موضوعي ، وكان عباس محمود العقاد من أقسى الذين نقدوا شعره ، وعدّ قصيدة رثاء مصطفى كامل كومة رمل[٢٣] ، وسُرَّ جميل صدقي الزهاوي وأثارته مبايعة شوقي بامارة الشعر إذ كان لا يعترف بشاعرية أحد غيره . وحانت الفرصة له حين نُشرت قصيدة شوقي في رثاء الشاعر اسماعيل صبري فنشر نقدا لاذعا ساخرا في جريدة (العراق) سنة ١٩٢٣م[٢٤] ، وردّ انتقاداته محمد بهجة الأثري في جريدة (العاصمة) بخمس عشرة حلقة[٢٥]، ورد مقالاته محمد الهاشمي بتسع حلقات نشرها في جريدة (العراق)[٢٦] .

---

[٢٢] ينظر موسيقى الشعر ص٢٤٦ .

[٢٣] ينظر الديوان ص١٣٢ .

[٢٤] ينظر نقده في النقد الأدبي الحديث في العراق ص٤١٤ ، والزهاوي الشاعر الفيلسوف والكاتب المفكر ص٣٥٨ ، والزهاوي في معاركه الأدبية والفكرية ص٢٢٠ .

[٢٥] ينظر نقده في النقد الأدبي الحديث في العراق ص٤٢٦ ، وكان الزهاوي قد نشر نقده بتوقيع (شاعر عراقي كبير) وأخبرني المرحوم الأثري أن النقد للزهاوي (ينظر النقد الأدبي الحديث في العراق) ص٤١٤ (الحاشية) وكان ذلك عام ١٩٦٨م .

[٢٦] ينظر النقد الأدبي الحديث في العراق ص٧٨ ، والزهاوي في معاركه الأدبية والفكرية من ٢١٨ .

ولم يكن نقد الزهاوي نقدا موضوعيا بلْه أن يدل على فهم قصيدة شوقي ، وكان الهدف من هذا النقد هدم شاعرية شوقي ، ولكنه لم يستطع أن يهدم هو وغيره من الحاسدين والحاقدين صَرْحَ الشاعر الكبير.

ومن أمثلة ذلك النقد قول الزهاوي في مطلع القصيدة :

أجلّ ــ وإنْ طال الزمانُ ــ مُوافي أخلى يديك من الخليل الوافي

((أجد المعنى مضطربا لا يتماسك وإن ربطه بسلسلة الوزن وأحكم وثاقه ، وكنت ظننت أول وهلة أنه جعل (أجل) مبتدأ و (موافي) خبرا له ، فاصلا بينهما بـ (إنْ) الوصلية مع جملتها ، ولكن عدم جواز الابتداء بالنكرة أرجعني الى الهدى ، وترجح لديّ أن المبتدأ محذوف ، فكأنه يقول : (هو أجل) وحينئذ يكون (موافي) صفة للخبر وهو (أجل) . هذا جيد ، ولكن في الفصل بين الموصوف والصفة بـ (إنْ) والجملة تشويشا للمعنى . كان على الشاعر الكبير أن يتجنب دواعيه ، فكما لا يجوز أن يقال : (الرجل وإن كان ذا مال ،الظالم ممقوت) كذلك القول : (رجل وإن كان ذا مال ظالم ممقوت) ولا شك أن شاعر مصر العصري في مطلعه هذا قد جَرَّدَ من نفسه شخصا ، وجعل يخاطبه كما كان يفعل الأقدمون ، وقد أسف لاخلاء الأجل يديه من خليله الفقيد كأنه عصفورة أفلتت من يديه فرآهما خاليتين فجعل يصرخ أسفا وقال :

ذهبَ الشبابُ فلم يكن رُزئي به دُونَ المصاب بصفوة الأُلاف

وكان يعلق على بعض القضايا العلمية والفلكية ، ويبدو أنه لم يدرك كثيرا مما جاء في القصيدة ، ومن ذلك قوله في البيت :

فلكم سقاه الودَّ حين ودادُه حَرْبٌ لأهل الحكم والأشراف

((برئت من الأدب إن كنت أعرف معنى البيت ، ومراد الشاعر الكبير ، وعسى أن يكون قد أراد أنه سقى اللواء وده يوم كان وداده حربا لأهل الحكم والأشراف ، أو أراد أنَّ حرب أهل الحكم والأشراف قد سقته الوداد ، ومن العجيب أن يسقي الود (حين ودادُه) وما أقصر اللفظ عما أراد)) .

وهذا كلام ما كان ينبغي أن يصدر عن الزهاوي الشاعر والمفكر والفيلسوف[٢٧] ولو رجع الى البيتين :

ويحَ الشباب وقد تَخطَّر بينهم	هل مُتعوا بتمسُّحٍ وطَوافِ
لو عاش قُدوتُهم وربُّ لوائِهم	نكَسَ اللواءَ لعابت وقافِ

لا تضح معنى البيت الذي علق عليه هذا التعليق ، لقد قال شوقي : هل متع الشباب أنفسهم بعظمة الميت وقد تخطر بينهم ، وهل تمسحوا به وطافوا حوله تكريما له ، ثم قال : لو أن زعيم الشباب مصطفى كامل صاحب جريدة (اللواء) كان حيا لنكس لواءه تعظيما وتكريما لاسماعيل صبري الذي كان يسقيه الوداد ، وهو حرب على الحكام وعملاء الانكليز ، وقد مات سنة ١٩٠٨م ، أي بعد سنة من إخراج صبري من وكالة وزارة الحقانية (العدل) ، ولعل الود بينهما كان من أسباب إحالة صبري على التقاعد .

ولم يقف الزهاوي عند هذا الحد ، إذ حين صدرت طبعة للشوقيات سنة ١٩٢٨م نقد ثلاث قصائد منه ، ونشر نقده بدون توقيع

---

[٢٧] دفع هذا محمد بهجة الأثري الى أن يقول في أول رده نقد الزهاوي :

وكم من عائب قولا صحيحا	وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأفهام منه	على قدر القرائح والفهوم

(ينظر النقد الأدبي الحديث في العراق ص ٤٢٦) .

في مجلة (لغة العرب) للأب أنستاس ماري الكرملي ، وظل الاعتقاد سائدا على أن ((الناقد هو صاحب المجلة)) الى أن كشف عبدالرزاق الهلالي عن مُسَوَّدات ذلك النقد ، فاذا هي بخط الزهاوي المعروف .[٢٨]

والقصائد الثلاث[٢٩] هي (كبار الحوادث) :

هَمَّتِ الفُلْكُ واحتواها الماءُ   وحداها بمن تُقِـلُّ الرجـاءُ

و (وداع اللورد كرومر) :

أيامُكم أم عَهْدُ إسماعيـلا   أم أنْتَ فِرعون يسوسُ النيلا

و (الصليب والهلال الأحمران) :

جبرياً أنت هدى السمـا   ءِ وأنْتَ برهـانُ العنايـه

ولا يبعد نقد هذه القصائد عن نقده مرثية اسماعيل صبري ، وازداد فيه سخرية من شوقي ، وقال : ((لا يخرج شعر شوقي ـ بك ـ في الاكثر عن أفكار متناقضة لاصلة لها بالطبيعة والحقيقة التي تستند اليها ، وتفاهة وتقليد للقدماء)) .

ألقى المنهجُ الذي ارتضيناه الضوء على قصيدة شوقي ، واتضح :

١ـ أنَّ معرفة سيرة اسماعيل صبري أدّت الى فهم القصيدة ، وبينت العلاقة بينه وبين شوقي .

٢ـ أنَّ القصيدة لم تكن معارضة لقصيدة المعري ، وإن اتفقت في الغرض والوزن والقافية ، ولم تكن فيها مبالغات كقصيدة أبي العلاء .

---

[٢٨] ينظر الزهاوي في معارك الأدبية والفكرية ص٢١٨ ، والزهاوي الشاعر الفيلسوف والكاتب المفكر ص٣٦٥ .

[٢٩] تنظر القصائد في الشوقيات ج١ ص١ ، ٢٠٩ ، ٣٦٣ .

٣ـ أنَّ ورود مِوافقات بين مقاطع القصيدتين لا يدل على المعارضة بمعناها الدقيق ؛ لأن شوقي وظفها لغير ما وظفها المعري في أكثر الأبيات .

٤ـ أنَّ القصيدة احتفظت بروحها ، ولم تتبعثر كامات داخل المربعات والدوائر والمثلثات ، والمعادلات الجبرية ، والخطوط البيانية والرسوم الهندسية .

إنَّ النقد عملية تفسير وتقريب ، لاعمل زخرف من القول ، وإلقاء بعض الضوء على الإبداع الفني خير من المتاهات التي يضيع فيها المتلقون .

المصـــــادر

١ــ الأشباه والنظائر في النحو ــ جلال الدين السيوطي ــ تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم ــ ج٤ ــ بيروت ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٥م .

٢ــ تأريخ الأدب العربي ــ احمد حسن الزيات ــ الطبعة الرابعة عشرة ــ القاهرة ١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٥م .

٣ ــ خصائص الأسلوب في الشوقيات ــ محمد الهادي الطرابلسي ــ تونس ١٩٨١م .

٤ــ دراسات في الشعر العربي المعاصر ــ الدكتور شوقي ضيف ــ ط٢ ــ القاهرة ١٩٥٩م .

٥ــ الديوان ــ عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني ــ ط٣ ــ القاهرة ١٩٧٢م .

٦ــ الزهاوي الشاعر الفيلسوف والكاتب المفكر ــ عبد الرزاق الهلالي ــ القاهرة ١٩٧٦م .

٧ــ الزهاوي في معاركه الأدبية والفكرية ــ عبد الرزاق الهلالي ــ بغداد ١٩٨٢م .

٨ــ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ــ ط٦ ــ القاهرة ١٣٧٠هـ ــ ١٩٥١م .

٩ــ شروح سقط الزند ــ القاهرة ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٤م .

١٠ــ شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي (مجموعة أعلام الشعر) عباس محمود العقاد ــ بيروت ١٩٧٠م .

١١ـ الشوقيات ـ احمد شوقي (ج١ طبعة مطبعة مصـر) و (ج٣) القاهرة ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٦م .

١٢ـ الشوقيات المجهولة ـ احمد شوقي ـ الدكتور محمد صبري ـ القاهرة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م .

١٣ـ الموازنة بين الشعراء ـ الدكتور زكي مبارك ـ القاهرة ١٩٦٨م.

١٤ـ موسيقى الشعر ـ الدكتور ابراهيم أنيس ـ ط٢ ـ القاهرة ١٩٥٢م .

١٥ـ مي زيادة في حياتها وآثارها ـ وداد سكاكيني ـ القاهرة ١٩٦٩م.

١٦ـ النقد الأدبي الحديث في العراق ـ الدكتور احمد مطلوب ـ القاهرة ١٩٦٨م .

شعر السياب في ضوء نظرية الأدب المهموس

ـ القسم الثاني ـ

الدكتور جبير صالح القرغولي
كلية اللغة وعلوم القرآن
الجامعة الإسلامية

الملخص :

يسعى هذا البحث الى إضاءة جانب من نظرية الهمس للدكتور محمد مندور ؛ كانت به حاجة الى بسط القول وهذا الجانب هو القول بوجود صلة بين الهمس والصوفية ، اذ لم ينل من عناية الدكتور مندور اهتماما كبيرا .

الصوفية صفة روحية ، أساسها اليقين الراسخ وقوامها الحب . ومن هنا كانت مدخلاً الى الهمس . وبعد ان رصد القسم الأول من البحث خصائص نظرية الهمس في شعر بدر شاكر السياب ، كان لزاماً عليه ان يولي الصوفية حقها من العناية ، فمضى يلتمسها في ديوانه ، فوجدها شاخصة جلية في عدد من قصائد الشاعر ، تحكم لها بالوحدة الموضوعية . ووجد منها شذرات متفرقة في أنحاء الديوان ، تنبئ بحسٍ صوفي يصل النصوص بعالم الهمس .

عُني القسم الأول من البحث بالخصائص التي سار على هديها الدكتور مندور ؛ وهو يرسي دعائم نظريته في الأدب المهموس ، منطلقاً من بيئة المهجر . وعلى هدي تلك الخصائص انطلق الباحث صوب ناحية أخرى من عالم الأدب ، هي المشرق العربي ، في حقبة تمثل امتداداً لعصر نشوء النظرية .

كان شعر السياب ، ولا يزال ميداناً للبحث . وسيسعى الباحث ، في هذا القسم الى تأكيد فكرة الهمس في شعر السياب ، عبر أبراز موقف سلوكي وأخلاقي في الحياة ، له صلة بالهمس هو الصوفية ، التي الَمّ بها الدكتور مندور إلماماً يسيراً ، ولم يولِها العناية التي أولاها الخصائص الأخرى .

لن يحاول الباحث أكساء السياب رداء الصوفية ، لأن في هذه المحاولة من القسر ما لا ... يتحمله ذلك الجسد النحيل ، ولكنه سيهدف الى إثبات الروح الصوفية عند السياب ، بوصفها مدخلاً الى الهمس ، مدخلاً ولج منه الشاعر ، قاصداً عالم الفن ، وهو يحمل جراحه والآمه كما حمل سيدنا المسيح (عليه السلام) صليبه الذي صُلِبَ عليه .

يقول الدكتور مندور : (قلتُ فيما سبق : إن شعراء المهجر يصدرون عن قلب فيه لهفة الى الله ، ولو أنني قلتُ : إنهم متصوفون لما عدوت الحق ، فالتصوف ليس إلا وقدة في الإحساس . كل شعور قوي تصوف ، مهما كان موضوع ذلك الشعور ، ولهذا نرى الناس يقتتلون في غير مقتل ، حول تصوف شاعر كالخيام ، أمادي هو أم روحي ؟ وهل خمره خمر الدنان او خمر الروح ؟ والأمر بعد سواء ،

الخيام روح حارة ، وكذلك الأمر عند شعراء المهجر)[1] .

وحين نطمئن الى ان التصوف وقدة في الإحساس ، وان كل شعور قوي تصوف ، مهما كان ذلك الشعور ، نوقن ان في قصيدة السياب (أمام باب الله) روحا صوفية تفعم إحساساً قوياً متدفقاً ، زيادة على ما صرح الشاعر به من أيمان ، يرافق ابتهالاته وتضرعه الى الله ، أملا في الراحة من عناء الحياة ، او رغبة في الخلاص منها .

يبدأ الشاعر القصيدة بقوله :

منطرحاً أمام بابك الكبيرْ
أصرخ ، في الظلام ، أستجيرْ
يا راعي النحالِ في الرمالْ
وسامع الحصاة في قرارة الغديرْ
أصيح كالرعود في مغاور الجبالْ
كآهة الهجيرْ[2]

هذا المقطع سواء أكان معزولاً عن سياق القصيدة العام ، ام مكملاً للوحدة الموضوعية أنموذج يفصح عن روح صوفيةٍ مهيمنةٍ بكثافةٍ شادةً إياه الى عالم الهمس .

وقدة الإحساس وقوة الشعور جليتان في النص ، تشي بهما ألفاظه الأسماء والأفعال على حد سواء . وحتى التراكيب فيها من الدلالة ما يؤكد التدفق العاطفي ، او يكثفه ، فلكل من (منطرحاً) و(آهة الهجير) إسهامه في إذكاء حدة المعاناة ، اذ أن في (منطرحاً) دلالة قوية على

---

(1) في الميزان الجديد : ٨٩ .

(2) الديوان : ١٣٥ .

غلبة العناء وهيمنته على الجسد والروح ، وحرمانه الفرد من توازنه وثباته ، اللذين كانا سيجعلانه يختار السجود لله في لحظات اشتداد الحاجة الى الدعاء والنجوى ، لا ان يتهاوى مسلوب الإرادة . وفي (آهة الهجير) موسيقى داخلية تكثف الإحساس بألم مُمضٍ تصور لنا لفظة الهجير حدّته .

وتشترك الأفعال : أصرخ ، أستجير ، أصيح في الإفصاح عن قسوة المعاناة ، وشدة وقعها بنسبٍ تتصاعد على امتداد النص . يرافقُ الفعلَ الأول (أصرخ) شبحُ الدافعِ الى الصراخ ، ليزداد إيلامه درجة تدفع الشاعر الى الاستجارة ، ثم ليبلغ الإيلام غايته ، حين يدفع الشاعر الى الصياح .

وضح الشاعر الفعلَ (أصيح) في سياق يكفل له الوفاء بعمق التجربة الشعورية ، اذ سخّر له فن التشبيه مرتين ، ليضمن كفاية التعبير ، وليكثّف دلالته التي هي اقل حدة من دلالة الفعلين الآخرين ، فكان الصياحُ مثلَ صوت الرعد ، حين يتردد في مغاور الجبال . ثلاثُ دلالات ، في كل واحدة منهن شدة وقوة : هدير الرعد ، صدى يدّوي في المغاور ليتعاظم وهو يتردد بين جنبات الجبال .

في هذه الأجواء الصاخبة المقرونة بالألم ، تنزوي روح وديعة ماتزال تلتقط أنفاسها بشيء غير قليل من الثبات لم ينلْ الالمُ من يقينها ، تبتهل بيقين راسخ في الأعماق :

يا راعي النحالِ في الرمالْ

وسامع الحصاة في قرارة الغديرْ

ابتهال وديع فيه حرارة المشاعر ، وفيه سذاجة تخيل لصاحبها لزوم ان يكون للاله باب كبير . ابتهال قوي على الرغم من عفويته وبراءته .

يرى قدرة الله من خلال حياة ابسط مخلوقاته . فيه لفظة (الراعي) بدلالتها القوية على الحنان والبساطة ، مقترنة بالموسيقى الهادئة التي أشاعها تكرار حرف اللام .

ويتكرر الإحساس الساذج البريء في تكرار صورة الباب الكبير ، حين يقول الشاعر :

منطرحاً أمام بابك الكبيرْ

أحس بانكساره الظنون في الضميرْ

أثور ؟ أغضبُ ؟

وهل يثور في حماك مذنبُ ؟[٣]

مقطع كأنه النهاية السعيدة لصراع مرّ خاضه الشاعر ضد موجة عاتية من الالم والشكوك واهتزاز اليقين . حافظ الشاعر على تماسكه ، انقشعت عن ناظريه وضميره سجاية الشكوك ، وعاد إليه اليقين والرؤية الجلية ، فانكشف أمامه الطريق .

وجاء (انكسارة الظنون) ليؤكد عودة الوعي ، على الرغم مما يشوبه من خلل لغوي ، تمثل بإلحاق تاء التأنيث بالمصدر (إنكسار). ينعم الشاعر بما بعد انكسار الظنون .. إنكسار الظنون القريب في دلالته ولفظة من انحسار الظنون . ثم جاء الاستفهام الاستنكاري الذي لحق بالفعلين (أثور) و (أغضب) رداً رافضاً وسوسة هدامة استهدفت إيمانه ؛ لتدفعه الى بؤرة الشك وهاوية المكابرة أمام عظمة الخالق ، فقطع عليها السبيل بقوله :

وهل يثور في حماك مذنبُ ؟

---

[٣] الديوان : ١٣٦ .

ولا ضير في أقراره بالذنب ، لأن الإقرار إشارة الى وضوح الرؤية ، الذي سيقوده الى اليقين .

في قصيدة (أمام باب الله) قضية يتخللها صراع ، رأينا أثاره على الشاعر في مطلعها . صراع فرد يريد الثبات على اليقــين ، لأن هذا اليقين ، او الإيمان هو سلاحه في صراع آخر ، مــسؤوليته فيــه أكبر ، اذ يحتل فيه مركز الصدارة ، فهو يحمــل همــوم الآخــرين ، ويتحدث نيابة عنهم . ان به حاجة الى إيمان اشد رسوخاً .

وهاهو ذا في موكب حاشد يسير نحو سدة الإله قائلاً :

أسعــى الى سدتك الكبيــرةْ
في موكب الخطاة والمعذبين
صارخة أصواتنا الكسيــرةْ
خناجراً تمزق الهواء بالأنين
ولا وجوهنـــا اليبـــاب
كأنها ما يرسم الأطفال في الترابْ
لم تعرف الجمال والوسامــةْ
تقضت الطفولة . أنطفا سنا الشبابْ
وذاب كالغمامــــةْ
ونحن نحمل الوجوه ذاتها
لا تلفت العيون إذ تلوح للعيونْ
ولا تشفّ عن نفوسنا ، وليس تعكس التفاتها
إليك يا مفجّر الجمال ، تائهون[٤]

---

[٤] الديوان : ١٣٩ .

قد تبدو القضية التي يهتف هذا الحشد من اجلها ، لوهلة هينة لا تستحق عناءً ، ولا تتطلب الأيمان شديد الرسوخ الذي افترضنا أهميته في صراع مثل هذا . فبعد ان احتشد موكب الخطاة والمعذبين ، ليصرخ بأصوات كسيرة تضج بالأنين ، تفاجأ بأنهم يطالبون بالوسامة ، باكين على نضرة الشباب . خيبة أمل لن تدوم طويلاً إذا تصورنا ان (الوسامة) يمكن أن تكون (الكرامة) .. أنها الكرامة بلا أي احتمال آخر .

ولا شك في ان الذي حال دون تصريح السياب بالصراع من اجل الكرامة معرفته ما في الرمز من قدرة على تلوين النص ؛ والانتقال بالمتلقي الى إجواء الخيال ، بعيدا عن التقريرية الجافة .
لقد لجأ الشعر الحديث الى الرمز والأسطورة ، وجعلهما أداة للإيحاء بصور غير مرئية ، لا يمكن الوقوف عليها في ظاهر التراكيب . وكان بدر شاكر السياب من أكثر الشعراء ميلاً الى استخدام الرمز والأسطورة .[٥]

في القصيدة إشارات الى طبيعة الصراع وحقيقة القضية التي ثار من اجلها ، والتي اختار الشاعر التصدي لقيادة الجماهير في مراحلها ، بروح قوامها التضحية ونكران الذات ، مثل قوله :

تعبتُ من توقد الهجيرْ
أصارع العبابَ فيه والضميرْ
ومن لياليَ مع النخيل ، والسراج ، والظنون

---

[٥] في لغة الشعر ، د. إبراهيم السامرائي : ينظر٨٥ دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان (د.ت) .

أتابع القوافي

في ظلمة البحار والفيافي

وفي متاهة الشكوك والجنونْ

تعبتُ من صراعي الكبيرْ

أشق قلبي أطعم الفقيرْ

أضيء كوخه بشمعة العيونْ

أكسوه بالبيارق القديمةْ

تنث من رائحة الهزيمةْ[٦]

هي قضية جماهير مسحوقة ، تتطلع الى واقع أفضل . ويوحي بهذا الألفاظ : الصراع الكبير ، الفقير ، الكوخ ، البيارق ، الهزيمة . وقد تهيأ لهذه القضية قائد بلغت وقدة إحساسه درجة تجعله يشق قلبه ليطعم الفقير . قائد بسيط متواضع ، ذو نزعة صوفية ، تتمثل برضاه باليسير من متاع الحياة :

لا ابتغي من الحياة غير ما لديّ

الهريّ بالغلال يزحم الظلام في مداه

وحقلي الحصيد نامٍ في ضحاه

نفضتُ من ترابه يديّ

لبات في الغداةْ

سواي زارعون او سواي حاصدون[٧]

قائد مترفع عن مغريات السلطة :

---

[٦] الديوان : ١٣٧ .

[٧] الديوان : ١٣٦ .

أريد ان اعيش في سلام

كشمعة تذوب في الظلام

بدمعة أموت وابتسام[٨]

قائد لا يكابر ، ولا يدّعي ما ليس في وسعه ، لذا نـراه يـردد كلمـة (تعبت) غير متوانٍ في اداء رسالته :

تعبتُ من توقّد الهجيرْ

تعبتُ من تصنع الحياةْ

تعبتُ كالطفل إذا اتعبه بكاةْ[٩]

ان الصوفية ايمان بروح مجهول ، واطمئنان اليه ، وسعي الى التخلص من الجسد الفاني ، والتلاشي في هذا المجهول المغيّب[١٠] .

ومن هنا يأتي قول السياب

منطرحاً أصبح ، أنهش الحجار :

أريـد ان أمـوت يإلـه[١١]

وغير خفي ما في هذا البيت من صدق فني ، هيأ له الشاعر بإعلانـه التعب الذي ينهش روحه ، فجاء تعلّقـه بـالموت مُـسوّغاً لا يفـاجئ المتلقي ، لأنه يضفي لمسة واقعية على السياق . وفي البيت انفعال قوي رصين ، ينبئ عمّا وراءه من عاطفة لاشك في جيـشانها وصـدقها ، عاطفة مهذبة ، ضمنت لها استقامتها ان تحمل مسحة صوفية . ومـن

---

(٨) الديوان : ١٣٦ .

(٩) الديوان : ١٣٨ .

(١٠) مقالات في النقد الأدبي ، د . محمود السمرة : ينظر ١٢٧دار الثقافة ، بيروت (د.ت) .

(١١) الديوان : ١٣٩ .

هنا يمكننا المضي في التماس الروح الصوفية ـــ حزينة الهمس ـــ في شعر السياب .

يرى الدكتور زكي مبارك أن (التصوف هو كل عاطفة صادقة ، متينة الأواصر ، قوية الاصول ، لا يساورها ضعف ، ولا يطمع فيها ارتياب)[١٢] .

ويكفي ان تجيش العاطفة ، او ان تسري مع الروح ليمكن السمو الى عالم التصوف . وليس في هذا القول تساهل ، او تجويز . كما انه ليس من نتاج الفكر الحديث ، الذي يعيد قراءة التراث ليستنبط مفاهيم وعلاقات جديدة . إنما هو من دعائم الفكر الصوفي القديم . وقد اختار الدكتور زكي مبارك من بين تعاريف كثيرة للصوفية تعريفاً لأبي علي الروزباري[١٣] يكشف عن أهمية رسوخ العاطفة في نفس الصوفي والاكتفاء بذلك دون النظر الى نتائجه . يقول الروزباري : (التصوف الاناخة على باب الحبيب ، وان طُرِد عنه)[١٤] .

في ضوء هذا يمكن النظر الى قصيدة السياب (دار جدي) .

---

[١٢] التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق :١ / ١٦ المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت (د.ت) .

[١٣] احمد بن محمد بن القاسم بن االمنصور ، ابو علي الروزباري .

من اهالي بغداد . سكن مصر وكان شيخها ومات بها سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة .

المقدمة في التصوف وحقيقته ، للامام ابي عبد الرحمن السلمي (ت٤١٢هـ) : ينظر ٥١ .

تحقيق د. حسين أمين ، دار التربية ، بغداد ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .

[١٤] التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق : ١ / ١٦ .

في عام ١٩٦١ عاد بدر بعد غياب طويل ، تخلله كثير من العناء ، الى جيكور . ومثلت هذه العودة الكثير لدارسي أدبه ، فهي ليست عودة مسافر ، او غائب الى أهله ، حاملاً حقيبة سفر يده واشواقا في قلبه ، ترافقه عواطف الغائبين ولهفة العائدين . انها شيء أكبر من هذا ، لأن العائد هو بدر والوطن هو جيكور . انها عودة ملحمية : (انه مثل عوليس العائد الى بيته شيخاً أبيض الشعر)[١٥] .

وحين وصل بدر الى دار جده ، لم (يُجبْ طرقاته على بابها الا صدى طفولته وصباه ، ووجوه العجائز التي هي أفصح من الجنائز والقبور في حديثها الصامت عن مناجل الزمن .

تذكر بدر ايام صباه في تلك الدار ، فأدرك انه لايشتهي الدار نفسها ، في جِدَّتها ورونقها ، وانما يشتهي الصبا والهناء اما خرائب الدار المحدّقة اليه فهي تذكرّه فقط بانه يحمل برعم الردى في داخله ... عادت الى بدر كل ذكريات صباه ، ورأى عالم طفولته لا يشيخ أبداً ، وقد توقف فيه الزمن)[١٦] .

الدار القديمة والصمت المحيط بها ، والذكريات التي تناثرت حولها حاملة صورة الأمس ، أمس الطفولة والصبا والفتوة . أمس الضجيج والصخب ، يوم كانت الجرار ندية ، تملؤها مياه بويب ، وكانت الالحان ترافق مواسم الحرث والبذار والحصاد ، كل هذا جعل روح الشاعر تسمو الى عالم آخر ، يختلط فيه الجمال والصوفية . اما الجمال فهو ليس غريباً في دنيا بدر . وكان نصيب هذه القصيدة منه شيئاً غير

---

[١٥] بدر شاكر السياب ، حياته وشعره : ١١٩ .

[١٦] بدر شاكر السياب ، حياته وشعره : ١١٩ .

قليل ؛ تمثل في لغة الحب التي يجيد بدر استخدامها ، ويتألق فيها حين يذكر رموزه ، فتصبح لغته لغة مجازيةً عذبــةً ، مفعمــةً عاطفــةً . يقول :

وفي الصيف حين ينعس القمرْ

وتذبل النجومُ في اوائل السَّحرْ

أفيق أجمع الندى من الشجــرْ

في قدحٍ ليقتلَ السعالَ والهزالْ[١٧]

في هذا المقطع شيء لافت شفيف ، من طفولة الفكر وبراءة الطفولة ، سذاجة الحياة وفطرتها ونقائها ، فسعادتها . ما أجمل ان يؤمن الانسان ان قدحاً من ندى الأشجار ، يجمعه في الصباح الباكر كاف لشفائه من السعال والهزال ! ليكن ذلك خرافة ، او وهماً ، أو ســذاجة ، إلا إنــه معتقد لا يخلو من حلاوة الايمان وحرارة العاطفة .

واما الصوفية فانها روح سارية في القصيدة منذ مطلعها ، تبدو مثــل مسافر راجل قادم من بعيد ، كلما اقترب ازدادت ملامحه وضــوحاً . فهي شاخصة في الحزن الذي هيمن على الشاعر ، وهو يرنو الى الدار التي خيم عليها الصمت والاهمال :

مطفــأة هـــي النوافــذ الكثـــارْ

وباب جدي موصـــد وبيته انتظــارْ

واطرق الباب ، فمن يجيبُ ، يفتحْ

تجيبني الطفولةُ ، الشباب منذ صارْ

تجيبني الجرار جفّ ماؤها ، فليس تنضحُ :

---

(١٧) الديوان : ١٤٧ .

((بويب)) غير انها تذر ذر الغبارْ

مطفأة هي الشموس فيه والنجومْ [18]

كثافة الحزن تمثلت في تقديم (مطفأة) ، بوصفها اول ملامح الصورة التي أراد الشاعر إيصالها الى المتلقي . حزن لم يمنع إطلال الجمال من تركيب ثانٍ ، تقدمت فيه المفردة نفسها ، في الشطر الأخير من القطع :

مطفأة هي الشموس فيه والنجومْ

فقد جعل الشاعر دار جده كوناً فسيحاً ، تسبح فيه شموس كثيرة ونجوم . لمحة جميلة ، نسايرها في عالم الفن تلك اللمحة الرائقة في مقطع من القصيدة ذكرناه ، بما أحدثته فيها الاستعارة الرقيقة النابعة من إضفاء الذبول على النجوم :

وتذبل النجوم في أوائل السحرْ

وجاء موقع بويب في سياقه آيةً من الابهار والغموض الساحر . فهل هو منادي شاخص في الوجدان ملاذاً ، يلجأ اليه الشاعر مستجيراً من عذاب الحيرة والتساؤل ؟ او هو معمول للفعل (تنضح) ، يوحي بقطرات ماء تتجمع من رشح الجرار ، تمثل كل منها بذرة من الأصل ، بويب نبع المحبة والأمان .

كانت القصيدة مسرحاً عرض فيه الشاعر قصة حياته ، وسلط الأضواء على ضربات القدر ، وهي تنهال على صباه وشبابه . أنها قصة الحياة والممات . وفي زوايا المسرح ثمة عجائز ، خبرن الحياة ، وعشن الأحداث . أنهن الشاهدات اللائي سيؤكدن حقيقة القصة :

---

[18] الديوان : ١٤٣ .

فأوجـــه العجائـــز

أفصح في الحديث عن مناجل العصور

من القبور فيه والجنائـــز

وحين تقفر البيوت من بناتها

نحس كيف يسحق الزمان اذ يدور[١٩]

وتكفل المقطع الأخير بالتعبير الوافي عن موقع الإنسان في مسار حركة الزمان .

ترقّ روح السياب في القصيدة ، وتتكشف صوفيته لتنزع عن عينيـه غشاوة الدنيوية ، فيصحّ بصره ، فيزداد ايماناً بالحقيقة الكبـرى التـي تجمع أطراف الكون في رحابها ، وهي ان الخالق العظيم هو حب قبل أي شيء .

هذه الحقيقة يؤيدها ما ذهب اليه واحد من ابرز الأوربيين الذين درسوا التصوف ، وهو العلاّمة نيكولسون ، الـذي يـرى ان الحـب عنـد الصوفيين هو (سر الوجود وعلّته الأولى)[٢٠] .

يقول السياب :

وأبصر اللهُ على هيئة نخلة

كتاج نخلة يبيضّ في الظلام

أحسّه يقول : (يابُنيّ ! ياغلامْ !

وهبتك الحياة والحنان والنجومْ

---

[١٩] الديوان : ١٤٤ .

[٢٠] في التصوف الاسلامي وتأريخه : ٩٣ .

ترجمة أبي العلا عفيفي .

لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٢٥هـ / ١٩٥٦م .

وهبتها لمقلتيك ، والمطرْ

للقدمين الغضتين ، فاشرب الحياةْ

وعبّها ، يحبك الإلهْ)[٢١]

خطاب دافئ ، مفعم عاطفة (يا بُني ياغلام) . دلالة الزمن فيه تجسدها لفظة (غلام) مؤكدة حداثة السن التي تستدر من الأبوة شحنة قوية من الحب والحنان .

ألفاظ المقطع متجانسة ، تجمعها الرقة : بُني ، غلام ، الحياة ، الحنان ، النجوم ، المقلتان القدمان الغضتان ، .. رقة توحي بالجمال والسمو ، لقد انطلق السياب من عالم الجمال ليرتقي الى دنيا الحب الفسيحة ؛ وصولاً الى أسنى مراتبها وأكثرها قدسية ، حب الإله الذي لا تحدّه حدود ولا يحيط به وصف .

وتنتهي هذه الرحلة الشفافة الهامسة بالحب ، (يحبك الإله) .

كثيراً ما يكون الالم واحداً من محفزات الابداع . وقد تعامل دارسو الادب مع هذه الفكرة بوصفها أحد الثوابت في الحياة الأدبية . ومنذ القرن التاسع عشر شاع الاهتمام بموضوع المرض في الأدب العالمي ، وما يزال هذا الأهتمام شائعاً عند الأدباء المعاصرين . وقد قدّم دستوفسكي نماذج خالدة للمرضى في (الاخوة كرامازوف) و(المعتوه) وكذلك فعل بلزاك وديكنز وسومرست موم في إنتاجهم الأدبي .[٢٢]

---

[٢١] الديوان : ١٤٨ .

[٢٢] مقالات في النقد الادبي : ينظر ١١١ .

وعندما كتب توماس مان[٢٣] مقدمة كتاب شوبنهور (العالم كإرادة وفكرة) اقتطف كلاماً لنيتشه يقول فيه ان قيمة الإنسان في المجتمع تتناسب مع مقدرته على الصبر والتحمل . ويعلق مان قائلاً : (وهنا يتفق نيتشه اتفاقاً كلياً مع شوبنهور في هذه النظرية ، وخاصة فيما يتعلق بالرابطة المتينة التي تجمع بين النبوغ والألم)[٢٤].

وكان مذهب توماس مان (ان المرض المودي بصاحبه لا يحطم الجسد بقدر ما يوقظ قوى الحياة ؛ ويسمو بالمتألم)[٢٥] .

ولطول متابعته حالات المبدعين الذين تعرضوا لإصابات بأمراض خطيرة كان (يرى ان المرض نتيجة للموهبة الخالقة)[٢٦] .

ولعل إعجاب مان (وتأثره بدستوفسكي هو الذي جعله يسلك هذا السبيل، فعطف دستوفسكي على المتألمين وإيمانه بقدرة الألم على السمو بالنفس ، جزء من ذاته ، لأنه هو نفسه كان مريضاً . وان تصويره للمصابين بالصرع والمعتوهين ليكشف عن عاطفة أعمق بكثير من

---

[٢٣] اديب الماني غزير الانتاج ، عميق الفكر . زاول الكتابة ابان اندلاع الحرب العالمية الاولى . شغلته فكرة العلاقة بين الفكر والسياسة ، وعلى اساسها درس تاريخ بلاده الادبي . دافع في بداية حياته عن موقف بلاده دفاعاً حاراً ، على الرغم من إيمانه بان على الفنان الا يتدخل في الشؤون السياسية . منذ سنة ١٩٢٢ أعلن توماس مان عداءه للفاشيه ، منطلقاً من ايمانه بعدائها للانسانية . نال عام ١٩٢٩ جائزة نوبل للآداب . وفي عام ١٩٣٣ كان يحاضر في سويسرا عندما تسلم هتلر السلطة في الماني ، فلم يعد اليها ، واقام في سويسرا . وفي عام ١٩٣٦ سحبت منه جنسيته الالمانية . يمكن ان يُعد ادبه انموذجا للصدق الفني والالتزام .

المصدر نفسه : ينظر ٩٩ ــ ١٠٥ .

[٢٤] المصدر نفسه : ١١٠ .

[٢٥] المصدر نفسه : ١١١ .

[٢٦] المصدر نفسه : ١١٢ .

مجرد الاهتمام بمرض عارض يصيب الجسد . إن مرض الروح والجسد متلازمان في أدب دستوفسكي ، واحترامه للألم يدل دلالة واضحة على إيمانه بان المرض والسمو النفسي شيئان لاينفصمان . وتوماس مان نفسه يشير الى ((المعتوه)) بأنه محاولة من دستوفسكي يعرض فيها انقى واطهر ما في النفس الإنسانية)[٢٧] .

ونؤكد نظره الرومانسيين الى المرض دوره في الارتقاء بالإنسان وصقل روحه (فالأدباء الألمان من المدرسة الرومانتيكية لا ينظرون الى المرض كشيء كريه الى النفس وعدو للإنسان ، بل يرون فيه ظاهرة روحية ملازمة للتنبه الفكري والعاطفي . ويقول ((نوفاليس)) : ان الصحة الجيدة شائقة من الوجهة العلمية ، اما المرض فضروري لبناء الشخصية المتميزة)[٢٨] .

وحين نقرأ قصيدة السياب (سفر أيوب) في ضوء ما تقدم ، لن يكون ألم الشاعر فيها صدمة لنا تثير فينا الرغبة في مواساته ، بل سيكون دافعاً للبحث عن الأثر المرتقب للألم في إذكاء إبداعه .

هذه القصيدة هي جواز سفر الشاعر الى دنيا الصوفية ، وهي بطاقة انتسابه إليها .

فيها يؤكد رضاه التام عمّا أصابه من بلايا ، وشكره لمن ابتلاه ، اذ يقول :

لك الحمد مهما استطال البلاءُ

ومهما استبدّ الألمْ

---

(٢٧) مقالات في النقد الادبي : ١١٢ .

(٢٨) نفسه .

لك الحمد ، إنْ الرزايا عطاءْ

وان المصيبات بعض الكرمْ[٢٩]

(ولهذا أصل لدى الصوفية ، فالمتدينون يعدون البلايا من نِعَم الله على أحبائه ؛ يميزهم بها من[٣٠] سواهم من الناس المنّعمين بالصحة والمال والسعادة . ولذلك يصف ابن الفارض الحبيبة[٣١] بقوله : ((بدرُ محني في حبه من منحي)) فالمحن منحة من الله لمن يحبهم)[٣٢] .

يتسامى السياب في (سفر أيوب) فوق حدود الذات البشرية الهشّة ، ليتحد بذات سامية ، تشرفت بلفته حانية من لدن رب العـزة ، اكتسبت من خلالها السمو والنقاء غير المحدودين . تلك الذات السـامية هي النبي أيوب (عليه السلام) .

يقول السياب في لحظات سموّه ، مشيراً الى نفسه :

ولكنّ أيوبَ إنْ صاح صاح :

(لك الحمد ان الرزايا ندى

---

[٢٩] الديوان : ٢٤٨ .

[٣٠] في الاصل (يميزهم بها عن سواهم) والصواب ما أثبته .

[٣١] الحبيبة في قصيدة ابن الفارض المشار اليها رمز الى الله تعالى .

وردت هذه الاشارة في مقالة عنوانها (الحب والمـوت فـي شـعر ابـن الفارض) تقول فيها الدكتورة نازك الملائكـة : (والمـستوى الثـاني ان المحب ميت لا حراك به ، وانْ كان حياً ، فهو ((ميت الأحياء)) لأنه يعيش في غيبوبة روحية ممتدة ، ينظر الى الاشياء ولا يراها ، لأن الحبيبـة (الله) قد سلبته وعيه لسحرها وجمالها) .

سايكولوجية الشعر ، ومقالات اخرى ، نازك الملائكة : ١٩٨ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٩٣م .

[٣٢] المصدر نفسه نفسه : ١٩٩ .

وان الجراح هدايا الحبيبْ
أضمّ الى الصدر باقاتهـا
هداياك في خافقي لا تغيبْ
هداياك مقبولة هاتها)[٣٣]

ايمان مطلق لا تحده حدود ، ولا تشوبه شائبة . قبول واع بكل ما يفتك بالجسد (فكل من عرف الله وأحبه ، يكون مبتهجاً انتشاءً بجماله وعمق أبعاده وسعة رحمته . والله يهدر دماء عشاقه ، لأنه بذلك يقربهم اليه ، ويأخذهم الى جواره ، فقسوته رحمة ووفاء)[٣٤] .

الروح الصوفية السَّمحة ، والاستبشار والقناعة بان الدواهي النازلة هي من نِعَم الله على أحبائه ، ليست هي المسوغات كلها التي تـدفع الـى وصف المقطعين السابقين بالهمس ، اذ يتكاثف الهمس فيهما بسبب من خصيصة الحب وأريجها الذي تحمله سطورهما ، ومن اللغة الدالـة . ففي المقطع الأول حيث يقول الشاعر :

لك الحمد مهما استطال البلاء
ومهما استبدّ الألمْ

يحمل الفعلان (استطال) و (استبد) دلالة تلائم فكرة سـياقيهما ، كمـا يؤديان دوراً في إطالة مدة النغم المصاحب أحرف الزيادة فيهما . فقـد عززت هذه الأحرف التي لحقت الفعـل (طـال) معنـاه المعجمـي ، وصوّرته طاغيةً عاتياً ، يشمخ أمام الضحية .

---

(٣٣) الديوان : ٢٤٩ .

(٣٤) المصدر السابق : ٢٠١ .

أما الفعل (استبد) فقد جاء اختيار الشاعر إياه ملائماً السياق تماماً ؛ لان لصيغته مثيلات يصلحن لأداء دوره في سياقه ، مثل (استشاط) التي أصلها (أشاط)[٣٥] ، والتي يفيد استخدامها المجازي تصاعد الحدّة في نفس المستشيط والقدرة على إلحاق الأذى بالآخرين[٣٦] .

ومثلها (استطار) التي يدل معناها المجازي على الهياج والظهور والانتشار[٣٧] . وهي ملائمة كلها للاقتران بالألم وتأدية المعنى الذي يريده الشاعر .

ومثلها (استباح) التي يتقبلها المتلقي بيسر ، ومن دون ان يلاقي مشقة في استنباط مفعولها المطلوب تعديها اليه .

ولكن الشاعر اعرض عن هذه البدائل كلها ، واختار الفعل (استبد) ، لدلالته على الطغيان ، وهو ما يتناسق وفكرة الطغيان الجليلة في (استطال البلاء)[٣٨] . يشيع أسلوب الخبر في المقطع الثاني :

---

(٣٥) أشاط : أهلك .

مختار الصحاح للرازي : (شيط)

دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .

(٣٦) أساس البلاغة ، للزمخشري : (شيط) .

دار صادر ، بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م .

(٣٧) المصدر نفسه : (طير) .

(٣٨) تمتاز دلالة الفعل (طغى) بالثبات في حالتي استخدامه الحقيقي والمجازي ، فيقال في المجاز (طغى البحر والسيل ، وتطاغى الموج) أساس البلاغة : (طغى) . ومنه قوله تعالى ((إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية)) الحاقّة : ١١ . فدلالة الفعل ثابتة في الحالين اما الذي يتغير فهو الفاعل . ولعل هذا الثبات هو ما يفسر اتكاء الشاعر على الفعل (طغى) للتعبير عن شدة معاناته وتفاقمها .

لك الحمد إن الرزايا ندى

وإن الجراح هدايا الحبيب

أضم الى الصدر باقاتها

وإنا بين (الندى) و (باقاتها) صلةً ، وحولها ظلالاً متداخلة لحزمة من الأوراد ، أوراقها ندية ، وعطرها ينعش الروح ، فيجعلها متطلعة الى المزيد .. المزيد من الهدايا .. المزيد من الرزايا .

لوّنت العاطفة لغة (سفر ايوب) ، وتركت على احرفها مسحات مشرقة ، بددت ظلمة الأرزاء ، مثل قول السياب :

لأنه منك حلو عندي المرضُ

حاشا ، فلستُ على ماشئتَ أعترضُ[٣٩]

فهذا ابتهال كله إيمان وعرفان ، ينبئ عما وراءه من سماحة وجمال . فيه جمال الموسيقى ، وعذوبة الالفاظ ، ورشاقة التركيب ، فيه حسن التعليل ، وحسن الابتداء (لأنه منك) ، وفيه رهافة الذوق في تقديم الخبر على المبتدأ (حلو عندي المرض) ، هذا الذي يسميه البلاغيون (تعجيل المسرة) ، إذ تغمر البهجة نفس المتلقي بتأثير لفظة (حلو) ، فيكون ذكر المرض خفيف الوطء عليه .

في هذه القصيدة دروس وتعاليم صوفية كثيرة ، فيها حلاوة الاستذكار الدائم لنعمة الله :

ألم تعطني أنت هذا الظلامْ

واعطيتني أنت هذا السحر؟

فهل تشكر الأرض قطر المطرْ

---

[٣٩] الديوان : ٢٥٩ .

وتغضبُ إن لم يَجُدْها الغمامْ[٤٠]

فيها السمو والترفع عن مرارة الشكوى وذلها :

أشد جراحي وأهتف بالعائدين

(ألا فانظروا واحسدوني ، فهذي هدايا حبيبي)

وإنْ مسَّت النار حرَّ الجبينْ

توهمتها قبلة منك بجبولة من لهيب

جميلٌ هو السهد أرعى سماكْ

بعينيّ حتى تغيب النجومْ

ويلمس شباك داري سناكْ

جميل هو اللّيلُ : أصداء بومْ[٤١]

يدفع توظيف السياب معاناة النبي أيوب (عليه السلام) الى البحث عن الخصائص الفنية للقصيدة ؛ المتيحة لها أنْ تحمل تسمية (قصيدة قناع) ، التي أكثر النقد الحديث من تداولها (تنتمي قصيدة القناع الى الأداء الدرامي ، ذلك ان الشاعر فيها يستطيع ان يقول كل شيء ، دون أن يعتمد شخصه ، أو صوته الذاتي بشكل مباشر ، لأنه سيلجأ الى شخصية أخرى ينقصها او يتحد بها ، او يخلقها خلقاً جديداً ، وسيحمّلها آراءه ومواقفه ، تماماً كما يفعل المسرحيّ الذي يختفي وراء أشخاص من صنعه ، يتولون نقل كافة ما يريد ان يقوله ، او يوحي به)[٤٢] .

---

[٤٠] الديوان : ٢٤٨ .

[٤١] نفسه .

[٤٢] دير الملاك ، د. محسن أطيمش : ١٠٣ .

ط ٢ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٦ م .

حدد الدكتور محسن أطيمش فروقاً بين الشخصيات في قصيدة القناع وفي المسرحية ، من حيث علاقتها بالمبدع ، فذهب الى (ان الشخصية المسرحية مستقلة عن المؤلف ، أي أن لها مواقفها المتفردة ، التي لا تطابق مواقف كاتبها بالضرورة ، لأن تصرف الشخصية المسرحية وأقوالها إنما تنبع من ظروفها الخاصة داخل الحدث المسرحي)[٤٣] .

في حين ان العلاقة المذكورة تنحو في قصيدة القناع منحى آخر ، حيث الشخصية (غير مستقلة عن الشاعر المعاصر ، لأنها ـ بتعبير آخر ـ اتحاد الشاعر برمزه اتحاداً تاماً ، ولذا ينبغي ان تتوفر في القناع تلك المواقف والخصائص التي تشبه الى حد بعيد مواقف الكاتب المعاصر ، وافكاره وازماته ، وعندها سيكون شخصا القصيدة : الشاعر وقناعه شيئاً واحداً)[٤٤] .

قد نسألُ ، اذا عددنا قصيدة (سفر أيوب) قصيدة قناع اسئلة عِدّة ، منها : هل استطاع السياب في توظيفه معاناة النبي أيوب (عليه السلام) أن يتحّد بشخصية النبي اتحاداً تاماً ؟ وهل في توظيفه هذا تميّزٌ مما فعله شعراء آخرون معاصرون ، مثل عبد الوهاب البياتي وصلاح عبد الصبور في قصائدهم الأقنعة ؟

تتجه قصيدة القناع في الغالب الى التأريخ ، لتختار شخصاً فاعلاً متفرداً ، ذا موقف ايجابي ، لتتوحد به ، ولتوجه على لسانه الخطاب ، محملاً بهموم الشاعر وغاياته . ولقد تحقق هذا في عمل السياب ، إذ اتجه الى الموروث الديني ، فاختار شخصية نبي كريم ، له ما للأنبياء

---

[٤٣] نفسه .

[٤٤] دير الملاك : ١٠٢ ـ ١٠٤ .

والرسل من قدسيه ، وله تميّزٌ ، نجح الشاعر في الإفادة منه ، ونجح قبلَ هذا في دراسته ـ أي التميز ـ بإمعان ، فاكتشف دقائقه ، وأجاد رسم غايته التي يسعى الى تحقيقها ، فاندفع في التوحد بصدق وإخلاص ، أملاً في النجاة والخلاص .

من شواهد التوحد قول السياب :

ياربَّ أيوبَ قد أعيا بـه الداءُ

في غربة دونما مالٍ ولا سكنِ

يدعوك في الدّجنِ

يدعوك في ظلموت الموت أعباءُ

ناء[٤٥] الفؤاد بها ، فارجمه إن هتفا

يامنجياً فلك نوح مزّق السُّدفا

عني ، أعدني الى داري ، الى وطني[٤٦]

لم تتلاشَ شخصية السياب وملامحه داخل إطار هذه الصورة ، اذ بقيت منه أشياء تحمل بصماته وتدل عليه ، أبرزها غربته وفقرة . كقوله :

أطفال ايوب من يرعاهم الآنا

ضاعوا ضياع اليتامى في دجىً شاتِ[٤٧]

بقيت صورة السياب واضحة المعالم ، وهي تتبرقع بعباءة النبي الكريم .

ثم يقول في ختام القصيدة :

---

[٤٥] في الاصل (ناد) .

[٤٦] الديوان : ٢٥٧ .

[٤٧] الديوان : ٢٥٧ .

وان صاح ايوب كان النداءْ

((لك الحمد ياراميا بالقدَرْ

ويا كاتباً ، بعد ذاك الشفاء !))[٤٨]

هذه الخاتمة هي المدخل الى الحديث عن تميّز السياب في توظيفه شخصية النبي الكريم ، فقوله (وياكاتباً بعد ذاك الشفاء) يمثل سر الاختيار وغاية التوحد ، إذ ان في قصة سيدنا أيوب (عليه السلام) دلالات عدة ، تتفاوت في استقطابها اهتمام المتلقين ، منها : معاناته وصبره وحسن ثوابه ، اوحسن الخاتمة .

ويبدو إن للدلالة الأخيرة وقعا في نفس الشاعر ، كثّف اهتمامه بها ، لذا نراه يكرر الحديث عن النهاية السعيدة ، بوصفها يقيناً ثابتاً ، او أمنية يرجو ان تتحقق ، فيقول :

يارب ارجع على أيوبَ ما كانا

جيكور والشمس والأطفال راكضة بين النخيلات

وزوجة تتمرى وهي تبتسمُ

أو ترقبُ الباب ، تعدو وكلما قُرعا

لعله رجعا

مشّاءة دون عكازُ به القدمُ [٤٩]

ويقول :

إني سأشفى ، سأنس كل ما جرحا

قلبي ، وعرّى عظامي فهي راعشة والليل مقرور

---

[٤٨] الديوان : ٢٥٠ .

[٤٩] الديوان : ٢٥٨ .

وسوف أمشي الى جيكور ذات ضحى[٥٠]

ويمكن القول إن أهم عامل في نجاح السياب في خلق قصيدة القناع ، هو قدرته على تجاوز الثغرة الأوسع في أعمال معاصريه ، الحاملة الصفة نفسها ، والتي حدثت حين خَفَتَ صوت الرمز ، او تلاشي فطغى صوت الشاعر .[٥١]

والسياب يَعُدُ ، مبدع من الطراز الرفيع ، وفي مجال استلهام رموز التاريخ والتوحد بها ، أشار اليه النقاد بتقدير عالٍ .

(ولعل قصيدتي بدر شاكر السياب ((تموز جيكور)) و ((المسيح بعد الصلب)) هما البدايات الناضجة الأولى ، والمميزة أيضا ، لفكرة القصيدة القناع ، ففيهما يتوحد الشاعر مع رمزه ، وسيقول كل شيء من خلاله ، ويكتشف فيه القدرة التامة على المشاركة وتحمل المواقف المعاصرة)[٥٢] .

إن (سفر أيوب) نشيد ملائكي اكثر منها قصيدة شعر ، او أنها قصيدة شعر صدرت من وجدان ملائكي ، هو ميزة النفوس المميزة التي تجتمع فيها الصوفية والهمس .

قلنا ان في (سفر أيوب) دلالات عدّة ، منها النهاية السعيدة التي كثّفَ الشاعر اهتمامه بها بوصفها يقيناً ثابتاً ، او أمنية يرجو ان تتحقق . هذا اليقين الثابت ، زيادة على العشق الإلهي المتجذر في أعماق الشاعر ، كانا الروح التي استند إليها بناء قصيدة أخرى

---

(٥٠) الديوان : ٢٥٩ .

(٥١) دير الملاك : ينظر ١٠٧ .

(٥٢) المصدر نفسه /: ١٠٥ .

للسياب ، انسابتْ في المسار ذاته ، هـــي قـصيدة (قـــالوا لأيــوب) ، مطلعها:

قالوا لأيوبَ : ((جفاك الإله))
فقال : ((لايجفو
مَنْ شدّ بالإيمان ، لاقبضتاه
تُرخى ، ولا أجفانه تغفو))
قالوا له : ((والداء مَنْ ذا رماه
في جسمك الواهي ومَنْ ثبتّه ؟))
قال : ((هو التكفير[٥٣] عمّا جناه
قابيل والشاري سُدًى جنته))[٥٤]

حوار سبق اليه النبي الكريم ، او الشاعر الذي تستر وراء شخـصه ، لاختبار مدى إيمانه ، او لزعزعته . وكـان الإيمـان مكينـاً راسـخ الجذور ، فأعاد المحاورون المحاولة ، مذكرين النبي بما ابتُلـيَ بــه ، فجاء الجواب مفعماً بأنفاس صوفية ، تصحبها رقة المحبـين ، ليؤكـد الرضا وثبات اليقين ، ثم يتجه المحب بالنجوى الى المحبوب :

يارب لا شكوى ولا من عتابْ !
الستَ أنت الصانع الجسما ؟
فمن يلوم الزارع ، التمّا
من حوله الزرع ، فشاء الخرابْ
لزهرة والماء للثانيةْ ؟

---

(٥٣) في الاصل (التفكير) .

(٥٤) الديوان : ٢٩٦ .

هيهات تشكو نفسي الراضيةْ[٥٥]

يستوقفنا اهتمام الشاعر بدلالة العتاب ، الذي يتميز من الشكوى بكونه لا يصدر الا ممن في نفسه ود وحب لمن يُعاتِب . جعل الشاعر العتابَ مسبوقاً بـــ (من) التي تفيد باقترانها بلا النافية خلوّ وجدان المحب من أدنى آيات العتاب .

تؤكد قصيدة (قالوا لأيوب) كثافة اهتمام الشاعر بجانب من دلالة معاناة النبي الكريم ، انصبّ على الأمل في ان تتحقق النهاية السعيدة ، إذ يقول :

سيهزم الداء : غداً أغفو

ثم تفيقُ العينُ من غفوةْ

فأسحبُ الساقَ الى خلوةْ

أسالُ فيها الله ان يعفـــو

عكازتي في الماء ارميها

واطرق البابَ على أهلي

إن فتحوا البابَ فيا ويلي

من صرخةٍ ، من فرحةٍ مسّت حوافيها

دوامة الحزن .. وأ أيوب ذاكْ ؟

أم أن أمنيــــةْ

يقذفها قلبي ، فألفيهـــا ؟

ماثلة في ناظري حيّةْ ؟[٥٦]

---

(٥٥) الديوان : ٢٩٧ ــ ٢٩٨ .

(٥٦) الديوان : ٢٩٦ ــ ٢٩٧ .

يؤكد النص عمق الروح الصوفية في وجدان الشاعر ، فبعد حلول النهاية السعيدة ، واستعادته القدرة على مزاولة نشاطه السابق ، ان من الطبيعي رغبته في مليء ما طرأ على حياته من فراغ عاطفي ، بإسراعه الى أهله بعد الفراق الطويل ، ولكنه يفاجئنا بسعيه الى خلوة يناجي فيها الله مستغفراً .. يستغفر قبل ان يشكر .

ولاشك في ان الاستغفار قبل الشكر في حالة مثل هذه ؛ فعلٌ له في عالم التصوف دلالة مؤثرة .

وان في قول الشاعر (عكازتي في الماء ارميها) لمسة فنية جميلة ؛ تؤكد وجود ظاهرة التناسق الفني ، ليس على مستوى النص الواحد حسب ، إنما على مستوى أكثر امتداداً ، اذ نلمس هذه الظاهرة الفنية جلية عند السياب في عدد كبير من قصائده ؛ فهذه القصيدة مثلاً خالية من أية إشارة الى الماء ، او مصادره مثل النهر والبحر ، ولكن الإشارات التي تعنيها كانت مبثوثة بغزارة في قصائد أخرى ، سرد فيها الشاعر حكاية سفره طلباً للشفاء ، مثل (رحل النهار) و (حامل الخرز الملون) ، فكأن هذه القصيدة مرحلة من مراحل ذلك السفر .

وتتكرر الإشارة الى حتمية النهاية السعيدة ، بإحساس صوفي يدفع الى اليقين بأن السعادة خاتمة المسار .

إني لأدري ان يوم الشفاء
يلمح في الغيبِ
سينزع الأحزان من قلبي
وينزع الداء ، فأرمي الدواءْ
أرمي العصا ، أعدو الى دارنا وأقطف الأزهار في دربي
ألمّ منها باقة ناضرةْ

أرفعها للزوجة الصابرةْ

وبينها ما ظلّ من قلبي[٥٧]

في ختام المقطع ألفاظ بلغت من السهولة قدراً جعلها تقترب من التعبير الشعبي ، على الرغم من فصاحتها ، مثل الفعل (ألمّ) بمعنى : أجمع[٥٨] ، و (ماظل) الذي يعني (ما بقي) ، وقد قُدر له ان يسهم في خلق صورة جميلة ، على الرغم من بساطته ، هي صورة باقة من الأزهار اليانعة تتوسطها بقية من قلب تنازعته أنياب المرض والغربة ، غير انها لم تنلْ من نضرته .

إن ما ذكرناه شواهد على الروح الصوفية في شعر السياب ، لها بالهمس صلةٌ عبر ما فيها من دماثة ورقة ونقاء .

---

(٥٧) الديوان : ٢٩٨ .

(٥٨) يُقال : (لمّ) الله شعَثَه أي : أصلح وجمع ما تفرق من أموره . مختار الصحاح (ل م م) ، وهذا الفعل اكثر شيوعاً في التعبير الشعبي منه في الفصيح .

المصادر

١ ـ أساس البلاغة ، للزمخشري

دار صادر ، بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م .

٢ ـ بدر شاكر السياب ، حياته وشعره ، عيسى بلاطة

دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٠ م .

٣ ـ التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ، د . زكي مبارك

المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت (د.ت)

٤ ـ دير الملاك ، د . محسن أطيمش

ط ٢ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٦ م .

٥ ـ ديوان بدر شاكر السياب

دار العودة ، بيروت ١٩٧١ م .

٦ ـ سايكولوجية الشعر ومقالات أخرى ، د . نازك الملائكة

دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٣ م .

٧ ـ في التصوف الإسلامي وتأريخه ، نيكولسون

ترجمة أبي العلا عفيفي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ،

القاهرة ١٣٢٥هـ / ١٩٥٦م .

٨ ـ في لغة الشعر ، د . إبراهيم السامرائي

دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان (د.ت) .

٩ ـ في الميزان الجديد ، د . محمد مندور

دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٧٧م .

١٠ـ مختار الصحاح ، للرازي

دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

١١ـ مقالات في النقد الأدبي ، د . محمود السمرة

دار الثقافة ، بيروت (د.ت) .

١٢ـ المقدمة في التصوف وحقيقته ، للإمام أبي عبد الرحمن السلمي

تحقيق د . حسين أمين . دار التربية ، بغداد ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

المرأة في اليمن القديم

الدكتــور جواد مطر الموسوي

كلية الاداب ــ جامعة بغــداد

الملخص :

استطاعت المرأة في اليمن القديم ان تحتل مكانة مميزة فــي المجتمــع آنذاك ، فقد وصلت الى دفة الحكم (بلقيس) وساهمت في تتويج الملوك ، وتولت منصب (مقتوت) اي قائد عسكري لمجموعة من الجند ، وكانت تمارس اعمالها التجارية بحرية دون تدخل الرجل (رومي بنت ازمع النجرانيــة) الاشــتغال بالاعمال الحرة والتنقل بين المدن وخارج اليمن (منشم) .

وفي الجانب الديني تولت منصب (لوات) وهو منصب وراثي صاحبته تدير اراضي المعبد الخاصة وبعضهن اشتغلن بصفة (بغايا) يوهبن للالهــة ، ويذكر ان الاله (عشتر) كان له معبد خاص زواره من النساء ، وكــان النســوة تختص بعبادته.

وكانت المرأة اليمنية تمارس حياتها الطبيعية في البيــت مــن الطــبخ والتنظيف وغير ذلك وعلاقتها الجنسية مساوية لحقوق الرجل ، وكانت هنــاك فسحة من الحرية في اقامة الصلات الجنسية ، وان الاطفال الذين يأتون نتيجــة ذلك يحملون اسم الام ويعيشون في رعايتها كأي فرد من افراد قبيلتها ويتمتعون بحق الارث ، وكان للمرأة الحق في اقامة علاقات عاطفية قبــل الــــزواج

(الشن وعشيقته فيوسيكا) كما يحق لها الزواج من داخل القبيلة او خارجها من طبقة ادنى او اعلى ، ولا يمكن ان يكون الزواج رسميا الا بعد اكتساب الصفة القانونية من الدولة .

ومن انواع الزواج الشائع في المجتمع اليمني كما ذكر (سترابو) منها : زواج الميراث (اذ يرث الابن الاكبر زوجة ابيه من غير امه) وزواج المشاركة (Group Marriage) وكان تعدد الازواج (Frateranl Polyandrd) شائع عندهم اكثر من تعدد الزوجات ، وكان للمرأة الام مكانة متميزة والدليل انتساب الكثير من القبائل القحطانية الى امهاتهم ، على عكس المرأة المحاربة فان حريتها محدودة .

وكانت المرأة اليمنية تعتني بمظهرها الخارجي من حيث الملبس والزينة ولها حرية ممارسة هواياتها الخاصة مثل الغناء والرقص ، وكل ذلك يدل على الحقوق المتساوية بين المرأة والرجل حتى بعد الممات ، فهي تدفن مع الرجال في مقبرة او قبر واحد .

في الوقت الذي يشير فيه القرآن الكريم الى الوأد عند العرب ، يذكر في (سورة النمل) امرأة (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) [١] فهـي عنـد المفسرين والإخباريين العرب (بلقيس) ، ملكة سبأ كما اشار اليهـا التـوراة [٢] والانجيل[٣] .

لكن لم يأت ذكر لها في الكتابات اليمنية القديمة ، على الرغم مـن ان (اولبرايت) قد شكك بأحد الألفاظ ، ولم يتوصل الى نتيجة تـذكر [٤] ، وفـي النقش الموسـوم بـ (E ١٣) جاء ذكـر للملكة (ملك حلكت) بنت الملك (علهان نهفان) واختاً لـ (شعرم اوتر) [٥] هذا يعني أنّ المرأة في الـيمن قـد وصلت الى دفة الحكم، ليس هذا فحسب ، بل إنها ساهمت في تتويج الملوك[٦] . إذ جاء في أحد النصوص ذكر لعشر نساء اشتركن في تتويج ملك حضـرموت العزيلط (٢٥ –٦٥م) في حصن (أنود) [٧] ، كذلك كان لها حضور متميز في الجانب العسكري ، فمن المناصب المهمة في الدولة التي ذكرتها النقوش منصب (مقتوت) وهي لفظة مسندية مؤنث للفظة (مقتوى) وتعني القائد العسكري [٨]، وفي ذلك ما يؤكد أن للمرأة اليمنية مكانة متميزة في المجتمع اليمني القديم فقـد أثبتت جدارتها في الجانب السياسي كملكة تدير دفـة الحكـم ، وفـي الجانـب العسكري ،قائدة لمجموعة من الجند .

كما كان للمرأة اليمنية الحق في ممارسة الأعمـال التجاريـة ، وعقـد الاتفاقيات والمعاملات التجاريـة (القرض والاقـراض والاسـتئجار ...) وخير مثال على ذلك السيدة رومي بنت أزمع (من عشيرة جو النجرانية) حيث

كانت متزوجة ولها أطفال وأحفاد ، وقد قتل زوجها فترملت ، فكان وضعها الاقتصادي مستقلاً في عهد زوجها أو وقت ترملها ، وكانت لها ثروة كبيرة منقولة وغير منقولة[٩] وصلت الى (اثني عشر الف دينار) في عهد الملك معد يكرب(٤٩٠ –٥١٠م) ، كما ان ابنها (نيمان) أنتسب إليها ولم ينتسب الى أبيه[١٠]، وهذا يعني أن للمرأة اليمنية حق العمل والكسب كما للرجل وان تكون مالكة المال والعقار والعبيد[١١] ، كذلك كان لها الحق في الاشتغال بالاعمال الحرة والتنقل بين المدن بل وخارج اليمن وخير مثال على ذلك السيدة (منشم) التي أنتقلت الى مدينة مكة واخذت تبيع العطور اليمنية الجيدة هناك ، حتى ضرب المثل في عطورها (قد دقوا بينهم عطر منشم) [١٢].

وعن أرتباط المرأة بالحياة الدينية فقد ذكر أكثر من منصب ديني لها في الكتابات اليمنية القديمة منها لفظة (لوات) وهو منصب ديني وراثي ، كانت صاحبته تدير أملاك المعبد من الارضي [١٣]، ومنصب (امنهت) وهو منصب يختص بالاشراف على معامل المعبد [١٤]، ولفظة (أمنت) وهو منصب بمعنى (وكيل او امين) [١٥].

هذا يعني أن للمرأة اليمنية الحق في الإشراف على المعبد ، وبعضهن اشتغلن في المعبد بصيغة (بغايا مقدسات) يوهبن للاله ، يهبن أنفسهن ، أو يهبن أهلهن [١٦]، وبعضهن جوار يهبن ملكهن للمعبد كفارة ، وهذا يشبه ما يحدث في بابل في معبد عشتار[١٧] عن (الزواج المقدس) بين الكاهن الأكبر أو الملك، ومهديات المعبد [١٨].

ومن الهة اليمن المشهورة الاله (عشتر) الذي يعبد في دول اليمن القديم جميعها آنذاك ، وكان له معبد خاص زواره بصورة رئيسة من النساء فهو راعي النساء ، والنساء تختص بعبادته [١٩].

كما كانت المرأة اليمنية تمارس حياتها الطبيعية في البيت من الطبخ والطحن والتنظيف ، واذا كانت من الطبقات العليا فكان يتولى الطبخ لها في البيت (طباخ) خاص وخادمات يتولين الطحن والتنظيف [٢٠].

وعن علاقة المرأة بالجنس ، فان حقوقها مساوية لحقوق الرجل ففي لوحة نحتية ترجع الى القرن الثالث الميلادي صور عليها رجل وامرأة وقربهم تنين وفي موضع مكشوف [٢١]وبنسب طبيعية ، كما وجد تمثال من النحت البديع في منطقة (مكيراس) للأعضاء التناسلية عند كل من الرجل والمرأة [٢٢]، وهذا يعني أن ذلك ليس فيه عيب أو دونية ، والأكثر من ذلك فيما يتعلق بالأعضاء التناسلية للمرأة [٢٣].

ومن خلال الدراسة التي قام بها موللر (Mueller) لبعض الكتابات القديمة عن وجود صلات جنسية طبيعية بين الرجل والمرأة قبل الزواج ، ومن دون ان تسبب هذه الصلات دونية بنظر القبيلة او العشيرة ، سواء للرجل او المرأة ، أي ان هناك حرية في اقامة الصلات الجنسية ضمن الحدود المعينة للرجل والمرأة ، ففي احد الكتابات السبئية تذكر قصة امرأتين من الجواري لأحد الأسياد من (كبَس) كانتا عاقرتين فنصحهما الكاهن بتقديم ذبيحة نذراً ، وفي اثناء تقديم الذبيحة سوف تحمل واحدة منهما ، وجاء رجل ليس له اسم في اليوم السادس وعاش معهما في البيت ، وحدث ان واحدة منهما حملت ولم يحدث بعد ذلك ما يشير الى أن هذه المرأة ، أو غيرها سقطت خلقياً في نظر مجتمعها ، أو

أنها شذت ثم أصبحت من المنبوذين او المنبوذات في أسرتها ، أو قبيلتها وهـذه العادة لم تكن دليلاً على قوة سلطة الرجل ، أو تفوقه ، أو أن المـرأة بمجـرد دخولها الى غرفة الرجل ومضاجعته اليها تصبح اقل شأناً منه ، وأقصر عقلاً ، أو اعجز منه في إدارة شؤون حياتها الخاصة والعامة ، أو ممارسة شيء غيـر مألوف ، ويبدو أن الأطفال الذين يأتون نتيجة هذه العلاقات الخارجية ينتمـون الى العشيرة مثل أي فرد ويحملون أسم الام ويعيشون فـي رعايتهـا، وكـانوا يتمتعون بحقوقهم الشرعية في الإرث [٢٤].

وقد اوضحت لنا النقوش المساواة بين المرأة والرجل ، من خلال ورود ترتيب الاسماء فيها ، اذ لم يراع أي نظام من حيث الذكور والاناث ، ولم يكـن هناك أية تفرقة بين الجنسين ، حتى الاولاد من حقهم الانتماء الى الاب ، أو الام والحقيقة ان تلك هي نظرة الدولة لأفراد المجتمع ، لان هذه النقوش هـي اوامر ملكية لصالح قبيلة (عثكلان) فـي مآرب (نشـق ونشن) وقبيلة (الهباب) من (سروخولان) [٢٥] وهذا يلتقي مع نظرة المجتمع عامة للمرأة [٢٦].

ويطلق على المرأة المتزوجة في النقوش لفظة (حشكت) ويشتق منهـا لفظة(محشكت) وهي لفظة سياسية تعبر عن رابطة سياسية قوية ومتينـة [٢٧]، وعن السن القانوني للنضوج الفتاة وصلاحيتها للزواج في اليمن ، فقد جاء ذكره في القوانين الحميرية المتأخرة ، اذ حدد (ما بين سن عشر سنوات واثنتي عشر سنة ، وفي حالة منع قيامه تفرض الدولة غرامة مالية على من حال دون قيامه بما يتناسب مع وضع الاسرة المادي) [٢٨].

وكان للمرأة حرية اختيار الزوج وتفضيله على غيره ، واقامة علاقـات عاطفية قبل الزواج وخير مثال في ذلك (الشن) وعشيقته (فيوسيكا) إذ ذكر ان

(الشن) اخترق قوانين حاكم مدينة مطرة (مطرتم) وبني سخيم التي تقضي بتحريم الزواج من مدينة (مطرة) لاناس من خارجها [٢٩]، وهذا يدل على أن في اليمن نوعين من الزواج داخلي (أي داخل القبيلة او المدينة) وخارجي (أي خارج القبيلة او المدينة) ، فضلاً عن ذلك كان هناك زواج سياسي تقتضيه مصلحة الدولة، مثال ذلك زواج اخت الملك السبئي شعر اوتر في القرن الثاني الى ملك حضرموت [٣٠].

وخير مثال عن حرية اختيار الزوج تصريح (رومي بنت ازمع) بعد مقتل زوجها (كانت لي رغبة في ان امتلك زوجاً اخر مما عازني زوج) ، وهذا يعني انها اعلنت عن حقها في الزواج مرة ثانية [٣١] .

وفي رواية متأخرة ذكر (عمرو بن معد يكرب) أنه كان في غزوة وسمع فتاة تقول لفتى (قد زوجتك نفسي ، فاحضر غداً مجلس الحي ليعلموا ذلك) [٣٢]، وهذا يدل على حرية واسعة في أختيار الزوج ، قياساً في شبه الجزيرة عامة في الوقت نفسه لا نملك أي وثيقة تثبت ان الفتاة اليمنية كانت تكره على الزواج بمن لا تريد .

كما أن التفاوت الطبقي لم يكن يحول في الزواج بين طبقة الأحرار والعبيد ، وخير مثال على ذلك النقش (Ja ٦٦٢) الذي قرأه جام ، فقد ذكر أن المرأة تنتمي لطبقة العبيد كان لها عشيق من الاحرار ، وكانت متزوجة يبدو من طبقتها ، فقام عشيقها بقتل زوجها ، وربما تطور ذلك الى زواج بينهما .

وهناك ما يشير الى أن الزواج لا يعد زواجاً رسمياً الا اذا اكتسب الصفة القانونية، فنجد ملوك معين كان يصدرون اوامرهم بالموافقة على عقود

الزواج على نحو ما تفعله الحكومات في الوقت الحاضر من اصدار وثائق عقود الزواج [٣٣].

ولا بد ان يقدم للفتاة او لأهلها مهراً او صداق قبل الزواج ، وهو ركن اساسي في عقد الزواج ، وقد جاءت لفظة (مهرت) بمعنى (اموال وثـروة)[٣٤] وعن قيمة (المهر) فيتوقف على القدرة على الدفع، فقد كان اهل (كندة) وأصلهم من اليمن يغالون في مهور بناتهم حتى انهم كانوا لا يزوجون بأقل من مئة من الابل [٣٥].

وتكون مراسيم الزواج عادة في أشهر محددة من السنة ومعينة ، ونجـد صداها بعد ذلك في قصيدة الشاعر (البحر النعامي) فقد ذكر أشـهراً خاصـة بالزواج والابتعاد عن الزواج في أشهر أخرى [٣٦].

أما عن أنواع الزواج عند أهل اليمن ، فقد ذكر (سترابو) أن العربـي (كان يتزوج أمه) [٣٧] ربما قصد به (زواج الضيزن) او (الميـراث) اذ يـرث الابن الأكبرزوجة ابيه من غير امه [٣٨]، ولا يستبعد ان يكون زواج (الظعينة) شائعاً عندهم وهو ان يتزوج الرجل من السبية التي اسرها [٣٩]، وهنـاك زواج اخريطلق عليـه(نكـاح المشـاركة) (Group Marriage) وقـد اشـاراليه سترابو [٤٠].

ومفاد روايته ان (يتزوج الاخوة أمرأة واحدة ، ويكون حـق الـدخول عليها من بينهم ، الذي يأتيها اولاً ويضع عصاه التي يحمل كل واحد منهم مثلها امام الباب ، حيث يراها الاخر فلا يدخل عليها ، وتكون في الليل عند كبيرهم ، ويكون الاطفال الذين تنجبهم اخواناً) ثم يسرد قصة اخرى حدثت لابنـة احـد الملوك (كانت ذات جمال أخاذ وكان لها خمسة عشر اخا ، كل واحـد منـهم

يهواها ، ويعاشرونها واحداً بعد الاخر ، فلما اصابها الملل والإنهاك مــن هــذه المعاشرة ، احتالت على منعهم ، فصنعت عصياً مشابهة لعصيهم جميعاً وكــان لكل واحد منهم عصا عليها علامته ، فكانت إذا خرج أحدهم من عندها وحمــل عصاه ومضى ، فتضع هي مكانها العصا التي صنعتها ، وحدث ذات مــرة ان كان الجميع في الخارج وجاء أحدهم فشاهد العصا على الباب ، فظن انها تزني مع عشيق لها ، فاسرع الى والده فاخبره غير أنه اكتشف أن ذلك غير صحيح) ويذهب بعض الباحثين الى أن الرواية فرية لا صحة لها [٤١] ، لكن في النقوش اليمنية نجد صدى لهذه الرواية ، وذلــك بشــيوع تعــدد الازواج (Frateranl Polyandrd) فنجد ملكاً ينسب نفسه بصورة واضحة الى ملكين كانــا اخــوين حكما معاً لمدة محددة ، والملك هو نشأ كرب يأمن يهرجب (٩٥- ٥٧ق.م) ابن ال شرح يحضب ، وبازل بين ، ملكي سبأ وذو ريدان [٤٢] ، ويلاحظ في احــد النقوش ان اخوين دعوا الاله (المقه) ان يحفظ (ام همي، وانثهمي، وابنتهمي) أي امها وزوجتهما وابنتهما ، هذا يعني ان لهم أماً واحدة وزوجة واحدة وابنتين يشتركان فيهما ، والدليل هو اتصالهم بضمير التشبيه (المؤنثهمي) [٤٣].

وفي نقش اخر ، يذكر ان ثلاثة رجال وابناءهم تقــدموا بتمثــال للالـــه (المقة) لحفظهم وحفظ زوجاتهم(انثهمو) واولادهم (اولد همو) وطلب اثنــان منهم، أو الثلاثة وهم اخوة من بني رحبان ان يرزقهم بطفل ذكر من زوجــتهم (انثهمو) [٤٤] والنقش واضح عن تعدد الأزواج . ومن هذا يتضــح ان المــرأة اليمنية القديمة كانت تتزوج باكثر من رجل ، أي أن تعدد الأزواج كان نوعاً ما شائعاً بينهم ، وكان الاخوة يشتركون في زوجــة واحــدة ، ويرزقــون ابنــاء مشتركون [٤٥] .

ومن الأدلة التي يمكن أن نذكرها ما جاء في حديث زيد بن أرقم في قضاء الامام علي (عليه السلام) في نسب الولد رواه ابن ماجة في سننه [٤٦] ، قال : كنت جالساً عند النبي (صلى الله عليه واله وسلم) فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : أن ثلاثة انفار من اهل اليمن ، اتوا يختصمون اليه ، قد وقعوا على امرأة في طهر واحد ، فقال لاثنين طيبا بالولد لهذا ، فقالا : لا ، ثم لاثنين طيبا للولد هذا ، فقالا : لا ، فقال : انتم شركاء متشاكسون ، اني اقرع بينكم ، فمن قرع له فله الولد ، وعليه لصاحبه ثلث الدية ، فاقرع بينهم ، فجعل لمن قرع له ، فضحك الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) حتى بدت اضراسه ونواجذه ، ولم يرو جواب النبي(صلى الله عليه واله قسلم) كتابة .

هذا يعني أن اثار تعدد الأزواج استمر في اليمن حتى صدر الاسلام ، ويدل ذلك على شيوعه ، وانتهى بعد ظهور الاسلام ، الا انه ليس ثمة معلومات وافية عن متى ظهر ؟

اما تعدد الزيجات للرجل الواحد فمن الظريف انه لم يكن شائعاً بينهم ، وان المعطيات الاثارية والمواد الكلاسيكية والاسلامية لم تعطنا شيئاً واضحاً في هذا المجال سوى الشيء الضئيل جداً . ففي أحد النقوش (Ry ٥٢٠/٥-٦) ان صاحبه له اكثر من زوجة (احشكتهو) كما كان للملك ال شرح يحضب الاول (١٢٥- ١٠٥ق.م) اكثر من زوجة ويعتقد ان الزوجة الثانية له هي ابنة الملك نشا كرب يهأمن [٤٧].

أما عن الطلاق في النقوش اليمنية القديمة فليس ثمة نقوش تتناول هذا الموضوع ويبدو الاجتهاد في قراءة بعضها ضيع عليها فرصة في معرفة طبيعة الطلاق عند اهل اليمن ، لكن في محاولة لدراسة النقش الذي عثر عليها متأخراً

(Ymn ١٩) يمكن ان نعرف ان الطلاق كان موجوداً عندهم ، وقد درس النقش وفسره (الدكتور يوسف محمد عبد الله) [٤٨] ، وهو من المتخصصين في هـذا المجال وله خبرة طويلة ، ومن هذا النقش نستشف أن صاحبة النقش (خال الحمد الجالدية) بنت بيتاً لها بعد حصولهاعلى فدية من غرامة طلاقها [٤٩].

أما عن المرأة الام فقد احتلت مكانة متميزة عند العرب ، والدليل انتساب الكثيرمن القبائل ومنها القبائل القحطانية الىأمهاتهم ومثال ذلك قبيلة(بجيلة) [٥٠].

وفي النقوش اليمنية تحتل الام المرتبة الاولى بعدها الزوجة والبنات ، فضلاً عن ذلك كان مقدمو النقوش النذرية دائماً يطلبون الصحة والسلامة لأمهاتهم ، بل ان الفنان اليمني أهتم ايضاً بالمرأة الام ، فهناك نحت على أحد الأعمدة يمثل نصف أمرة مسنة [٥١] .

اما المرأة الجارية التي يطلق عليها في النقوش بلفظة (أمت) فان حريتهن محدودة ، ولكن يشتركن معاً في الاهتمام بالبيت ، ويلاحظ ان لهن الحق في الاتجار، وقد اظهرن كفاية عالية في هذا المجال ، ففي احد النقوش (ClH ٥٨١) يسامون على تسليم تمثال نذري من دون تدخل سيدهن او رجال اخرين ، ولأمر ما يرفضن دفع ثمنه حتى تحل المسألة الخلافية ، وكان لابد من تدخل المعبد عن طريق الاقداح ، وكان عليهن الالتزام بتعاليم الطهارة الصارمة مثل بقية السكان وعليهن عند المخالفة التي قد تسبب نجاسة الاخرين من المجتمع لا ذنب لهم ان يقمن بالتكفير علناً وامام الجميع مع ذكر موضوع (المخالفة) كتابة وبكل دقة ، ومن ثم ما يجب دفعه من غرامة عن تلك المخالفة[٥٢] .

اما عن ملابس المرأة وزينتها ، فقد عثر على الكثير من التماثيل والرسوم النحتية التي تصور المرأة في معظمها وهي ترتدي ثوباً طويلاً وتمسك بيدها اليمنى خماراً [٥٣] ، وعثرت البعثة الامريكية في مقبرة (تمنع) على رأس أمرأة مصنوع من الرخام الابيض وهو من اعمال النحت الرائعة ، فنجد الشعر مصفوف على شكل جدائل ، بانتظام مثير وجميل ، كما خرمت الأذنان لكي يوضع فيها الاقراط ، ويتخلل الجدائل فتحة ضيقة حول القفا من اجل وضع القلادة [٥٤] ، ويبدو ان المرأة اليمنية كانت تستخدم المجوهرات بصورة واسعة من اعلى الرأس الى اخر القدم ، وقد اكتشفت كميات لا باس بها من المجوهرات المتنوعة المعادن مصنوعة من الذهب والفضة وفيها الخرز والزجاج الملون وغيره [٥٥].

اما عن صورة المرأة عند الفنان اليمني القديم التي هي وثائق مهمة تعبر عن حياة الانسان فكانت تماثيل السيدات اليمنيات تماثل في صناعتها تماثيل الرجال الا انها تتميز بصورة صغيرة في كثير من الأحيان ، وكانت تتزين بأدوات الزينة واجسادهن في الغالب ممتلئة [٥٦]. ومن خلال الشواهد الاثارية نجد ان المرأة اليمنية أهتمت بالغناء والرقص ، ففي شاهد قبر من العصر السبئي ، وهو من المرمر نجد في اعلاه – وهو مكسور – جزءاً من كرسي تجلس عليه سيدة تلعب على القيثارة واسفل هذا المنظر نجد سيدتين تجلسان على سرير إحداهما تعزف على القيثارة واخرى تستمع لها [٥٧].

كما عثرت البعثة الامريكية على تمثال لامرأة مصنوع من البرونز وهي ترقص ، وقد لبست فستاناً طويلاً يمتد على سروال ويؤرخ بحدود القرن الثالث

الميلادي[٥٨]،والرقص هو نوع من انواع التعبير عن الفـــرح والشـــكر اتجـــاه الالهة[٥٩].

كما كانت للمرأة اليمنية مكانة في الحياة الاخـــرى ، فمكانتهـــا بقيـــت مساوية حتى عند الممات فهي تدفن مع الرجال في مقبرة واحدة فنجد احـــدهم وهو (ذرحان بن ابي ذخران) سوى وانشأ مقبرته المسماة (صبغات) ليقبر بها كل احرار بني غيلان وحراته [٦٠] ، فهو هنا لا يفرق بين رجل وامرأة ، كمـــا عثر على أحد القبور في منطقة ميناء (قنا) فيه هيكلان لامرأة شـــابة ورجـــل مسن ، وهذا يعني ان المرأة يمكن أن تدفن في القبر نفسه مع الرجل ، وربمـــا هذا الرجل هو الزوج ، أو الأب أو أحد الأقارب .

الهوامش

(١) اية ٢٣ .

(٢) الكتاب المقدس (التوراة والانجيل)،(بيروت : دار المشرق – المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٨٧م) ، سفر اخبار ايام الثاني ، الفصل ٩ ، اية ١-١٣

(٣) انجيل متي ، الفصل ١٢ ، اية ٤٢ .

(٤) مرسي ، محمد ابراهيم ، اضواء على ملكة سبأ ، حوليات كلية الاداب ، (الرسالة ٤٩) ،(الكويت : جامعة الكويت ، ١٩٨٨م) ، ص٤٢ .

(٥) بافقيه ، محمد عبد القادر ، تاريخ اليمن القديم (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٥م) ، ص١١٣ .

(٦) الموسوي ، جواد مطر ، الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم ، (الشارقة : دار الثقافة ، ٢٠٠٢م) ، ص٢٥٩ .

(٧) JA ٩١٩

(٨) Grohmann,Adolf, Kulturoeschichte Des Alten Orienes – Arabien Munchen (١٩٦٣) ,P.١٣١.

(٩) بيغوليفسكيا ، نينا فكتوفنا ، العرب على حدود بيزنطة وايران ،ترجمة : صلاح الدين عثمان (الكويت : ١٩٨٥م) ، ص ٣٠٥ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص٣٠٦ .

(١١) الموسوي ، الاحوال الاجتماعية ، ص٢٥٩ .

(١٢) عمر كحالة ، اعلام النساء ، (دمشق : المطبعة الهاشمية ،لا . ت) ، ج٥ ، ص١١٢ .

(١٣) النقش الموسوم RES ٣٣٥٦،٣٦٩٧

(١٤) Grohmann, Arabien ,P.١٣١.

(١٥) جواد علي ، اصول الحكم عند العرب ، مجلة (المجمع العلمي العراقي) ، مج٣١ ، ج٢ ، (بغداد : المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٠م) ، ص٧٥ .

(١٦) موسكاتي ، سبتيو ،الحضارات السامية القديمة ، ترجمة : السيد يعقوب بكر ،(القاهرة : دار الكتاب العربي ، لا . ت)، ص١٩٥ .

(١٧) ريكمانز ، جاك ، حضارة اليمن قبل الاسلام ، ترجمة : علي محمد زيد مجلة (دراسات يمنية) ، ع ٢٨ ، (صنعاء : مركز البحوث والدراسات اليمني ، ١٩٨٧م) ، ص١٣٥ .

(١٨) الهاشمي ، رضا جواد ، نظام العائلة في العهد البابلي القديم ،(بغداد : النجف الاشرف ، ١٩٧١م)، ص١١٧ .

(١٩) الموسوي ، الاحوال الاجتماعية ، ص٢٦٣.

(٢٠) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، (بيروت : دار العلم للملايين ، و بغداد : مكتبة النهضة ، ١٩٦٨ -١٩٧٣م) ج٧ ، ص٥٧٢ .

(٢١) جاكلين بيرين ، الفن في منطقة الجزيرة الجزيرة العربية في فترة ما قبل الاسلام ، مجلة (دراسات يمنية) ع ٢٣ -٢٤ ،(صنعاء : مركز البحوث والدراسات اليمني، ١٩٧٦م) ، ص٣٨ .

(٢٢) الشرفي ، محمد ، ملاحظات حول المرأة في المجتمع اليمني القديم ، مجلة (المؤرخ العربي) ، ع ٤٥ ، (بغداد : اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٩٣م) ، ص١٢٣.

(٢٣) الموسوي ، الاحوال الاجتماعية ، ص٢٦٤.

(٢٤) الشرفي ، ملاحظات ، ص١٢٣ ؛ JA ٥٨١

(٢٥) الشرفي ، ملاحظات ، ص١٢٢ .

(٢٦) الموسوي ، الاحوال الاجتماعية ، ص٢٠٨ .

(٢٧) جواد علي ، كتابة ابرهة ،مجلة (المجمع العليمي العراقي) ،مج٤، ج١ ، (بغداد ١٩٥٦:م) ص٢١٧ .

(٢٨) القوانين الحميرية ، المادة ١٣، المنشور في كتاب بيغوليفسكيا ، نينا فكتورفنا ، من تاريخ اليمن في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، ترجمة : قائد طربوش ، (صنعاء : مركز الدراسات والبحوث اليمني ، لا.ت) .

(٢٩) صبرة ، علي بن علي ، التواصل الثقافي والحضاري بين العرب واليونان ،(مجلة الاكليل) ، ع ٣-٤ ،(صنعاء : ١٩٨٨م) ، ص١٣٧

(٣٠) موللر ، والتر ، شبوه وحضرموت ، ترجمة : يوسف محمد عبد الله ، ضمن كتاب (اوراق ج٢) ،(صنعاء :١٩٨٥م) ، ص٦٦ .

(٣١) بيغوليفسكايا ، من تاريخ اليمن ، ص١٥٥.

(٣٢) الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) ، الاغاني ، (بيروت: دار الثقافة ،١٩٥٥-١٩٦٤م) ، ج١٥ ، ص١٣٢ .

(٣٣) Grohman ,Arabien,p.١٣٢

(٣٤) MM ١٠/٣

(٣٥) الحوفي،احمد محمد،المرأة في الشعر الجاهلي،(القاهرة :١٩٥٤م)، ص١٥٣.

(٣٦) البحر النعامي (توفى في القرن الخامس الهجري) ، قصيدة الاشهر الحميرية وما يوافقها من اغذية ،تحقيق : محمد بن علي الاكوع ، مجلة (الاكليل) ،ع٣-٤، (صنعاء : وزارة الاعلام اليمنية ،١٩٨١م)، ص١١- ١٢ .

(٣٧) Strabo,The Geography of Strabo ,founded by : James loes London (١٩٦٦),XV١،٤,Ch.٢٥

(٣٨) ابن حبيب ، ابو جعفر محمد (٢٤٥هـ)، المحبر ، تحقيق : ايلزة ليختن شتيتر ، (حيدر اباد – الدكن :١٩٤٢م) ص٣٢٥ .

(٣٩) مهران ، محمد بيومي ، الحضارة العربية القديمة ،(القاهرة : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨م) ، ص٤٣ .

(٤٠) Strabo,The Geography,XV١،٤,Ch.٢٥

(٤١) جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ، مرجعة وتعليق : حسين مؤنس ، (القاهرة : دار الهلال ،لا .ت) ص١٥٩ ؛مهران،الحضارة العربية ص٤٦.

(٤٢) النقش الموسوم ١٢-١٠/٦١٠ FA ٣/١, JA

(٤٣) بيستون،ف.ل ، قواعد العربية الجنوبية،ترجمة :خالد اسماعيل علي، (بغداد:المجمع العلمي العراقي، ١٩٩٢م)،ص٨٣؛النقش الموسوم٩-٨/٥٩٤ Ja

(٤٤) RES ٤١٨٨

(٤٥) الموسوي ، الاحوال الاجتماعية ، ص٢٣٤ .

(٤٦) ج٢، ص٧٨٦

(٤٧) Wissmann,Zur GeschichteUnd Landeskunde Von Alt-Sudarabien-Wien (١٩٦٤) ,P.٣٦٧.

(٤٨) عبد الله ، يوسف محمد ، مدونة النقوش اليمنية القديمة ، مجلة(الاكليل) ع٢٠-٢١ ، س٨ ،(صنعاء : وزارة الاعــلام اليمنية ١٩٩٠م)،ص٧٦-٧٨.

(٤٩) الموسوي ، الاحوال الاجتماعية ، ص٢٤٥ .

(٥٠) ابن حزم الاندلسي،ابو محمد علــي بــن احمــد(ت٤٥٦هــــ)،جمهــرة انســاب العرب،تحقيق:عبد السلام هارون،ط٥،(القاهرة :دار المعارف،لا.ت)، ص٣٣٢ .

(٥١) جاكلين بيرين ، الفن في منطقة الجزيرة ، ص٣٢ .

(٥٢) الشيبة ، عبد الله حسن ، اوضاع التابعين في جنوب بلاد العرب في العصر السبئي الوسيط ، مجلة (دراسات يمنية) ،ع٥ ،(صنعاء : مركــز الدراســات والبحــوث اليمني، ١٩٩٢م)،ص٨٧.

(٥٣) ابو العيون بركات ، الفــن اليمنــي القــديم ، مجلــة (الاكليــل) ، ع١ ، س١ (صنعاء : وزارة الاعلام اليمنية، ١٩٨٨م) ص٨١

(٥٤) Grohman ,Arabien,p.٢١٩

(٥٥) سلطان ناجي ، مظاهر الحضارة ، ص٢١ .

(٥٦) ابو العيون بركات ، الفن اليمني القديم ، ص٧٩ – ٨٠ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص٨٠ .

(٥٨) جاكلين بيرين ، الفن في منطقة الجزيرة ، ص٣٩.

(٥٩) جواد علي ، المفصل ، ج٥ ، ص١٢٢ .

(٦٠) عبد الله ، يوسف محمد ، اوراق في تاريخ اليمن واثاره ،(بغــداد : دار الشــؤون الثقافية ،١٩٨٩م) ، صنعاء ، ج١ ، ص٦٤ .

تقييم واقع السياحة الدينية في العراق وسبل الارتقاء بها

أ.م.د. سالم محمد عبود البياتي

م.م. حسناء ناصر إبراهيم التميمي

الملخص:

أصبحت السياحة صناعة حقيقية وسمة للألفية الثالثة التي تعكس مدى التطور والتقدم الحضاري لشعوب الأرض، حيث تعتمد على التقدم العلمي والتكنولوجي وعلى النشاط الإنساني ذو الأبعاد الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

وتعد صناعة السياحة من أهم الصناعات القائمة بذاتها فهي صناعة مركبة تضم مرافق عديدة ومتباينة وانشطة مختلفة، والعراق بلد السياحة الأول الذي تحفل خارطته السياحية بالكثير من كنوز الحضارة والتراث والتاريخ والعتبات المقدسة والمنائر والأجراس. والذي يحظى بالمراقد الدينية المختلفة (للمسلمين والمسيحيين واليهود) والذي يزخر بصناعة السياحة الدينية هذه الصناعة هي نفط لا ينضب.

يهدف البحث إلى تحليل واقع السياحة الدينية في العراق وتحديد سبل الارتقاء وبني البحث على فرضية، وتناول البحث عدد من المحاور تم التوصل من خلالها الى مجموعة من الاستنتاجات والتوصيات التي تساعد في الارتقاء بالسياحة وجعلها مورد تنمية اقتصادية.

المقدمة

أصبحت السياحة صناعة حقيقية وسمة للألفية الثالثة التي تعكس مدى التطور والتقدم الحضاري لشعوب الأرض، حيث تعتمد على التقدم العلمي والتكنولوجي وعلى النشاط الإنساني ذات الأبعاد الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

وتعد صناعة السياحة من أهم الصناعات القائمة بذاتها فهي صناعة تصدير وفلسفة ومهنة وفن فضلا عن كونها صناعة مركبة تضم مرافق عديدة ومتباينة وانشطة مختلفة، إذا ما استثمرت بصورة عقلانية وحكيمة بعيدا عن الفوضى والإرهاب والأمزجة أخذت تستوعب آلاف العاطلين عن العمل وتسهم في تكوين الدخل القومي ودعم الاقتصاد الوطني، فضلا عن دورها في تنمية العلاقات بين الشعوب المختلفة وتوطيد أواصر الصداقة عن طريق المحبة والسلام بين مختلف الأجناس.

والعراق بلد السياحة الأول، الذي تحفل خارطته السياحية بالكثير من كنوز الحضارة والتراث والتاريخ والعتبات المقدسة والمنائر والأجراس. والذي يحظى بالمراقد الدينية المختلفة (للمسلمين والمسيحيين واليهود) والذي يزخر بصناعة السياحة الدينية هذه الصناعة هي بدون دخان ونهر لا ينشف ونفط لا ينضب. وجوهر المشكلة أن العناصر التي تحقق السياحة المزدهرة متوفرة ولكن أسلوب التركيب والاستخدام لم يكن في مستوى الطموح ورغم ما للسياحة من آثار إيجابية لكن تبرز فيها إشكاليات كثيرة وذات أبعاد متنوعة. وللوضع الامني اثر كبير الان في تخلف القطاع السياحي وعدم ايلائه الأهمية مما انعكس على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق مايلي:

١. تحليل واقع السياحة الدينية في العراق في ضوء المؤشرات الموضعية.

٢. تحديد سبل الارتقاء بهذه السياحة من خلال تطوير وتفعيل عناصر ومؤشرات النهوض بها.

فرضية:

بني البحث على فرضية مفادها (أن هنالك علاقة بين الاستقرار والتطور السياحي)

أسلوب البحث:

لغرض تحقيق الأهداف المتوخاة وجد الباحثان أن يتناولا المحاور التالية:

- ❑ مدخل لدراسة السياحة الدينية.
- ❑ وصف المناطق السياحية الدينية في العراق.
- ❑ إمكانيات السياحة الدينية في الاقتصاد العراقي.
- ❑ سبل التطوير والارتقاء بالسياحة الدينية من خلال مجموعة الاستنتاجات والتوصيات.

أولاً: مدخل لدراسة السياحة الدينية

من الضرورة البحثية ان نتعرف على ماهية السياحة كمدخل عام حيث تعددت المفاهيم التي تبين تلك الظاهرة كونها نشاط اقتصادي واجتماعي يتعلق بحركة الانتقال ومن هذه التعاريف:

(ذلك النشاط الاقتصادي الذي يعمل على انتقال الأفراد من مكان الى أخر لفترة من زمان لا تقل عن (٢٤) ساعة ولا تصل هذه الفترة الى الإقامة الدائمة)[١].

يوضح التعريف المذكور أعلاه أهمية الدافع الاقتصادي هو المحفز الأساس لانتقال الأفراد بصورة مؤقتة.

رغم تعدد مفاهيم السياحة لكنه لم يتم التوصل الى تعريف واضح ومناسب فكل تعريف يختلف من دولة لأخرى بينما يشير التعريف الصادر عن منظمة السياحة العالمية (WTO)[٢] World Tourism Organization الى مفهوم السياحة التي ينبغي ان تتضمن أربع نقاط أساسية هي:

١. تنطوي السياحة على تحريك الناس من موقع الى موقع أخر خارج مجتمعهم المحلي.

٢. ان جهات القصد السياحية (Tourism Destinations) توفر نطاقاً من النشاطات (Activites) والخبرات (Experieniences) والتسهيلات (Facilites).

٣. ان الحاجات والدوافع المختلفة للسائح تتطلب إشباعا وان هذه الحاجات والدوافع بدورها تخلق تأثيرا اجتماعياً (Socialimpact).

٤. تتضمن صناعة السياحة عدداً من النشاطات الفرعية وهذه النشاطات تولد مجتمعة دخلاً ضمن الاقتصاد الوطني.

يتسم التعريف الصادر من منظمة السياحة العالمية (WTO) بالشمولية والوضوح الذي ينصب فيه مفهوم وأسس وأهمية ودوافع السياحة لذا سوف يعتمد هذا التعريف في البحث.

والسياحة كصناعة تطورت مع تطور المجتمعات ومرت بثلاث مراحل:

١. مرحلة عصور ما قبل الميلاد.
٢. مرحلة العصور الوسطى.
٣. مرحلة العصور الحديثة.

وللسياحة اهمية متنوعة منها عامة واخرى اقتصادية واجتماعية كما ان لها تاثيرات متنوعة على الافراد وعلى المجتمعات وعلى المؤسسات ولها مساهمات كبيرة في ميزان المدفوعات وفي التنمية ولا تخلو السياحة من سلبيات في بعض جوانبها.

كما ان السياحة تصنف الى انواع حسب اغراضها او الهدف منها او طبيعتها مثل السياحة العلاجية والسياحة الاجتماعية والثقافية والسياحة للتعليم والدينية والسياحة لزيارة الاثار ولكل نوع آلية وهدف وفي حدود موضوع البحث سيتم التركيز على السياحة الدينية.

١. مفهوم السياحة الدينية

تناولت صناعة السياحة الدينية موضع اهتمام من قبل الشعوب والأمم منذ زمن طويل عبر القرون، وهي الأكثر رواجاً مقارنة مع السياحة التراثية والعلاجية وفي اغلب الأحيان سببت هذه السياحة الكثير من الحروب والصراعات لعدم تدفق الراغبين إليها تحت حجج واهية أخذت طابعاً سياسياً وعسكرياً ولكن في الأصل تحت شعارات دينية.

لذلك عرفت السياحة الدينية بأنها:

(التدفق المنتظم من السواح القادمين من الداخل او الخارج بهدف التعرف على الأماكن الدينية وتاريخها وبما تمثله من قيم روحية لهذا الدين او المعتقد او ذاك)[٢].

تعكس السياحة الدينية جزء مهم من احترام السواح المترددين على الأماكن السياحية للحصول على المزيد من المعرفة حول هذا الموقع والدلالات الروحية والنفسية فهي تمثل عاملاً نفسيا وحافزاً للعلاج في أحيان اخرى، بالمقابل على السلطات المركزية المتواجدة في بلدانها تلك المواقع توفير كافة أسباب الراحة والأمان والطمأنينة عند قدوم الزوار إليها.

٢. مرتكزات السياحة الدينية

هنالك بعض المرتكزات المرتبطة بالخصوصية لهذه السياحة التي لابد من توفيرها لنجاح صناعة السياحة الدينية[٣] وهي:

١. القيمة الدينية الفعلية للموقع من حيث اعتراف السواح المحتملين بأهميته الدينية وضرورة زيارته ولو مرة واحدة في العمر والقيمة الدينية للموقع من حيث العدد المحتمل لزيارته في السنة.

٢. إعداد وتهيئة المواقع الدينية بصورة مستمرة لاستقبال السواح الدينين فلا بد من العناية المتواصلة والمبرمجة لتلك المواقع فضلاً عن تولي أدارتها من أفراد مؤهلين التأهيل المناسب للحديث عنها بما يليق بها من كلام وتوضيح عن تاريخها وقيمتها.

٣. وجود منتجات سياحية تعبر عن القيمة الروحية للموقع السياحي الديني من خلال وجود صور وتحف تعكس حقيقة المواقع وان المزيد من البيع منها قد يمثل دعاية مجانية للموقع بمرور الوقت.

٤. وجود إستراتيجية تسويقية واضحة المعالم للسياحة الدينية على مستوى الدولة تتضمن وضع البرامج المفصلة التي تراعي الخصوصية الدينية لكل موقع مع مراعاة الخصائص النفسية للسواح المترددين اذ الغاية منها دعم تدفق السواح لزيارة المواقع الدينية.

٥. الاهتمام المستمر بجانب الخدمات فلا بد من ربط المواقع الدينية بشبكة ذات مستوى عال من المواصلات والاتصالات والخدمات الفوقية كالفنادق والمطاعم التي تعرض خدماتها بأسعار مناسبة مقارنة مع البلدان المنافسة.

٣. أنواع السياحة الدينية

يحفل التاريخ بأنواع الديانات المعروفة منها والمدونة في الكتب السماوية التي هي:

الإسلامية، المسيحية، اليهودية، الصابئة.

والعراق ينفرد بمورث كريم من الأضرحة والمقدسات والكنائس والأديرة والمعابد والمزارات التاريخية ما يجعله يتبوأ مكانة دينية مرموقة بين الأقطار الإسلامية والعالمية، الذي يحتضن فيه انواع السياحة الدينية المتجلية كالاتي:

١. السياحة الإسلامية: تشمل مراقد الأئمة والأضرحة الى جانب الجوامع والمساجد وعدد من المقامات والمزارات التي يقصدها المسلمون في مناسباتهم الدينية.

٢. السياحة المسيحية: تنتشر في أرجاء العراق عشرات الكنائس والأديرة والمعابد والمزارات التاريخية والحديثة التي تمارس فيها جميع الطوائف المسيحية طقوسها الدينية.

٣. السياحة اليهودية وأخرى: يحفل العراق بمواقع كانت مهبط الإلهام والكرامات والمناقب لأنبياء وزهاد صالحين من اليهود والديانات ألاخرى (الصابئة).

ثانياً: وصف الأماكن الدينية المقدسة في العراق حسب المحافظات جدولياً

انطلاقاً من الموروث الديني الجليل الذي يحظى به العراق اذ يكاد يكون لمعظم الأديان السماوية التي كانت وما تزال مراكز للقيادة الروحية والأخلاقية... والذي تستهوي أفئدة كافة السواح المترددين على تلك الأماكن المقدسة فقد قسمت تلك المواقع حسب الأديان والمحافظات كما في الجداول الثلاث التالية.

١. جدول الأماكن الإسلامية المقدسة في العراق حسب المحافظات.
٢. جدول الأماكن المسيحية المقدسة في العراق حسب المحافظات.
٣. جدول الأماكن اليهودية المقدسة في العراق حسب المحافظات.

ثالثاً: إمكانيات السياحة الدينية في الاقتصاد العراقي

أصبحت الأماكن الدينية اليوم أية من آيات الفن المعماري الأصيل الذي يبهر الناظر إليها ويحس بالجلال من الطارمات والاواوين والاروقة المزينة بزخارف محفورة ونقوش نباتية وهندسية تتخللها آيات قرآنية وزخارف بديعة معمولة من المرايا والمعادن الثمينة كالذهب والفضة التي يؤمها مئات او ألاف الزوار من أنحاء العراق وبلدان العالم الإسلامي والعالمي وعلية يستعرض الباحث أهم مؤشرات الإمكانيات المتاحة للسياحة الدينية في الاقتصاد العراقي منها الاتي:

١. عدد الفنادق ومجمعات الإيواء السياحي.
٢. عدد النزلاء والأسر.
٣. عدد المشتغلين.
٤. معدل البطالة.
٥. قيمة الإيرادات.
٦. التبرعات والمساعدات.
٧. قيمة المصروفات.
٨. حركة السوق السياحية.

ملاحظة: اعتمد الباحث في دراسته على المحافظات (بغداد، النجف، كربلاء، موصل) التي تستأثر بالنصيب الأوفر من نشاط السياحة الدينية من اجل المقارنة والتفضيل ولم يهمل باقي المحافظات سهواً.

١. عدد الفنادق ومجمعات الإيواء السياحي في العراق

بلغ عدد الفنادق ومجمعات الإيواء السياحي في عموم القطر ولكافة المحافظات (٩٤٢) مرفقاً سياحياً خلال سنة ٢٠٠٢ مسجلة زيادة سنوية مقدارها (٩,٥%) مقارنة بسنة ٢٠٠١[٨].

من الجدول رقم (٤) المرفق طياً يتجلى الأتي:

١. بلغ عدد الفنادق في المحافظات الأربعة بغداد، كربلاء، النجف، نينوى (٧٠٤) فندق أي ما يعادل ثلاثة أرباع عدد الفنادق في عموم القطر.
٢. استأثرت محافظة بغداد بـ (٣٥٩) فندقاً تليها محافظة كربلاء بـ (١٥٦) فندقاً ثم النجف ونينوى.
٣. يعكس الجدول استحواذ القطاع الخاص على معظم عدد الفنادق الموجودة في تلك المحافظات ففي كل من بغداد، كربلاء، النجف،

نينوى، كان عدد الفنادق فيها وعلى التـوالي ٣٥١، ١٥٦، ١٠١، ٨٨ فندقاً لغاية عام ٢٠٠٢.

٢. عدد النزلاء والأسر حسب المحافظات والجنسية في العراق

بلغ عدد نزلاء الفنادق (٣٢٩٥) ألف نزيل لـسنة ٢٠٠٢ وعنـد مقارنته بعدد نـزلاء عـام ٢٠٠١ يظهـر انخفـاض سـنوي نـسبته (٣٥,٤%)[٨]. اما مجموع الأسرة المشغولة فقـد بلغـت (٦٨٩٣) ألـف (سرير/ يوم) مقارنة بسنة ٢٠٠١ أيضا تظهر انخفاض سـنوي نـسبته (٤٩,٣%).

يعزى سبب الانخفاض الى عزوف السواح العرب والأجانب عن المجيء الى القطر بسبب هواجس الحرب رغم زيادة عدد الفنادق، وعند تشخيص هذا المؤشر حسب المحافظات يتجلى من الجدول رقم (٥) المرفق طيـاً ومنه الملاحظات التالية:

١. تستحوذ محافظة بغداد المرتبة الأولى بعدد نزلاء الفنادق من العراقيين والعرب والأجانب تليها محافظة النجف بعدد النزلاء أيضا العراقيين والعرب والأجانب ثم محافظة كربلاء ونينوى.

٢. تستأثر محافظة بغداد بعدد ليالي المبيت والبالغة (٢٦٤٣٠٣٧) سرير/ يوم لسنة ٢٠٠٢ يشمل مبيت العرب والأجانب فيها (٨٩٨٨٠٢) سـرير/ يوم.

٣. تليها محافظة كربلاء بعدد ليالي المبيت (١١١٠٣٤٥) سرير/ يـوم، ولكن ليالي مبيت العرب والأجانب في هذه المحافظة أكثر من بغداد فهي (٩٩٤٠٦٧) سرير/ يوم ثم محافظة النجف ونينوى.

٣. عدد المشتغلين

بلغ عدد المشتغلين في قطاع السياحة لكافــة المحافظــات عــام ٢٠٠٢ نحو (٧٣٧٨) مشتغلا مسجلة انخفاض سنوي نــسبته (٤٧,٣%) مقارنة بعدد المشتغلين لعام ٢٠٠١[٨].

اما عدد المشتغلين في المرافق السياحة للقطاع الخاص لعام ٢٠٠٣ بلــغ نحو (٢٨٣٨) مشتغلا استحوذت المحافظــات الأربعــة قرابــة (٢٤١٣) مشتغل وهي على التوالي: بغداد، النجف، كربلاء، نينوى تبلــغ ١٠٣٦، ٥٠٦، ٤٨٦، ٣٨٥ مشتغل كما يعكسها الجدول الموضح في أدناه.

عدد المشتغلين في المرافق السياحية للقطاع الخاص في العراق لسنة ٢٠٠٣*

اسم المحافظة	عدد المشتغلين		
	عراقيون	غير عراقيين	المجموع
نينوى	٣٨٥	٠	٣٨٥
بغداد	١٠٣٥	١	١٠٣٥
كربلاء	٤٨٦	٠	٤٨٦
النجف	٥٠٦	٠	٥٠٦
المجموع	٢٤١٣	١	٢٤١٣

* الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على بيانات:

وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي/ الجهاز المركزي للإحصاء وتكنولوجيا المعلومات/ مسح المرافق السياحية في القطاع الخاص لسنة ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤، ص ١٠.

٤. معدل البطالة

أظهرت النتائج الأولية لمسح التشغيل والبطالة للمرحلة الثانية للنصف الأول من عام ٢٠٠٤[١٠] ما يلي:

١. معدل البطالة بين السكان بعمر (١٠) سنة فأكثر

١. بلغ معدل البطالة للفئة العمرية (١٠) سنة فأكثر في محافظة كربلاء (١٣,٠%) وهي اقل معدل للبطالة تأتي بعد محافظة البصرة البالغة (١١,٤%) تليها محافظة بغداد بمعدل بطالة (٢٨,٥%) لكلا الجنسين، (٢٨,٩%) للذكور، (٢٦,٢%) للإناث.

٢. اما محافظة نينوى فقد سجلت معدل بطالة فيها (٣٦,٢%) لكلا الجنسين، (٣٨,٥%) للذكور، (٧,٥%) للإناث.

يرجع ارتفاع معدل البطالة في محافظة نينوى الى سوء الأوضاع الأمنية فيها.

ومن جانب أخر عند مقارنتها مع باقي المحافظات ففي محافظة ذي قار يبلغ معدل البطالة فيها (٤٦,٩%) لكلا الجنسين لذا تعد معدل البطالة في محافظة نينوى اقل نوعاً ما عن باقي المحافظات في القطر.

٢. معدل البطالة للفئة العمرية (١٥ – ٢٤) سنة

١. تأتي محافظة كربلاء بعد محافظة واسط بأقل معدل للبطالة للفئة العمرية (١٥ – ٢٤) سنة والبالغة فيها (٢٢,٤%) لكلا الجنسين، (٢٤%) للذكور، (١٤,٨%) للإناث[١٠].

٢. بلغ معدل البطالة في محافظة النجف لهذه الفئة العمرية (٣٢,٨%)، للذكور (٣٥,٣%)، والإناث (٢٢,٩%).

٣. بلغ معدل البطالة في كل من محافظة نينوى وبغداد على التوالي النسب (٤٨,٢%)، (٥١%).

يعزى ارتفاع نسبة البطالة في كل من المحافظتين التي قاربت (٥٠%) الى الأوضاع الأمنية المتردية التي تشل معظم القطاعات الاقتصادية وبخاصة قطاع السياحة الذي يتطلب توفير الأمن والاستقرار له.

٥. قيمة الإيرادات

يوضح المسح الشامل للفنادق ومجمعات الإيواء السياحي في العراق لسنة ٢٠٠٣ أن أجمالي الإيرادات المتحققة قد بلغت (٥٥٧٥٨) مليون دينار لسنة ٢٠٠٢ محققة زيادة سنوية مقدارها (٢,٠%) مقارنة بسنة ٢٠٠١[٨].

- حظيت المحافظات الأربعة بقيمة إيرادات بلغت (٥٣٩٠٢) مليون دينار للسنة نفسها، مرتبه حسب نسبها وعلى التوالي محافظة بغداد، كربلاء، النجف، نينوى كما يوضحها الجدول رقم (٧).

الذي يتجلى منه ايضا حقيقة مفادها ان المحافظات الأربعة المذكورة أنفا تساهم بنسبة كبيرة من أجمالي الإيرادات المتأتية لقطاع السياحة في العراق.

٦. تبرعات ومساعدات

بحكم ما تحفل به هذه الأماكن المقدسة من تكريم وقدسية، يمنح لها من قبل السواح الزوار تبرعات ومساعدات مختلفة من قبل السكان المحليين او العرب او الاجانب لذلك بلغ اجمالي التبرعات والمساعدات التي دخلت في حساب قطاع السياحة في العراق لسنة ٢٠٠٢ نحو (١٣٦٠٠٧) مليون دينار[٨].

كان نصيب المحافظات بغداد، النجف، كربلاء نحـو (٧٧٧٧٥) مليـون دينار، أي تستحوذ المحافظات الثلاثة على حصة من التبرعات بأكثر من النصف. وتستأثر محافظة بغداد بمبلغ (١٠٥١٧٥) مليون دينـار تليهـا محافظة النجف ثم كربلاء بالمبالغ التالية:

(١٣٣٦)، (٦٣٣٠) مليون دينار لسنة ٢٠٠٢[٨].

٧. قيمة المصروفات

بلغ أجمالي المصروفات لقطاع السياحة في العراق لـسنة ٢٠٠٢ نحو (١٤٩٤١) مليون دينار مسجلة زيادة سنوية نسبتها (٣٣,٦%) مقارنة بسنة ٢٠٠١[٨].

تعكس قيمة المصروفات المشار اليها في أعلاه الى قلة قيمتها التي تنفـق من قبل قطاع السياحة ويستدل على حجم هذه المبالغ القليلة المنفقة عنـد توزيعها حسب الخدمة المقدمة وعليه بلغت مصاريف الدعاية والإعـلان لكل من محافظة النجف وكربلاء على التوالي هي:

(٩٧٥)، (١٥٠) ألف دينار لسنة ٢٠٠٢[٨].أما مـصاريف الاتـصالات العامة هي الأخرى قليلة إذ بلغت في المحافظتين وعلى التوالي(٢٤٦٤٠)، (٣٩٩٣٤) ألف دينار.

بالمقابل تعكس قلة المصاريف المنفقة الى قلة الإيرادات التي تدخل فـي حساب قطاع السياحة لقاء الخدمات المقدمة للسواح.

٨. حركة السوق السياحية

تتضح حركة السوق السياحية المتمثلة بقيمة المشتريات والمبيعات لعام ٢٠٠٢ وكما يعكسها الجدول رقم (٨) الملاحظات التالية:

١. بلغت قيمة المبيعات الإجمالية لكافة المحافظات السياحية في العـراق مبلغ (١٩٢١٦) مليون دينار لعام ٢٠٠٢.

٢. تساهم المحافظات السياحية الأربعة بغداد، كربلاء، النجف، نينوى بمبلغ (١٩١٥٩) مليون دينار، اما المتبقي والبالغ نحو (١٧٣٠٠) ألف دينار فهو يمثل قيمة مبيعات باقي محافظات السياحية في القطر.

يتجلى مما ورد أن المحافظات الدينية الأربعة تنفرد بمعظم قيمة المبيعات الإجمالية في البلد لسنة ٢٠٠٢، كما يعكس الجدول محدودية نوعية المبيعات المعروضة فهي مقتصرة على المواد الغذائية والمشروبات الغازية وتستأثر فقط محافظة بغداد بحصة بيع السكائر.

رابعاً: تقييم واقع السياحة الدينية في العراق

ويرى الباحثان دقة المحور ان يكون التقويم وفق البيانات المتوفرة على الشكل التالي:

١. تقويم واقع السياحة الدينية لغاية عام ٢٠٠٢.

٢. تقويم واقع السياحة الدينية للفترة من ٢٠٠٣ – ٢٠٠٥.

١. تقويم واقع السياحة الدينية لغاية عام ٢٠٠٢

كانت الية السياحة الدينية (الخارجية) منها تدار مركزيا من قبل شركة الهدى – التابعة للقطاع الخاص التي تتولى توزيع الزائرين على الشركات وفق سعر محدد يبلغ (٣٥) دولار للزائر الواحد لاقامة لا تتجاوز (٧) ايام بضمنها الرسوم المدفوعة الى الجهات الرسمية كدوائر الاقامة والسياحة والحدود والضريبة[١١].

تترتب على هذه الالية النتائج التالية:

١. كانت هذه الشركة هي المسيطرة الوحيدة على جميع الانشطة السياحية على الرغم من وجود العديد من الشركات التي بالامكان التعامل معها

منها: شركة البدر للسفر والسياحة، شركة نينوى، شركة الفرات، شركة اليرموك للسفر والسياحة.

٢. اعتمدت هذه الشركة (شركة الهدى) على السياحة الدينية فقط دون الانتباه الى الانشطة السياحية الاخرى كالمواقع الاثرية الموجودة في تلك المدن على سبيل المثال حصن الاخيضر والآثار الموجودة في منطقة الطار في مدينة كربلاء ومناطق ترفيهية مثل الرزازة والعيون الطبيعية في قضاء عين تمر والواحات الخضر التي تقع في بساتين الحسينية[١١].

٣. عدم وجود حرية للزائر او السائح في الحركة بل كانت وفق برنامج محدد لا يتعدى حدود الأماكن الدينية.

٤. انكماش دور القطاع الخاص في عملية التنمية السياحية ومحدودية نشاطه الخاص واقتصاره على شركة واحد متخصصة للسفر والسياحة.

٥. سبب التعامل مع هذه الشركة دون سواها خسارة لاصحاب الفنادق حيث توزيع الزائرين لم يشمل جميع الفنادق بل كان الاعتماد على عدد منه.

من جانب اخر هنالك بعض الملاحظات على نشاط القطاع السياحي ومنها الاتي:

١. حالة الاهمال التي الحقت الضرر بالعديد من المواقع السياحية الدينية او الاثرية التي تمثل موروثاً ثقافياً بما تحمله من رموز حضارية والتي تتعرض لحالة التآكل او العبث والضياع من جراء كثرة الزوار او اساءة الطبيعة والعوامل المناخية التي لم يتم التعامل معها بحدود موضوعية مما سببت الكثير من الخسائر والتي قد شملتها مشاريع

التطور الصناعي ومشاريع الخدمات ولكن لم تكن بمستوى التحـديث المطلوب مما يترتب عليه فقدان بعض مراكز الجذب السياحي او جزء منها[١٢].

٢. عدم تبلور الوعي والادراك الكافي بأهمية السياحة والسياحة الدينيـة منها على المستوى الاقتصادي او الثقافي او الحضاري. اما فيما يتعلق بالسمعة الدولية للبلاد ككل لا يزال هذا القطاع دوره هامشيا[١٢].

٣. افتقار قطاع السياحة بصورة عامة والسياحة الدينيـة بخاصـة الـى ملاكات او كفاءات فنية مهنية متخصـصة فـي الجانـب الـسياحي، فالسياحي يجب ان يكون ذا مستوى تعليمي وثقافي يؤهله للتفاهم مـع السائح القادم من بلد ذي ثقافة وحضارة مغايرة وبأمكانه اعطاء صورة جيدة عن البلد الذي يزوره.

٤. ضعف الاعلام السياحي ووسائله لا تقتصر على عدم تـوفر وسـائل الاعلام السياحة والمطبوعات والمنشورات الصحفية فقط بل ضـعف الاهتمام بالموضوعات السياحية في وسائل الاعلام العراقية.

٥. تدني مستوى الخدمات الصحية وعدم توفر الادوية والعقاقير الطبيـة اللازمة علما ان مستوى الخدمات الصحية في الدول المصدر للسياحة هي اعلى من المستويات التي عليها في بلدان اخرى كي لا يصبح هذا التعامل يستخدم لاغراض سياسية لاخافة الـسياح مـن الـسفر الـى القطر[١٢].

٦. تدني مستوى الخدمات المقدمة ومنها وسائل النقل القديمة واقتصارها على النقل البري دون السماح لوسائل النقل الجوي الـسريعة بـسبب ظروف الحصار المفروض انذاك.

٧. تواجه عمليات الصيانة والترميم مشاكل عديدة منها شحة المواد المطلوبة وارتفاع اسعارها فضلا عن تواجد مشكلة المياه الجوفية في بعض الأماكن المقدسة.

٨. كان لضعف الترويج السياحي فضلا عن محدودية التخطيط بعيد المدى لصناعة السياحة ضمن التخطيط العام للتنمية الاقتصادية ومحدودية نشاط الهيئة السياحة انعكس على ضعف وفاعلية النشاط السياحي في القطر بشكل عام واثر بدوره على السوقين السياحيين المحلي والدولي.

٢. تقييم واقع السياحة الدينية للفترة من ٢٠٠٣ – ٢٠٠٥.

شهد واقع السياحة الدينية خلال الفترة ٢٠٠٣ – ٢٠٠٥ مرحلتين هما:

١. مرحلة الازدهار.

٢. مرحلة الركود.

١. مرحلة الازدهار:

دخلت الأماكن المقدسة بعد عام ٢٠٠٣ اعداد كبيرة من السواح الزوار لتادية مراسيم الزيارة بحيث وصل عددهم في بعض الحالات الى اكثر من (٥٠) الف زائر يومياً[١٣]، توافدت من البحرين، ايران، لبنان، باكستان.

ترتب على هذه الاعداد الضخمة من الزوار جوانب سلبية واخرى ايجابية.

اما الجوانب السلبية تتمثل في الاتي:

١. شكل تراكم اعداد الزوار يوميا ضغطاً على الفنادق ومراكز الايواء بحيث اصبحت لا تستوعب تلك الاعداد الكبيرة.

٢. ادت هذه الحالة اللجوء الى الدور السكنية لايوائهم وتحولت بعض الدور الى فنادق تأوي نحو (١٠٠) الف وافد[١٣].

٣. تزامنت مع هذه الحالة ايضا ارتفاع اسعار العقارات والايجار.

٤. نشوء خلافات حصلت بين المؤجرين والمستأجرين بسبب رغبة صاحب الدار اخلاء بيته لتحويله الى فندق يدر علية مبالغ وصلت في بعض الاحيان الى اربعة الاف دولار في الشهر.

٥. مشاكل ناجمة من قيام اصحاب الدور بفتح غرفهم لاسكان الوافدين من الزوار بأسعار ارخص من الفنادق الموجودة في تلك المدن رغم تردي شروطها الصحية[١٣].

٦. انعكست ضخامة اعداد الزوار على حركة السوق اليومية بحيث ساد التضخم وارتفعت اسعار السلع في تلك المدن فضلا عن عملية تفريغ الاسواق من السلع بسبب تهافت شراء الزوار لمعظم المواد المتوفرة في الاسواق المحلية لرخص اسعارها في العراق مقارنة مع دولهم.

٧. ظهور حالة ضغط وارباك على الجوانب الخدمية والاقتصادية والاجتماعية الاخرى.

٨. انتشار حالات غير سوية منها ظاهرة المخدرات والسرقة والقتل.

كما تزامن مع هذه الحالة ظهور جوانب ايجابية انعكست على مجمل الانشطة الاقتصادية ومنها الاتي:

١. عدد النزلاء: اصبح عدد نزلاء الزوار المتواجدين في المرافق السياحية للقطاع الخاص نحو (٧٨٩٥٧٦) زائر لعام ٢٠٠٣[٩].

٢. معدل البطالة: شهدت معدلات البطالة خلال تلك الفترة انخفاضاً واضحاً مقارنة مع بعض محافظات القطر، ففي محافظة كربلاء بلغ معدل

البطالة فيها نحو (١٤%) في حين كانت في بغداد قرابة (٣٣,٤%) بينما وفي محافظة ذي قار بلغت نحو (٤٦%) عاطل[١٤].

٣. قيمة الايرادات: بلغت قيمة الايرادات المتحققة لمرافق السياحة في القطاع الخاص لسنة ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤ نحو (٥٨) مليار دينار عراقي هي الاخرى شهدت ارتفاعاً ملحوظاً في قيمتها[٩].

وعليه تعزى ظهور الجوانب السلبية التي تزامنت مع مرحلة الازدهار لنشاط السياحة الدينية الى فتح المنافذ الحدودية وعدم وجود ضوابط تحد من دخول الوافدين الزوار فضلا عن انعدام التنظيم والشفافية لتنسيق دخول تلك الجموع من السياح الزوار الى الأماكن المقدسة.

٢. مرحلة ركود نشاط السياحة الدينية

من المتعارف عليه ان نشاط السياحة لا يعيش الا في ظل الامان والطمأنينة وعدم الخوف، ولكن الذي حصل بعد فترة وجيزة من مرحلة الانتعاش تردي الوضع الامني المتمثل في تصاعد العمليات الارهابية في عموم القطر ومنها تلك المحافظات (بغداد، كربلاء، النجف، الموصل) فضلا عن المواجهات المسلحة التي شهدتها المحافظات المعنية.

ترتب على الوضع الامني المتردي تلكؤ في نشاط السياحة الدينية الذي يتجلى من خلال الاتي:

١. ارباك العملية الاقتصادية، حيث قلة عدد نزلاء الفنادق وظهرت حالة بطالة لديهم وعدم ايفاء مبالغ الايجار المتبقية عليهم حسب مواعيد التسديد[١٣].

٢. تعرض القوافل السياحية الى عمليات الاختطاف والسرقة والقتل.

٣. تعرض بعض الفنادق الى السلب والنهب والتخريب مثل فندق الرشيد وشيراتون وميرديان والمنصور في بغداد وفندق السلام في النجف الاشرف[١٥].

٤. قامت العديد من الشركات السياحية الوهمية بمارسة نشاط السياحة الدينية وجلب السواح من جهات متعددة بعيداً عن الضوابط المعروفة.

٥. زاد عدد الفنادق وأصبحت بلا تناسق وبمساحات لا تبدو أنها دليل فنادق سياحة وتحولت الى فنادق ضاقت المدينة بها، الى جانب الكتل الكونكريتية التي أصبحت عاملاً يعيق حركة السائح الزائر[١٦].

٦. افتقار المحافظات الأربعة المستحوذة على نشاط السياحة الدينية لمشاريع البنى التحتية والفوقية والمساعدة بما فيها ماء وكهرباء ووسائل الصرف الصحي.

٧. أحدثت الالة العسكرية أضرار بالغة في البنية التحتية للآثار والمعالم التاريخية لتلك المدن لكن لم تلغيها[١٥].

٨. مارس الأعلام بكل أنواعه دوراً سلبياً على حركة السياحة بصورة عامة والسياحة الدينية بخاصة وأصبح يشكل عامل طرد للسواح الزوار من خلال تعظيم حالة انعدام الامن والفوضى ومن خلال نقلهم لأخبار تردي الظروف الصحية وحالات تلوث المياه وغيرها من حالات.

٩. ارتفاع اجور السفر، اذ قامت بعض الشركات برفع اجور نقل السياح الى العراق على متن طائرات الخطوط الجوية الاجنبية بحيث تتقاضى (٢٥%) من ثمن تذكرة اضافة كرسوم تأمين على الطائرات القادمة من دول العالم الى العراق تحسباً للمخاطر التي تصيب الطائرة في العراق[١٥].

وكانت لأحداث ١١ / سبتمبر ٢٠٠١ أثاراً متنوعة ألقت بظلالها على القطاع السياحي العالمي مما انعكست على السياحة الإقليمية التي أثرت على قطاعي الطيران والسياحة للدول العربية فأحدث تأثيراً بالغاً بحيث تشير التقديرات الى تراجع نسبة السفر بالجو من والى المنطقة العربية بنسبة (٣٥%) وقدرت منظمة الطيران العربية ان خسارة قطاع السياحة من جراء أحداث ١١ سبتمبر كانت تزيد على (١٠) بليون دولار نهاية عام ٢٠٠١ كما شهدت الفنادق انخفاض في معدل أشغال الغرف تتراوح من (٣٠%) الى (٧٠%) لنفس العام[١٦].

وينعكس كذلك اثر الحرب على قطاع السياحة عندما أعلن شن الحرب ضد العراق اثر هذا على قطاع السياحة في مصر حيث بلغت عائدات مصر السياحية قرابة (٣,٤) مليار دولار للسنة المالية ٢٠٠١ – ٢٠٠٢ ولكن كان للحرب على العراق اثر على تلك العوائد المتأتية بحيث، تراجعت بمقدار (٩٠٠) مليون دولار عن العام السابق.

وكانت هذه الخسائر اقل من المتوقع لها حيث توقع ان تبلغ الخسارة نحو (٢,٤) مليار دولار[١٧].

لذلك يعد الأمن والاستقرار هما البيئة الملائمة لنشاط قطاع السياحة في كل الدول وهذا ما أكدته منظمة السياحة العالمية (WTO) وفق المادة السادسة من قوانين وأخلاقيات العمل السياحي التي أقرتها المنظمة في مؤتمر اسطنبول عام ١٩٩٧ كدليل عمل تتبناه الدول والتي نصت على الآتي:

(وعلى العاملين في السياحة والذين يعتمد عليهم السواح ان يؤمنوا الحماية والأمان والحماية الصحية وان ينظموا حماية تأمينه للسواح...)[١٨].

إزاء تردي الوضع الأمني في تلك المحافظات فضلا عن مشاريع البنى التحتية والفوقية ذات الإمكانيات المتواضعة بما فيها الفنادق ومراكز الإيواء وما تضمه من محدودية وسائل الراحة ودوائر الصيرفة وطرق الاتصال وسائل النقل بأنواعها والخدمات العامة بما فيها الخدمات الصحية وقلة السلع الخاصة بالتبضع للزوار وازدحام الشوارع فضلا عن قلة الكوادر السياحية المهيئة لتقديم تلك الخدمة كلها شكلت معوقات لنشاط السياحة العامة والسياحة الدينية بخاصة بحيث أصبحت هامشية وجعلت من القطاع السياحي قطاعاً غير إنتاجي.

لا يعتمد عليه كباقي القطاعات الأخرى وهذا ما تعكسه نسبة مساهمته المتواضعه في أجمالي الدخل القومي التي بلغت اقل من (١٥%) في مرحلة الانتعاش[١٤] ويمكن توضيح مراحل نشاط السياحة الدينية في العراق كما في المخطط المرفق والذي يوضح واقع السياحة الدينية في العراق للفترة ٢٠٠٢، ٢٠٠٣ – ٢٠٠٥.

خامساً: سبل الارتقاء بالسياحة الدينية

يعاني الواقع السياحي في العراق والسياحة الدينية منه بخاصة من مشاكل ومعوقات جمة تمثل حصيلة تراكمات سابقة وآنية قللت من أهمية هذا الرافد الحيوي وعرقلة تنميته ولغرض النهوض بواقع السياحة الدينية والارتقاء بها، لابد من إيلائها أهمية تتماشى مع الاتجاهات السائدة وتنسجم مع المكانة الدينية والحضارية للمراقد المقدسة وإزاء ذلك يتجسد الاهتمام بالسياحة الدينية من خلال زاويتين هما :

١. الزاوية التعليمية: تتمثل في المدارس والجامعات والمعاهد سواء كانت سياحية إسلامية او مسيحية او أخرى.

٢. الزاوية العاطفية والروحانية: تتمثل في إقبال الزوار المحليين والسواح الزوار القادمين من بلدان العالم الإسلامي ومناطق العالم المسيحي[٣].

وانسجاما مع ذلك فأن سبل الارتقاء والنهوض بصناعة السياحة الدينية يتجلى في الآتي :

١. ضرورة استتباب الآمن بتوفير بيئة أمنه بعيداً عن الخوف والإرهاب وهذا الشأن يقع على وزارة الداخلية لحماية الزائرين .

٢. في الجانب التنظيمي بعيداً عن الدخول العشوائي والفوضى لابد من تنسيق دخول الزائرين وفحص تأشيرة الدخول (الفيزا) وهذا الشأن يقع على وزارة الخارجية

آما أليه تنظيم دخول الزائرين من خلال مذكرة التفاهم الأخيرة الموقعة بين العراق وإيران في ٧ نيسان ٢٠٠٥ تتوضح ما يلي[١٩]:

١. يبلغ عدد الزوار المتفق عليه بين الطرفين ما بين (١٥٠٠-٥٠٠٠) زائر يومياً.

٢. تصل مدة البقاء (الإقامة) لكل شخص منهم سبعة أيام فقط.

٣. تبلغ نفقات كل زائر قادم الى العتبات المقدسة (٣٠٠) دولار للسكن والطعام والنقل لمدة أسبوع.

٤. قد يصبح هذا المبلغ (٨٠٠) دولار لزائر واحد ولنفس مدة بقائه في حالة تسويقه من الأسواق العراقية.

آ- في الجانب الصحي وهذا من اختصاص وزارة الصحة بتقديم الخدمات الصحية للوافدين الزوار مع التأكد من سلامتهم وخلوهم من الأمراض بفحصهم عند النقاط الحدودية.

ب- في الجانب الخدمي:

١ هناك مشروع لبناء مطارين في محافظة النجف أحداهما يمثل قاعدة عسكرية سوف يتم تأهيلها وتزويدها بمنظومة خدمات حديثة .

٢. أبدى الجانب الإيراني مشاركته في إعادة تأهيل هذا المطار من اجل الإسراع بإنجازه بوقت مبكر واستخدامه كطريق آمن يسلكه الزوار بدلاً من الطريق البري الطويل

٣. هناك محاولة توسيع الروضة الحيدرية باستثمار المساحة المحيطة ببناء الأمام علي (ع) البالغ (٦٠) م فضلاً عن تسقيف فضاء البناء جميعه واعتباره صحنا مكمل للصحن المحيط بالضريح مع توسيع السوق الكبيرة في النجف وتحويله إلى سوق حديث تحت الأرض[١٩].

٤. هنالك مقترح لبناء فندق حديث ذي خمس نجوم في مدينة الكوفة يضم كافة الخدمات ووسائل الراحة.

٥. اقترح الجانب الإيراني تبليط طريق الشيب على الخط السريع في مدينة العمارة والبلغ طوله (٣٥) كم والمقترح قيد الدراسة.

٦. في محافظة كربلاء سوف تستغل الأراضي الموجودة في المحافظة لإنشاء فندقين يتم تنفيذ المشروعين مع شركة سويسرية مختصة.

٧. في محافظة بغداد تم صيانة الحضرة الكاظمية ووسعت من خلالها المدارات المحيطة بضريح الإمامين (ع) وتم تزويد المكان بمنافذ لا خراج المياه الجوفية . فضلاً عن عمليات صيانة وتأهيل لباقي الأماكن المقدسة في محافظة بغداد.

٨. في محافظة نينوى تم إنجاز فندق اوبروي ذو خمس نجوم على أساس عقد مبرم بين هيئة السياحة وشركة عقارية أهلية عراقية وبأشراف الشركة الأم Star Wood[١٥].

٩. في مجال إعادة أعمار وتأهيل الفنادق المدمرة تم الاتفاق مع شركات مساهمة أهلية مثل شيراتون، مرديان، المنصور، السدير، يجري تأهيلها حالياً[١٥].

١٠. تفعيل السياحة الدينية وتزامنها مع السياحات أخرى كالسياحة الأثرية او الترفيهية او سياحة القنص والصيد المتواجدة مقوماتها السياحية في تلك المناطق الدينية.

١١. تحسين جودة الخدمات المقدمة للسواح الزوار وتحقيق رضا السائح عبر بتوفير تسهيلات إجرائية وتعامل أخلاقي وسلوكيات راقية.

١٢. إعداد دليل خاص يتضمن تصنيف المواقع السياحية الدينية والاثارية في العراق

الاستنتاجات:

توصل البحث الى جملة من الاستنتاجات ومنها الآتي:

١. أن السياحة صناعة قائمة بذاتها ولها أهمية على المستويين الاقتصادي والاجتماعي التي من خلالها يتم توفير العملات الأجنبية الصعبة، ورفع معدلات التشغيل وتشجيع صناعات تقليدية وشعبية.

٢. يمتلك العراق من مقومات الجذب السياحي والسياحة الدينية منها ما تجعله يتبوأ مكان الصدارة بتوافد الزوار اليه من كافة أقطار العالم.

٣. الحاجة المستمرة الى بيئة آمنه بعيدة عن الإرهاب والخوف والفوضى.

٤. يتبين هنالك خلل في البنية الإدارية للسياحة مع الافتقار الى الملاكات المتخصصة ذات التأهيل والتدريب الجيد.

٥. انخفاض عدد مراكز الإرشاد السياحي على مستوى القطر، وقصور برامج التدريب السياحي والفندقي اللازمة للنهوض بمستوى الخدمات المقدمة.

٦. الافتقار الى خريطة سياحية كاملة وشاملة لكافة مناطق الجذب السياحي الحالية والمرتقبة.

٧. محدودية التخطيط بعيد المدى لصناعة السياحة ضمن التخطيط العام للتنمية الشاملة مع عدم تبلور الوعي الكافي بأهمية السياحة على المستوى الاقتصادي او الثقافي او الحضاري.

٨. هناك إهمال للمناطق الأثرية والمدن الحضارية والأماكن التاريخية والدينية، فهناك ضعف في اعمال الصيانة والترميم وإعادة البناء.

٩. انكماش دور القطاع الخاص في عملية التنمية السياحية وتهميش دوره في الأنشطة السياحة المختلفة.

١٠. ضعف الخدمات السياحية المقدمة مع تدني مستوى أداء تلك الخدمات.

التوصيات :

تم التوصل الى العديد من التوصيات الآنية والمقبلة منها الآتي:

١. تيهئة الظروف والأجواء المستقرة امنياً وسياسياً لتفعيل هيكل العمل السياحي وفق الإمكانيات المتاحة.

٢. تحقيق تنمية سياحية مستدامة بما فيها السياحة الدينية في كل المدن العراقية بمستوى أهمية هذه الصناعة المعاصرة.

٣. إجراء مسح دقيق وشامل لحصر مناطق الجذب السياحي ومنها مناطق السياحة الدينية في العراق.

٤. إجراء دراسات مستفيضة وبعيدة المدى بخصوص تطوير المناطق السياحية بما ينسجم مع المكانة والأهمية الخاصة لتلك المناطق.

٥. أقامة مشاريع سياحية تلائم المكانة المقدسة للمناطق الدينية وتبرز الهوية العقائدية (الإسلامية، المسيحية) لضمان مساهمة السكان المحليين للعمل في المناطق وضمان مستويات أفضل لمعيشتهم.

٦. توجيه المبالغ المستحصلة من المناطق المقدسة (الضرائب، تبرعات) صوب الاستثمار الامثل وأنفاق قسم منها لعملية الصيانة والترميم وفق خطة حسابية دقيقة.

٧. أنشاء مشاريع سياحية تتفق مع رغبة وأسلوب حياة الإنسان العراقي وأسلوب وحياة السائح الأجنبي لحالة زوار العتبات المقدسة.

٨. توسيع المساحات التي يتحرك خلالها السواح الزوار لغرض استيعاب عملية أداء طقوسهم الدينية.

٩. تشجيع وتعزيز دور القطاع الخاص بتفعيل نشاطه السياحي في القطر.

١٠. إقامة دورات وبرامج تعليمية وتطويرية لتخريج مرشدين سياحيين على مستوى عال من المعرفة بالمواقع الأثرية والأماكن المقدسة وعلى مستوى جيد فيما يخص إتقان اللغات الأجنبية.

١١. وضع استراتيجية تسويقية واضحة المعالم تراعي الخصوصية للمواقع الدينية فضلا عن توفر منتجات سياحية معبرة عن القيمة الروحية للموقع السياحي الديني كالصور، تحف...

١٢. توفير بيئة قانونية تضمن حق المستثمرين في القطاع الخاص المحليين والعرب والأجانب.

١٣. توجيه وسائل الأعلام المختلفة وجعلها عامل جذب لتسليط أضوائها على المواقع السياحية العامة والدينية منها الموجودة في القطر.

١٤. تحسين خدمات البنى التحتية والفوقية والمساعدة بما فيها توفير وسائل النقل المتطورة مثل القطارات السريعة والمترو وبناء المطارات لتسهيل حركة السواح وصيانة خدمات الكهرباء والماء والصرف الصحي.

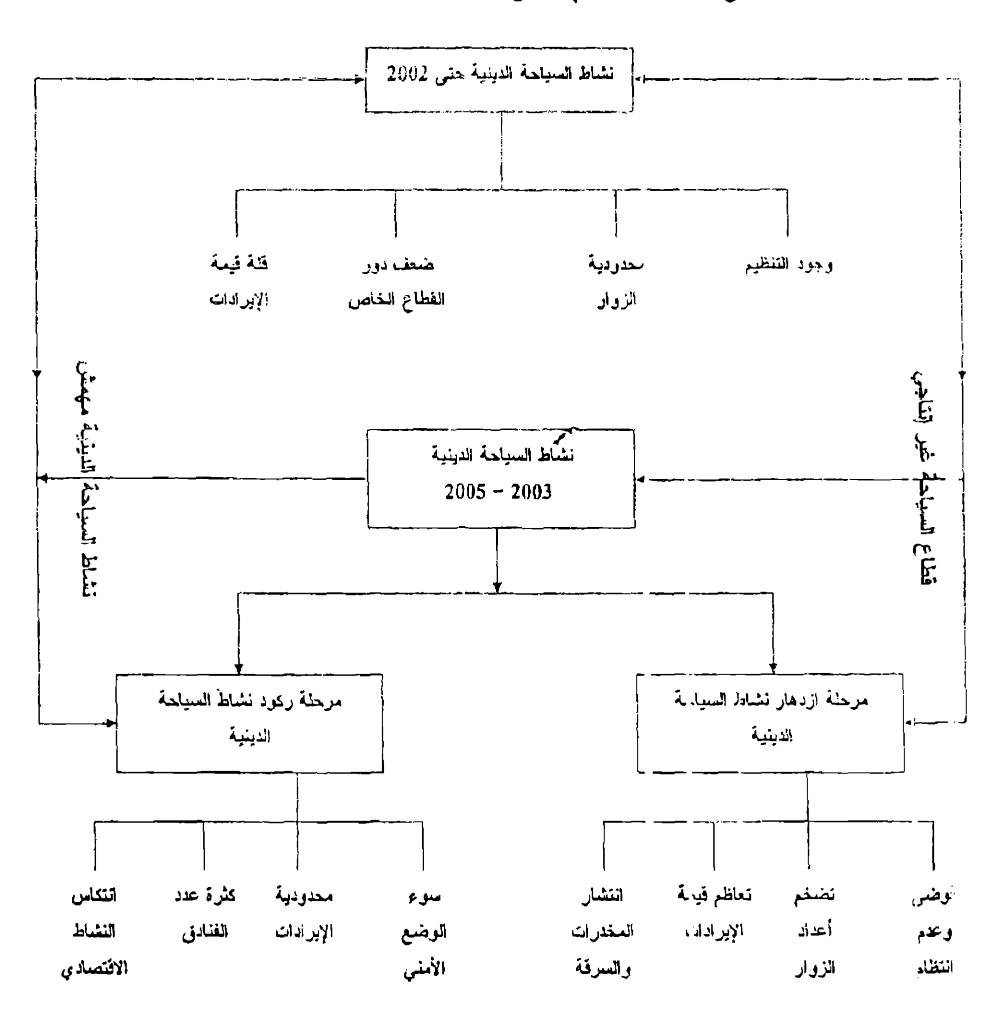
المصادر

١. د. محسن احمد الخضيري/ التسويق السياحي مدخل اقتصادي متكامل/ مكتبة مدبولي/ ١٩٨٩/ ص١٧.
٢. د. حميد عبد النبي الطائي/ إدارة الضيافة/ جامعة الزيتونة الأردنية/ عمان – الأردن/ الطبعة الأولى/ ٢٠٠٠/ص٥٠.
٣. د. محمد عبيدات/ التسويق السياحي مدخل سلوكي/ دار وائل للطباعة والنشر/ عمان – الأردن/ الطبعة الأولى/ ٢٠٠٠/ ص١٤١.
٤. صباح محمد جاسم/ العراق ارض المقدسات/ هيئة السياحة/ العراق – بغداد/ شارع حيفا/ ١٩٩١/ ص١- ٦.
٥. نور الدين حسن/ مجلة شناشيل/ العراق – بغداد/ العدد الرابع/ ٢٠٠٤/ ص٢٤.
٦. صباح محمد جاسم/ دليل السياحة الدينية في العراق/ "الموقع" / اصدار هيئة السياحة/ مطبعة الوفاق – بغداد/ الرصافة/ ١٩٩٢/ ص١٧ – ٩٠.
٧. الحاج الشيخ عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ دار الفقة للطباعة والنشر/ بيروت/ ١٩٩١/ الطبعة الثانية/ ص٦٤٩.
٨. وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي/ الجهاز المركزي للإحصاء وتكنولوجيا المعلومات/ مديرية إحصاء التجارة/ المسح الشامل للفنادق ومجمعات الإيواء السياحي لسنة ٢٠٠٣/ ص٢.
٩. وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي/ الجهاز المركزي للإحصاء وتكنولوجيا المعلومات/ مديرية إحصاء التجارة/ مسح المرافق السياحية في القطاع الخاص لسنة ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤/ ص١٠.
١٠. وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي/ الجهاز المركزي للإحصاء وتكنولوجيا المعلومات/ مديرية الإحصاء الاجتماعي/ نتائج مسح التشغيل والبطالة/ المرحلة الثالثة/ النصف الأول لسنة ٢٠٠٤/ ص٥، ١٠، ١٨.

١١. الصباح/ العدد ٥٧٦/ الثلاثاء/ ١٤ حزيران/ ٢٠٠٥/ ص٣.
١٢. عامر العبوس/ السياحة صناعة العصر/ مجلة وادي الرافدين/ العدد الثالث/ ٢٠٠٢/ هيئة السياحة/ العراق – بغداد/ ص١٢ – ١٣.
١٣. http://WWW, Google. Com/ Arabicsite/ AL- MADA Daily newspaper Pag ١ of ٦.
١٤. حسناء ناصر ابراهيم التميمي/ الامكانيات السياحية وأثرها على سوق العمل/ نشرة صوت المستهلك/ مركز بحوث السوق وحماية المستهلك/ جامعة بغداد/ العدد الثاني عشر/ أيلول/ ٢٠٠٤/ ص٦.
١٥. http://WWW,Google. Com/ Arabicsite
مظهر الزهيري/ هيئة السياحة مهام كبيرة وميزانية لا تصل الى حجم الطموح/ ٢/١٠/ ٢٠٠٥.
١٦. http://WWW.Google. Com/ Arabicsite
السياحة الدينية في كربلاء/ هموم تبحث عن حلول ونيات صادقة/ ٢/ ٢/ ٢٠٠٥.
١٧. http://WWW,Google. Com/ Arabicsite
حوادث ١١/سبتمبر على اقتصاديات الدول العربية/ ٥/ ١٠ /٢٠٠٥.
١٨. مجيد حميد العزاوي/ ترجمة وأعداد/ قانون أخلاقيات السياحة العالمية/ وادي الرافدين/ العدد الثالث/ ٢٠٠٠/ هيئة السياحة/ بغداد – العراق/ ص٤٤ – ٥٠.
١٩. http://WWW,Google. Com/ Arabicsite
علي دنيف حسن/ مشاريع عملاقة للنهوض بالسياحة الدينية في العراق/ الصباح/ العدد ٦٧٢/ ٦ تشرين الأول/ ٢٠٠٥/ص٢٨.

الشكل رقم (1)

واقع السياحة الدينية في العراق للفترة 2002، 2003 - 2005(*)



(*) الشكل من عمل الباحث بالاعتماد على معلومات الموجودة في المحور الثالث

جدول رقم (2)

ألاماكن المسيحية المقدسة في العراق حسب المحافظات[6]

ت	المحافظة	الكنائس/ الاديرة	تاريخ البناء/ التشييد	الملاحظات
1	بغداد	كنيسة مريم العذراء/ كنيسة مريم انا	1640 م	تقع في ساحة الميدان في باب المعظم، تمارس فيها بعض التقاليد التي ترتبط بالتراث الشعبي المحلي، ومنها الطوق الحديدي المشهور.
		كنيسة الكلدان (أم الأحزان)	1898 م	تقع في محلة راس القرية المطلة على شارع الرشيد/ من اكبر الكنائس القديمة القائمة في بغداد.
		كنيسة اللاتين	1866 م	تقع قرب الشورجة من جهة شارع الخلفاء (شارع الجمهورية سابقاً).
		كنيسة السريان الكاثوليك	1863 م	تقع في راس القرية بين كنيستي اللاتين والكلدان.
2	الموصل	كنيسة مار أشعيا	(570 - 581) م	اسسها الراهب ايشوعيان برقوسري ودفن فيها وتقع في محلة راس الكور في الموصل القديمة يرجع تاريخها الى القرن الخامس.
		كنيسة شمعون الصفا		تقع في محلة المياسة، وهي من اهم كنائس الموصل الحالية من حيث القيمة الاثرية.
		كنيسة مار تُوما	770 م	تقع الى الجنوب الغربي من الجامع النوري.
		كنيسة مسكنته (شيرين)	1212 م	تقع في محلة المياسة، شيدت في حدود القرن العاشر ويأتي اقدم ذكر لها في مخطوطة مكتوبة سنة 1212 م.
		كنيسة الطاهرة الداخلية		تقع في محلة القلعة، وهي من الكنائس القديمة جداً.
		كنيسة مار بيثون	1946 م	هدمت اكثر من مرة ورد ذكرها في القرن العاشر الميلادي.
		كنيسة حود بني/ احوُدمة	919 م	التاريخ المشار اليه يمثل اقدم ذكر يعود لها.

		كنيسة الربان هرمز	(628 – 647) م	أسست خلال الفترة المشار أليها، وتقع في بلدة شرش غرب الموصل.
		دير مار بهنام (دير الجب)		يقع جنوب شرق الموصل.
		دير الشيخ متي		يقع الى الشرق من مدينة الموصل.
		مزار القديسة بربارة	1764 م	تقع في قرية كرمليس. شرق الموصل.
		كنائس قره قوش ومن أشهر الكنائس فيها.		تقع في بلدة قره قوش (ام الخماسين السبع) بين دير الشيخ متي ودير مار بهنام على بعد
		كنيسة الطاهرة القديمة	1129 م	35 كم الى الشرق من الموصل.
		كنيسة بشموني	791 م	
		كنيسة سركيس وباكوس	1582 م	
3	كربلاء	كنيسة كلدانية		يرجع تاريخها الى القرن الخامس الميلادي

جدول رقم (4)

عدد الفنادق ومجمعات الإيواء السياحي التي تقدم الخدمات حسب القطاع والمحافظة لسنة 2002[8]

المحافظة	القطاع	خدمات الطعام	خدمات مشروبات روحية	خدمات غسل وكوي خدمات	خدمات حمام سباحة	خدمات صالة (منتدى)	خدمات رحلات سياحية	خدمات ساحات سيارات	خدمات مصرفية	خدمات أخرى	عدد الفنادق: تقدم الخدمات	عدد الفنادق: لا تقدم خدمات	المجموع
بغداد	العام	3	0	3	2	0	2	3	1	1	3	0	3
	خاص	18	0	8	3	0	0	3	0	0	21	330	351
	مختلط	5	1	5	5	5	2	5	4	1	5	0	5
	مجموع	26	1	16	10	5	4	11	5	2	29	330	359
كربلاء	العام	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0
	خاص	47	0	0	0	0	0	0	0	0	47	109	156
	مختلط	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0
	مجموع	47	0	0	0	0	0	0	0	0	47	109	156
النجف	العام	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0
	خاص	41	0	15	0	0	0	8	0	98	99	2	101
	مختلط	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0	0
	مجموع	41	0	15	0	0	0	8	0	98	99	2	101
نينوى	العام	2	0	2	1	1	0	2	1	0	2	0	2
	خاص	1	0	4	1	0	0	2	1	75	75	8	83
	مختلط	2	0	2	1	1	0	3	0	1	3	0	3
	مجموع	5	0	8	3	2	0	7	2	76	80	8	88
المجموع العام	العام	5	0	5	3	1	2	5	2	1	5	0	5
	خاص	107	0	27	4	0	0	13	1	173	242	449	691
	مختلط	7	1	7	6	6	2	8	4	2	8	0	8
	مجموع	119	1	39	13	7	4	26	7	176	255	449	704

(8) الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على المصدر ادناه.

وزارة التخطيط والتعاون الانمائي/ الجهاز المركزي للاحصاء وتكنولوجيا المعلومات/ مديرية إحصاء التجارة/ المسح الشامل للفنادق ومجمعات الإيواء السياحي لسنة 2003، ص 29 – 30

					جامع مرجان، جامع الشيخ معروف الكرخي، جامع الحيدر خانه، جامع السراي، جامع الخفافين، جامع الاصفية، جامع الوزير، جامع الازبك، جامع سلطان علي، جامع الاحمدية، جامع قمرية، جامع براثا في العطيفية. مساجد وجوامع حديثة البناء في بغداد احتلت مكانة مرموقة منها: جامع 14 رمضان، جامع الشهداء في ام الطبول، جامع بنية، جامع الاورفه.
		الامام علي بن ابي طالب (ع)	(39 هـ - 750م)		أكتشف قبرة الشريف في هذا التاريخ[6] .
2	النجف		ت (17هـ - 638م)	مسجد الكوفة منبر الإمام علي ابن طالب (ع) مصلي الامام علي(ع)مرقد مسلم بن عقيل ابن ابي طالب (رض) مرقد هاني بن عروة (رض)	اسس الكوفة القائد سعد بن ابي وقاص مسجد الكوفة – ثاني اقدم المساجد في العراق بعد جامع البصرة.
3	كربلاء	الامام الحسين بن علي ابن ابي طالب (ع).	م(61هـ - 680م)		تتلألأ هذه المحافظة بميزة ضم الروضتان الحسنية والعباسية في قلب المدينة.
		الامام العباس بن علي ابن ابي طالب(ع).	م(61هـ - 680م)		
				مرقد الحر بن الرياحي	
4	صلاح الدين/ قضاء بلد	السيد محمد بن الامام علي الهادي بن محمد الجواد(ع).	م(252هـ - 866م)		
	صلاح الدين/ سامراء	الامام علي الهادي بن محمد الجواد (ع).	م(254هـ - 868م)		تضم الروضة العسكرية ايضا قبر السيدة حليمة بنت الجواد عمة الحسن العسكري، وزوجته السيدة نرجس ام الامام المهدي (ع).
		الامام الحسن العسكري ابن الامام علي الهادي (ع).	م(260هـ - 874م)		
5	نينوى/ الموصل	جامع وقبر النبي جرجيس			يقع الجامع في محلة سوق الشعارين في الموصل.
		جامع المجاهدي (الخضر، الجامع الاحمر)	ت (576هـ - 1180م)		يقع في الجهة الجنوبية لمدينة الموصل عند رأس جسر الحرية.
		ضريح الامام يحيى بن القاسم بن	ت (637هـ - 1239م)		يقع شمال مدينة الموصل على ساحل دجلة الايمن

جدول رقم (7)

قيمة الإيرادات حسب أنواعها والقطاع والمحافظة للفنادق ومجمعات الإيواء السياحي لسنة 2002[8]

القيمة: الدينار

المحافظة	القطاع	أجور	المبيعات	إيرادات أخرى	المجموع
بغداد	العام	2125350000	1805942610	355025000	4286317610
	خاص	9167271956	4273727642	151661366	13592660964
	مختلط	5774278717	2524730774	1598623164	9897632655
	مجموع	17066900673	8604401026	2105309530	27776611229
كربلاء	العام	0	0	0	0
	خاص	8027852501	5736562080	134721000	13899135581
	مختلط	0	0	0	0
	مجموع	8027852501	5736562080	134721000	13899135581
نينوى	العام	313753011	135583784	60264323	509601118
	خاص	1174040371	24091100	149138302	1347269773
	مختلط	480038758	59478368	129077776	668594902
	مجموع	1967832140	219153252	338480401	2525465793
النجف	العام	0	0	0	0
	خاص	4962561350	4599064391	139408700	9701034441
	مختلط	0	0	0	0
	مجموع	4962561350	4599064391	139408700	9701034441
المجموع العام	العام	2439103011	1941526394	415289323	4795918728
	خاص	23331726178	14633445213	574929368	38540100759
	مختلط	6254317475	2584209142	1727700940	10566227557
	مجموع	32025146664	19159180749	2717919631	53902247044

---

[8] الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على المصدر ادناه.

وزارة التخطيط والتعاون الانمائي/ الجهاز المركزي للاحصاء وتكنولوجيا المعلومات/ مديرية إحصاء التجارة/ المسح الشامل للفنادق ومجمعات الإيواء السياحي لسنة 2003، ص 81 ، 82 ، 83.

جدول رقم (5)

عدد النزلاء والأسر حسب المحافظة والجنسية والقطاع لسنة 2002[8]

المحافظة	القطاع	العراقيين		العرب		الاجانب		المجموع	
		النزلاء	سرير/ يوم	النزلاء	سرير/ يوم	النزلاء	سرير/ يوم	النزلاء	سرير/ يوم
بغداد	العام	7591	21460	1893	20640	4265	16030	13749	58130
	خاص	713972	1525091	4913	19530	292402	590052	1011287	2134673
	مختلط	85223	197684	23530	45918	109268	206632	218021	450234
	مجموع	806786	1744235	30336	86088	405935	812714	1243057	2643037
كربلاء	العام	0	0	0	0	0	0	0	0
	خاص	101549	116278	19609	82235	321567	911832	442725	1110345
	مختلط	0	0	0	0	0	0	0	0
	مجموع	101549	116278	19609	82235	321567	911832	442725	1110345
النجف	العام	0	0	0	0	0	0	0	0
	خاص	138508	235094	20827	50302	369145	719942	528480	1005338
	مختلط	0	0	0	0	0	0	0	0
	مجموع	138508	235094	20827	50302	369145	719942	528480	1005338
نينوى	العام	16012	32794	373	492	1547	2947	17932	36233
	خاص	266469	462282	6939	13486	1261	1488	274669	477206
	مختلط	60414	87056	428	612	334	562	61176	88230
	مجموع	342895	582132	7740	14590	3142	4947	353777	601669
المجموع العام	العام	23603	54254	2266	21132	5812	18977	31681	94363
	خاص	1220498	2338745	52288	165553	984375	2223264	2257161	4727562
	مختلط	145637	284740	23958	46530	109602	206194	279197	538464
	مجموع	1389738	2677739	78512	233215	1099789	2449435	2568039	5360389

---

(8) الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على المصدر ادناه

وزارة التخطيط والتعاون الانمائي/ الجهاز المركزي للاحصاء وتكنولوجيا المعلومات/ مديرية إحصاء التجارة/ المسح الشامل للفنادق ومجمعات الإيواء السياحي لسنة 2003، ص 38 – 42.

جدول رقم (3)

الاماكن اليهودية والاخرى المقدسة في العراق حسب المحافظات

ت	المحافظة	الكنائس/ الاديرة	تاريخ البناء/ التشييد	الملاحظات
1	بابل	مرقد النبي حزقيال (ذي الكفل)	(586 – 538) ق.م	يقع على مسافة (30) كم الى الجنوب الغربي من مدينة الحلة، الذي يعرف تسميته بذي الكفل لانه كفل قومه اليهود بالنجاة من السبي البابلي.
		جامع النبي ايوب		
2	النجف	مرقد ادم (ع)		عند مرقد امير المؤمنين (رض)[7].
		مرقد نوح (ع)		عند مرقد امير المؤمنين (رض).
		قبر هود (ع)		
		قبر صالح (ع)		
3	الموصل	قبر شيث (ع)		

(7) الشيخ عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ دار الفقه للطباعة والنشر/ بيروت/ 1991/ الطبعة الثالثة/ ص649.

جدول رقم (1)

ألاماكن الإسلامية المقدسة في العراق حسب المحافظات[4]

ت	المحافظة	المرقد الشريف	تاريخ الوفاة (م) / تاريخ التشييد (ت)	الجامع / المسجد	الملاحظات
1	بغداد	الامام موسى الكاظم (ع) الامام محمد الجواد (ع)	م (183هـ – 799م) م (219هـ – 834م)		الروضة الكاظمة – سميت تلك المنطقة مقابر قريش – ضمت في ثراها جعفر بن المنصور/ الخليفة الامين السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد
		الامام ابو حنيفة النعمان	م (150هـ – 767م)		المحلة التي فيها هذا المرقد الشريف احدى محلات بغداد المعرفة في العصر العباسي وتسمى مقبرة الخيزران.
		الشيخ عبد القادر الكيلاني	م (513هـ – 1119م)		مؤسس الطريقة القادرية/ وملقب بالباز الاشهب[5] (يقصد به المتمكن في الاحوال فلا تزحزحه الطوارق عن درجات الرجال.
				سيد ادريس سيد حمد الله ابو شيبة	الكرادة خارج الباب الشرقي شارع النهر
				مقام الخضر	شارع حيفا
				الخلاني	في ساحة الخلاني
				ابو خمرة	في الكفاح
			م (232 هـ – 1234م)	مرقد الشيخ عمر السهروردي	يقع هذا المرقد في الجانب الشرقي من مدينة بغداد[6]/ الرصافة/ يمثل احد الابواب الاربعة لسور بغداد الشرقي ويعرف قديماً بـ (باب الظفرية).
			ت (678 هـ – 1279م)	جامع الخلفاء	مكانه سوق الغزل/ منتصف شارع الخلفاء – كان الجامع الرسمي للدولة العباسية الذي تقرأ فيه عهود القضاة ويصلى فيه على جنائز الاعيان والعلماء. تعقد فيه حلقات الفقهاء والمناظرين والمحدثين.
				مرقد [illegible] خاتون	يقع في الجانب الغربي من الكرخ يوجد جوامع ومساجد اخرى في بغداد لذلك سميت مدينة المنائر والقباب ومنها:

---

(4) صباح محمد جاسم/ العراق ارض المقدسات/ هيئة السياحة/ العراق – بغداد/ شارع حيفا/ 1991/ ص1 – 6.

(5) نور الدين حسن / مستقبل العراق – بغداد / العدد الرابع – 2004، ص24.

(6) صباح محمد جاسم / [illegible] السياحة الدينية في العراق / (المرقد – اصدار هيئة السياحة – مطبعة الرفاق – بغداد – [illegible] – 1992، ص 17 – 90)

		الحسن بن علي (رض).			
		ضريح السيدة زينب بنت الامام علي بن ابي طالب (رض).	ت (637 هـ - 1239 م)		يقع في مدينة سنجار
			ت (607 هـ - 1210 م)	جامع الامام محسن	
			م (165 هـ - 781 م)	مرقد الشيخ فتحي	
			ت (17 هـ - 637 م)		وفي نينوى ايضا الجامع الاموي ويسمى كذلك المسجد الجامع او جامع المصفى
			ت (1170 م - 1172 م)		الجامع النوري المنفرد بمنارته الحدباء في محلة الجامع [illegible]
					نسبة مدينة الرفاعي التابعة لمحافظة ذي قار حاليا
6	ميسان			مرقد علي الشرقي	
				مرقد علي الغربي	
				مرقد عبد الله بن علي	
7	البصرة		ت (14 هـ - 635 م)	مسجد البصرة	اول مسجد بني في العراق في بداية مرحلة التحرير العربي الاسلامي
		مرقد الحسن البصري	م (110 هـ - 728 م)		يقع في جنوب البصرة
		مرقد الزبير بن العوام	م (36 هـ - 656 م)		يقع في مدينة الزبير
			ت (920 هـ - 1514 م)	جامع الكواز	يقع في محلة المشراق في البصرة
					وتحتضن مدينة البصرة العديد من الاضرحة والمراقد والجوامع ومنها: ضريح عتبة بن غزوان، ضريح طلحة بن عبيد الله، ضريح انس بن مالك، ضريح ابن سيرين، جامع العرب، جامع القطانة، جامع القصب، جامع عزيز اغا، جامع عبد الله اغا، جامع السيف، جامع الخواجة محمود، جامع ابي منارتين، جامع المناوي، جامع القرسي، جامع مقام علي، جامع الفاو الكبير

* هنالك مزارات أخرى لم يتم ذكرها لعدم توفر المصادر الموثقة الخاصة بها وهذا ينطبق مع باقي الجداول.

جدول رقم (8) قيمة المشتريات والمبيعات والمخزون السلعي حسب المجموعة السلعية والمحافظة لسنة 2002[8]

القيمة: دينار

المحافظة	السلع	خزين أول مدة	مشتريات	مبيعات	خزين أخر مرة
نينوى	مواد غذائية	1508702	174881016	195649485	29264804
	سكاير	101900	1873948	650926	1324922
	مشروبات غازية	199500	17924870	19847721	2570399
	مشروبات كحولية	80000	0	0	80000
	اخرى	327060	2425773	3005120	180824
	المجموع	2217162	197105607	219153252	33420949
بغداد	مواد غذائية	17288556	5351966041	7642888988	23582570
	سكاير	260823	4772711	6502757	430978
	مشروبات غازية	1708453	178663831	880069395	2217986
	مشروبات كحولية	0	0	0	0
	اخرى	45806390	51606521	74939886	29854274
	المجموع	65064222	5587009104	8604401026	56085808
كربلاء	مواد غذائية	0	4134237900	4670232915	0
	سكاير	0	0	0	0
	مشروبات غازية	0	958960050	1066329165	0
	مشروبات كحولية	0	0	0	0
	أخرى	0	0	0	0
	المجموع	0	5093197950	5736562080	0
النجف	مواد غذائية	0	2032793000	4024258911	0
	سكاير	0	0	0	0
	مشروبات غازية	0	214238840	438201480	0
	مشروبات كحولية	0	0	0	0
	أخرى	0	82780500	136604000	0
	المجموع	0	2329812340	4599064391	0
المجموع العام	مواد غذائية	18797258	11693877957	16533030299	52847374
	سكاير	362723	6646659	7153683	1755900
	مشروبات غازية	1907953	1369787591	2404447761	4788385
	مشروبات كحولية	80000	0	0	80000
	أخرى	46133450	136812794	214549006	30035098
	المجموع	67281384	13207125001	19159180749	89506757

(8) الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على المصدر ادناه.

وزارة التخطيط والتعاون الانمائي/ الجهاز المركزي للاحصاء وتكنولوجيا المعلومات/ مديرية إحصاء التجارة/ المسح الشامل للفنادق ومجمعات الإيواء السياحي لسنة 2003، ص 77 – 78

لِـــمَ أَلَّفَ ابــنُ المعتــزَ كتابَ

" البديـــع "

الأستاذ الدكتورعبد الهادي خضير

كلية التربية البنات ــ جامعة بغداد

الملخص

يعد ظهور كتاب "البديع" لابن المعتز في القرن الثالث للهجــرة مفارقة كبيرة، ذلك انه وهو الشاعر المحدث المولع بالبديع يؤلف كتابا كي يثبت فيه أن الشعراء المحدثين لم يسبقوا الى "البديع" وانه موجــود وشائع في التراث العربي قبلهم وبذلك جردهم من أكبر أســلحتهم فـــي صراعهم مع أنصار القديم .

وقف الباحثون المحدثون عند هذه القضية ووضعوا تفــسيرات رأوها سببا مقنعا لما قام به ابن المعتز.

يحاول هذا البحث بعد ان يعرض أراء الباحثين المحــدثين أن يقدم تفسيرا جديدا للأسباب التي دفعت ابن المعتز الـــى تـــأليف كتابــه "البديع" متمثلا بموقفه من أبي تمام الشاعر المحدث وزعــيم مدرســة "البديع" وسعيه لإزاحته من مكانتـــه التـــي وصـــل إليهـــا والحلـــول محله .. ويورد البحث أدلة كثيرة يعزز بها هذا الرأي ويثبت من خلالها موقف ابن المعتز المتحامل من الشاعر أبي تمام.

المقدمـــــة

يعد كتاب "البديع" لعبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ هــ) حلقة مهمة في تطور النقد والبلاغة عند العرب . فقد كان ظهوره حدثا بارزا فـــي تأريخهما ، ذلك ان ابن المعتز عُدَ فيه رائدا في جمع الفنون البديعية ، ووضع مصطلحاتها ، والتمثيل لها ونقدها .فضلاً عن أثر الكتاب فيمن جاء بعده من النقاد و البلاغيين .

ولسنا هنا في معرض تقويم الكتاب و بيان دوره في النظريـــة النقدية عند العرب ، ولكن ظهور هذا الكتاب في القرن الثالث للهجـــرة قرن الصراع بين القديم و الجديد في الشعر العربي يُعدّ مفارقة كبيرة إذ كيف ينبري ابن المعتز ، وهو الشاعر المحدث الذي أولع بالبديع حتى عرف به[1] الى تأليف كتاب يُثبت فيه أن الشعراء المحدثين" لم يـسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه"[2] . فهو بعمله هذا يجردهم مـــن أكبـــر أسلحتهم ويطعنهم في صميم ما تفاخروا به في حومة صـــراعهم مـــع أنصار القديم ... فإذا كان القدماء قد استحوذوا علـــى المعـــاني فـــإن للمحدثين "البديع" الذي ابتدعوه وفاقوا فيه الأوائل .

لقد دفعت هذه المفارقة بعض الباحثين المحدثين إلى الوقـــوف عنـــدها ومناقشتها للوصول إلى تفسير مقنع يوضح الأسباب التي دعـــت ابـــن المعتز للقيام بما قام به.

---

(١) ينظر حلية المحاضرة : ١/ ١٣٦ وكذلك تاريخ النقد الادبي/ د. احسان عباس / ١٢٢ .

(٢) البديع / ١ .

انطلق بعض هؤلاء الباحثين من النتيجة الى السبب ، فكانت الغاية من تأليف الكتاب ـ عنده ـ هي حصر وجوه البديع ووضع مصطلحاتها والتمثيل لها ، وكان ابن المعتز عنده " أول من شق هذا الطريق في التأليف ، وهو جمع الفنون الأسلوبية التي اعتاد الشعراء والكتاب استخدامها " [٣] . وقد استند أنصار هذا الرأي إلى إشارة ابن المعتز نفسه الى ذلك في كتاب البديع بقوله " وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد"[٤] . والذي يقرأ مقدمة الكتاب يجد في كلام ابن المعتز ما يقوّي هذا الرأي وهو قوله" ولعل بعض من قصر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته"[٥] .

وهذا الرأي على وجاهته لا يمكن أن نقطع به أو أن نراه سببا وحيدا للتأليف ، ذلك ان ابن المعتز فضلا عما أثبته في مفتتح كتابه لا يلبث ان يقول بعد قوله السابق مباشرة " وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من أبواب البديع[٦] كما أن حصر وجوه البديع بخمسة فنون في القسم الأول من كتابه وأشعار القارئ بأنه قد أنهاه ، ثم استدراكه بإلحاق ثلاثة عشر فناً بديعياً سمّاها " محاسن الكلام " وعرضها بمنهج يخالف ما سار عليه في الفنون الخمسة الأولى يضعف من هذا الرأي .

أما الفريق الثاني من الباحثين فقد كانت الغاية من تأليف الكتاب ـ عندهم ـ ما أثبته ابن المعتز في فاتحة الكتاب وهي قوله

---

[٣] تاريخ النقد العربي / محمد زغلول سلام / ١١٥ .

[٤] البديع / ٥٨ ..

[٥] م . ن / ٢ ـ ٣ .

[٦] م . ن / ٣ .

" ليُعلَم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقَيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم[٧] وهو ما عاد لتأكيده بعد ذلك في موضع آخر[٨] ... ولم يحاولوا إيجاد تفسير لسلوك ابن المعتز الغريب هذا .

حاول فريق ثالث ان يعلل هذه المفارقة في تأليف الكتاب تعليلا لا يخلو من طرافة ... فقد ذهبوا الى ان ابن المعتز الذي أثبت في كتاب البديع ان فنون البديع التي شُهر بها المحدثون موجودةً في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله (ﷺ) وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين "[٩] قد سلك في هذا الكتاب الباب الخلفي عن قصد او غير قصد في الدفاع عن الشعر المحدث "[١٠] إذ اثبت بذلك ان الشعر المحدث لم يخرج على تقاليد القصيدة العربية ولم يأت المحدثون بشيء جديد لم يعرفه العرب . إنما الأمر لا يعدو ان يكون إسرافاً من المحدثين في استخدام هذا الأسلوب ، وبذلك فان الروح التي أملت الكتاب كانت تمثل جانباً من الحركة النقدية في القرن الثالث ، على نحو طريق معكوس ، فبدلاً من أنصاف الشعر المحدث ذهب ابن المعتز ينصف القديم وعن هذه الطريق أكد أن البديع لم يكن مستحدثاً ... فالبديع اذن جزء من الموروث الكبير "[١١] .

---

[٧] البديع / ١ .

[٨] ينظر هامش (٤) من الصفحة الثانية من البحث .

[٩] البديع / ١ .

[١٠] مقالات في تاريخ النقد العربي / ١٧٣ .

[١١] تاريخ النقد الادبي / د . احسان عباس / ١٢١ ــ ١٢٢ .

والسؤال الكبير الذي يمكن ان يثار حول هذا الرأي هـو : اذا كان ابن المعتز يهدف الى هذه الغاية من تأليف كتابه فلمّ لم يذكر ذلـك في مقدمته ؟ وهل كان مضطرا الى ان يثبت في أكثر من موضع مـن كتابه ما يناقض هذا تمامـاً ؟ وهـل كـان مـضطراً الـى سـلوك " الباب الخلفي " لنصرة المحدثين وهو ابن الخليفة وصاحب الـصوت المسموع ؟ وهل يعقل أن يجاهر برأيه في نصرة الشعر المحدث مـن هو أدنى منه منزلة وجاهاً ولا يستطيع هو ذلك ؟ .

إننا نعتقد أن هذه الآراء ــ على وجاهتها ــ لا تصلح ان تكون تفسيرا مقنعا لما حدث ، وان هذه الآراء جميعا لم تتنبه علـى حقيقـة مهمة بارزة في حياة ابن المعتز ومؤلفاته ربما كانت هي الـسبب وراء تأليفه كتاب " البديع " هذه الحقيقة هي موقف ابن المعتز مـن الـشاعر ابي تمام الذي عُدّ زعيم مدرسة البديع ... فموقف ابن المعتـز مـن " البديع " والمحدثين عموماً انما هو في حقيقته موقف من أبي تمام .

لقد كان القرن الثالث للهجرة ــ لا سيما النصف الأول منـه ــ قرن أبي تمام بلا منازع ، ومذهب البديع الذي ورثه من بشار ومـسلم وأبي نواس وابي العتاهية ، ثم عقدت له زعامته ، كان قطب الرحـى الذي تدور حوله كل النقاشات الأدبية قبولاً او رفضا وما كان للحـديث عن ابي تمام ومذهبه الشعري وزعامته لمدرسة البديع لينتهي بوفاتـه التي كانت بحدود سنة (٢٣١هـ) بل تعاظم الصراع واشتد بعد وفاته لا سيما بعد بروز البحتري شاعرا خالف في نهجه الشعري نهج استاذه أبي تمام الأمر الذي دفع مناوئي ابي تمام الى اتخاذه زعيما لمدرسـة المطبوعين او الملتزمين بعمود الشعر، وبذلك استحال الـصراع بـين القديم والجديد في الشعر العربي الذي بدأ منـذ نهايـة القـرن الثـاني

للهجرة ، الى صراع بين انصار ابي تمام وانصار البحتري ، وامتد ليستغرق القرن الرابع بما دفع الآمدي المتوفي سنة (٣٧١هـ) الى تأليف كتابه " الموازنة بين أبي تمام والبحتري " .

في هذا القرن الذي تربع عرش الشعر فيه ابو تمام زعيماً لمدرسة البديع بلا منازع ، تبرز موهبة شعرية شابة ما تزال تتلمس خطاها باقتفاء اثر هذا الشاعر وانتهاج نهجه في البديع ذلك هو عبد الله بن المعتز المولود سنة (٢٤٧هـ) ... ولأنه شاعر محدث ، ولان الجو الأدبي الذي خلقه أبو تمام جو مشبع بذكر البديع واللهج به ، ولأنه كان الأقرب إلى روح العصر ، أحسَّ الشاعر الشاب ان ارتقاء سلم الشهرة في الشعر لا يكون إلاّ بركوب البديع ... فسلك طريقه ، ولكنه اكتشف بعد ذلك أنه مهما جد واجتهد في هذا الباب ، ومهما أوتي من موهبة شعرية وقدرة على استخدام البديع ، فانه لن يستطيع ان يزحزح أبا تمام عن عرشه الذي اعتلاه منذ ما يزيد على نصف قرن ، ولأنه لا يستطيع ان يخالف طبعه الشعري فيسير على خطى المطبوعين من الشعراء ليبرز • بعد ذلك البحتري ... وبفورة الشباب واندفاعته[١٢] ، وككل أولئك الذين يتعجلون الشهرة بمناطحة الكبار ، ومحاولة الخروج على ما اجمع الناس عليه ، فليس أسهل على ابن المعتز ــ كما فعل غيره[١٣] من ان يهاجم أبا تمام ... لقد كان أبو تمام شاعر البديع في عصره ، بل هو زعيم هذا المذهب الشعري ، وخير من تجسدت سمات هذا الفن

---

[١٢] ألف ابن المعتز المولود سنة (٢٤٧هـ) كتابه سنة (٢٧٤هـ) وهذا يعني انه كان يومذاك في السابعة والعشرين من العمر .

[١٣] ينظر : أخبار أبي تمام حول من عاب أبا تمام طمعا في النباهة والشهرة ص ٢٨ .

الشعري عنده ... فكان لابد لابن المعتز من ان يطعن أبــا تمــام فــي صميم ما لفت الأنظار إليه وتميز به ألا وهو " البديع " ... وما دامــت شهرة أبي تمام قائمة على أنه صاحب هذا الجديد المبتكــر وإمامــه ، فلا بد من تجريد أبي تمام من هذه الفضيلة وزحزحته عن القمة التــي اعتلاها وذلك لا يكون إلاّ بمحاولة إثبات أن هذا الجديد الذي حمل رايته أبو تمام ليس من ابتكار المحدثين ، وليس هو أو أحــد مــن شــعراء عصره صاحبه ، فقد وجِد في القرآن الكريم وأحاديــث النبــي (ﷺ) والصحابة وفي الشعر العربي قديمه وحديثــه ، فــلا فــضل لهــؤلاء المحدثين فيه ، ولا يحق لهم أن يدعوه ، وكل ما في الأمر انه شاع في أشعارهم حتى عرفوا به ، بل أن أبا تمام قد أسرف فيه إسرافاً أفسد فيه شعره .

ولكي ينتصر ابن المعتز لدعواه ويُثبت للناس ما هــو بــصدده راح يبحث عن البديع في القرآن الكريم والحــديث النبــوي الــشريف وموروث العرب شعره ونثره ، حتى يبين للناس صــدق مــا ذهــب إليه ... فكان كتاب " البديع " .

فتأليف كتاب " البديع " لا يخرج ـ في رأينا ـ عن موقف ابن المعتز من أبي تمام الذي كان يمثل بالنسبة إليه " مــشكلة فنيــة "[١٤] ، وهو ما يعززه كونه أول من ألف رسالة في مهاجمة أبي تمام ســمّاها " رسالة في محاسن أبي تمام ومساويه " وعلى الــرغم مــن العنــوان الموهم للرسالة من أنها ستكون في المحاسن والمساوئ ، بل انه قــدّم المحاسن على المساوئ ، إلاّ ان ما وصل من هذه الرسالة مما احــتفظ

---

[١٤] تاريخ النقد الادبي / د . احسان عباس / ١٢٠ .

به المرزباني في " الموشح " وأبو حيان التوحيدي في " البصائر والذخائر " يوضح أنها كانت حشداً لمساوئ الشاعر ، بل ان مفتتح الرسالة ينبئ بنية ابن المعتز من وراء هذه الرسالة اذ يقول فيها عنه " انه بلغ غايات الإساءة والإحسان "[١٥] ولا شك في ان ترتيب العبارة هنا يخالف عنوان الرسالة اذ قدّم هنا الاساءة على الاحسان ، بل انه افتتح الرسالة ببيت من شعر أبي تمام رآه خير وصف لشعره ... وهو قوله :

إن كانَ وَجَهُكَ لي تترى محاسنُه   فإنَّ فعلَكَ بي تترى مساويه[١٦]

فالبيت شاهد على نية ابن المعتز او ما يريد ان يقوله للناس عن أبي تمام وشعره ، فهو يريد ان يثبت لهم ان شعر أبي تمام وان بدا لهم حسناً جميلاً فإن التدقيق فيه ومعرفة أسراره ستجعلهم يرون ان جوهره يخالف مظهره ... وما دامت الأفعال هي الأهم لا الأقوال .. فان ادعاءَ أبي تمام شيء وحقيقة شعره شيء آخر .

ان من يمعن النظر فيما وصل إلينا من هذه الرسالة سيدرك الموقف المتحامل لابن المعتز من أبي تمام ، فقد راح يتصيد أخطاء أبي تمام مستخدما أقسى العبارات وأشنعها في تجريح أبي تمام والانتقاص منه ، فضلا عن اتهامه بكثرة السرقات ، بل انه ذهب الى أكثر من ذلك وأسرف إسرافاً شديداً في الهجوم عليه وذلك حين اتهمه انه في اختياراته من أشعار السابقين مما عرف بديوان " الحماسة " قد

---

(١٥) الموشح / ٣٠٧ .

(١٦) م ٠ ن ٠

طوى أكثر إحسان الشعراء ، وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره ، وجعل بعضه عدة يرجع إليها في وقت حاجته[١٧] .

ولا نريد ان نطيل الحديث عن هذه الرسالة ، اذ ليست هي موضوع بحثنا ، ولكن تأليفها تأكيد لما قدمنا من موقف ابن المعتز من أبي تمام ، هذا الموقف تعاضدت في توضيحه هذه الرسالة وكتاب " البديع " ... ولكننا حين نقرأ كتابه " طبقات الشعراء المحدثين الذي ألفه بعد تقدم العمر به ، وبعد ان حقق ما يطمح اليه من شهرة ومجد شعريين ، نجد كلاماً على أبي تمام يختلف تماما عما قاله عنه في كتاب " البديع " و " رسالته " إذ يعترف لأبي تمام بجودة الشعر وزعامته لمدرسة البديع وإجادته لهذا الفن الشعري ... وهنا يحق لنا السؤال : هل ان السر وراء تغير موقف ابن المعتز هذا ، هو تغير شعر أبي تمام ؟ هذا محال لأن أبا تمام كان قد توفي قبل ان يولد ابن المعتز بما يقرب من ستة عشر عاماً ... ان الذي تغيّر هو ابن المعتز نفسه ، فبعد ان حقق ما كان يتمناه من شهرة وبعد ان نضجت تجربته الشعرية وهدأت في نفسه فورة الشباب استطاع ان ينظر بعين الأنصاف والموضوعية الى شعر أبي تمام[١٨] .

وإذا ما حاولنا ان ننعم النظر في كتاب " البديع " ونقرأه قراءة نقدية فاحصة تستهدي بالذي قلناه عن موقف ابن المعتز من أبي تمام ،

---

[١٧] الموشح / ٣١٢ .

[١٨] يمكن الاستشهاد على سبيل المقارنة بما قام به د. طه حسين في عشرينيات القرن الماضي حين حقق الشهرة بكتابه المعروف في الشعر الجاهلي " ثم تراجعه عن آرائه في طبعة الكتاب الثانية وتسميته في " الادب الجاهلي "

سنكتشف روح التحامل على ابي تمام التي عمّت الكتاب حتى طبعته بها منهجاً وأسلوباً وغايةً :

١ ــ حين أورد ابن المعتز أسماء الشعراء الذين سبقوا الى البديع ذكر بشاراً ومسلماً وأبا نواس ... ثم أردف ذلك بالقول : ومن تقيلهم وسلك سبيلهم[١٩] " فلم يصرح باسم ابي تمام ، وكأنه اراد بذلك ان يبعد عن أذهان الناس انه من السابقين الى البديع ، ولكنه بعد ذلك مباشرة وحين أراد الإشارة الى من أفسد الشعر بكثرة البديع صرحّ باسم أبي تمام ، وكأنه أراد ان يحمّله وحده جريرة إفساد الشعر بالإغراق بالبديع .

٢ ــ نقل ابن المعتز في مقدمة الكتاب عن بعض العلماء تشبيهه أبا تمام بصالح ابن عبد القدوس ، حيث أطرى ابن المعتز هذه المقارنة ورآها " أعدل كلام سمعته في هذا المعنى "[٢٠] ، ومع أننا نشك في وجود هذا " البعض " الذي لم يصرح ابن المعتز باسمه ، كما أننا لم نقرأ مثل هذا التشبيه في غير كتاب البديع ، بما يجعلنا نرجح ان هذا البعض إنما هو ابن المعتز نفسه ، نقول على الرغم مما يحيط الموضوع برمته من شك فإننا نرى ان تشبيه أبي تمام بصالح بن عبد القدوس ظلم كبير لأبي تمام وشعره ومحاولة مفضوحة للانتقاص منه ، اذ لا يعدو ان يكون صالح بن عبد القدوس صاحب منظومات أخلاقية وتربوية .

---

(١٩) البديع / ١ .

(٢٠) البديع / ٢ .

٣ ــ اختار ابن المعتز في القسم الأول من كتاب " البديع " خمسة وجوه بديعية فقط ــ وهي الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامي ، واكتفى بها ممثلة لفن البديع . وهو ما أكده بقوله " قد قدمنا ابواب البديع الخمسة وكمل عندنا "[٢١] وحين ندقق النظر في هذه الفنون البديعية الخمسة نجد انها الفنون الخمسة التي شُهر بها أبو تمام ، بل ان ترتيبها في الكتاب موافق جداً لترتيب شيوعها في شعر أبي تمام ، فأكثر ما شهر به أبو تمام واخُذ به هو غرابة استعاراته ثم إكثاره من الجناس والطباق ورد الإعجاز على الصدور والمذهب الكلامي ، فهي وان لم تكن ممثلة لفنون البديع بعامة ، فإنها ممثلة لفنون البديع في شعر أبي تمام .

٤ ــ لم يسم ابن المعتز أبا تمام بكنيته إلا نادراً ، وكان دائم الإشارة إليه باللقب بقوله " وقال الطائي "[٢٢] وهي إشارة واضحة لما يضمره ابن المعتز في نفسه لأبي تمام ، فقد دأب العرب على التخاطب بالكنية للتكريم . أما اللقب فيحتمل الإساءة .

٥ ــ في الباب الأول من أبواب البديع وهو الاستعارة ، بدأ ابن المعتز التمثيل للمعيب منها باستعارات أبي تمام مع أنه كان بصدد الحديث عن الجيد من استعاراته ، وكأنه أراد بذلك ان يذكر

---

[٢١] م . ن / ٥٧ .

[٢٢] البديع / ٢١ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦١ .

قارئه بالفاسد من استعارات أبي تمام قبل ان يعجب بالجيد منها[٢٣] .

٦ ــ في الباب الثاني من أبواب البديع وهو التجنيس ــ وكما في باب الاستعارة ــ بدأه ابن المعتز بذكر ما ورد منه في القرآن الكريم ، ثم في أحاديث الرسول (ﷺ) وهنا ينتقل ابن المعتز بشكل مفاجئ ومخالف لمنهجه في العرض فيذكر بيتاً لأبي تمام ويتبعه بالقول : " وسرقة من قول النبي (ﷺ) الذي تقدم[٢٤] وعلى الرغم من ان الأخذ من القرآن الكريم او الحديث النبوي الشريف لا يعد سرقة لشهرتهما ، الا ان استخدام مصطلح " السرقه " يعد فضحاً لما في نفسه تجاه أبي تمام يُؤكد ذلك انه لم يستخدم مصطلح " السرقة " مع غير أبي تمام مع أنه أشار الى اخذ الشعراء من بعضهم وسماه " أخذاً "[٢٥]

٧ ــ في القسم الثاني من الكتاب الذي ضمَّ ثلاثة عشر فناً بديعاً سمّاها " محاسن الكلام والشعر " لم يستشهد لهذه الفنون الكثيرة بشيء من شعر أبي تمام الا في ثلاثة مواضع هي : الآلتفات[٢٦] وحسن الخروج[٢٧] وحسن الابتداء[٢٨] ، ذلك انه لم يذكر في هذا القسم المعيب من هذه الأبواب بل اكتفى بالتمثيل للجيد منها

---

(٢٣) م . ن / ٢٢ ــ ٢٣ .

(٢٤) م . ن / ٢٦ .

(٢٥) البديع / ٢٧ .

(٢٦) م . ن / ٥٩ .

(٢٧) م . ن / ٦١ .

(٢٨) م . ن / ٧٦ .

فحسب ، وهو تأكيد لما قلناه في الاســتنتاج الثالــث الــسابق الذكر ، كما انه على كثرة استشهاداته في باب " حسن التشبيه " بأشعار المحدثين لم يستشهد ببيت واحد لأبي تمام وكأنـــه أراد بذلك ان يبعده عن الفن الذي أجاده هو ــ ابن المعتز ــ فيؤكد بذلك تفوقه على أبي تمام .

المصادر والمراجـــع

١ ـ أخبار أبي تمام تأليف أبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، حققه وعلق عليه خليل محمد عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي / بيروت .

٢ ـ البديع لعبد الله بن المعتز ، نشر وتعليق اغناطوس كراتشوفسكي عضو أكاديمية العلوم في لينينغراد ١٩٣٥ .

٣ ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب ـ نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري د . إحسان عباس ـ الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م دار الثقافة ـ بيروت .

٤ ـ تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري د . محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٤ م.

٥ ـ حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، لأبي علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي ، تحقيق د. جعفر الكناني ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ١٩٧٩ م .

٦ ـ مقالات في تاريخ النقد العربي / د . داود سلوم ، دار الرشيد ـ وزارة الثقافة والإعلام العراقية ١٩٨١ م .

٧ ـ الموشح ، مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني أبي عبد الله محمد بن عمران ابن موسى المرزباني ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار النهضة مصر ١٩٦٥ م .

الوصية .. عند العرب قبل الاسلام

الأستاذ الدكتور

حمدان عبد المجيد الكبيسي

كلية الآداب / جامعة بغداد

الملخص :

احتلت الوصية جانباً مهماً من اهتمامات العرب قبل الإسلام ، لا سيما عند الملوك ورؤساء القبائل و الأفخاذ و البطون ، وحتى عامة الناس .

ذلك إن هؤلاء كانوا يوصون أبناءهم وإخوانهم و أفراد قبائلهم خلاصة تجاربهم وخبراتهم المتراكمة ، فكانوا يتحينون المناسبات الخاصة و العامة فيوصون عن ما يريدون أن يوصوه بشتى أمور الحياة وستركز هذه الدراسة على وصايا الملوك و الأمراء ورؤساء القبائل التي تتصف بالواقعية وتستمد معانيها من الحياة اليومية .

المقدمة :

احتلت الوصية جانباً مهماً من اهتمامات العرب قبل الاسلام ، لاسيما عند الملوك ورؤساء القبائل والعشائر ورؤساء الافخاذ والبطون ، وحتى عامة الناس ، ذلك ان هؤلاء كانوا يوصون ابناءهم واخوانهم وافراد قبائلهم خلاصة تجاربهم وخبراتهم المتراكمة ، فكانوا يتحينون المناسبات الخاصة والعامة فيوصون من يريدون ان يوصوه بشتى امور الحياة ، ذلك ان الوصايا التي سنستعرضها سنجد انها تتناول جوانب متعددة واغراضاً متنوعة من الكرم والسخاء والشجاعة والنجدة ، والحلم والصبر والبيان والحلم ، وإخبار وثقت حوادث

تاريخية كثيرة ، وستتركز هذه الدراسة على وصايا الملوك والامــراء ورؤساء القبائل لابنائهم ، ذلك ان هؤلاء كانوا يعدون الوصــية امــرا ضروريأومكملاً ، وربما خاتمة لمهماتهم التي كانوا يطلعــون بهــا ، الابوية ، والسياسية والاجتماعية ، والقتالية (الحربية) والاقصادية .

الوصية لغة واصطلاحاً :

سمية الوصية ، وصية : لاتصالها بــأمر الميــت[١] ، وتعنــي الوصية ايضاً (العهد) فيقال وصيته ، اي عهدت اليه القيــام بــالامر بعدي[٢] ، والتصرف فيه بعد الموت[٣] . وأوصى الرجل ووصاه : اي عهد اليه[٤] ، ومنه اشتق العهد الذي يكتبه للولاة .[٥]

---

[١] الازهري ، محمد بن احمد (ت ٣٧٠هــ) تهذيب اللغة (القــاهرة ، الــدار المصرية التأليف ١٩٦٧) مادة (وصى) .
ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هــ) ، لســان العــرب ، (بيروت ، دار صادر ودار بيروت ١٩٥٦) مادة و (وصى) .

[٢] الفراهيدي ، الخليل بن احمد (ت١٧٥هــــ) ، العــين ، (بغــداد ، مطبعــة العاني ، ١٩٦٧) ، مادة (عهد) .
الزمخشري ، ابو القاسم محمد بن عمر (ت٥٣٨هــ) ، اســاس البلاغــة ، (القاهرة ، مطابع الشعب ، ١٩٦٠) ، مادة (عهد) .
أبن منظور ، لسان العرب ، مادة (وصى) .

[٣] ابن قدامة ، موفق الدين ابو محمد عبد الله بن احمد (ت٦٢٠هــ) ، المغنــي في فقد الامام احمد بن حنبل ، (بيروت ، دار الكتــاب العربــي ، ١٩٨٣) ، ج٦ ، ص٤١٤ .

[٤] ابن منظور ، لسان العرب ، ج١٥ ، ص٣٩٤ (مادة وصى) .

[٥] الجوهري ، اسماعيل بن حماد (ت٣٩٨هــ) ، الصحاح ، (بيــروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٧) ، ج٢ ، ص٥١٥ .

وقد وردت كلمة (وصية) ومشتقاتها مرات عديدة في القرآن الكريم[٦] وفسرها العلماء والفقهاء بمعانيها ومدلولاتها الشرعية .[٧]

وحرص العرب قبل الاسلام ان يركزوا وصاياهم على الخصال الحميدة التي لا تكاد تخلو اية وصية منها ، ذلك ان الاباء كانوا حريصين كل الحرص في الاحتفاظ بالسيادة في اهل بيتهم ، وانهم تلمسوا ان لا سبيل الى الاحتفاظ بالزعامة والامساك بها الا بالتحلي بهذه الصفات التي كانوا يؤكدون عليها في وصاياهم ، ويأتي في مقدمتها الشجاعة والكرم والسخاء ، والحلم والصبر والنجدة والبيان .

وكان عبد الملك بن قريب الاصمعي (ت٢١٧هـ) قد استجاب لطلب الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ـ١٩٣هـ) فرأى استفراغ المجهود في قلة ما وصل اليه من وصايا الملوك والامراء ، فاتعب ركبه يجوب البوادي ، ويتصل بالقبائل مستقصيا بها رواة الاخبار ، وحفظة تواريخ

---

(٦) ينظر : سورة البقرة ، اية ١٣٢ و ١٨٠ و ٢٤٠ ، وسورة النساء ، اية ١١ و ١١٢ ، وسورة المائدة ، اية١٠٦ ، وسورة الشورى ، اية ١٣ ، وسورة الانعام ، اية ١٤٤ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ .

(٧) الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، (بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٨) ، ج٥ ، ص٣١٨ ، و ج٨ ، ص٨١ و ٨٤ .

ابن كثير ، ابو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي (ت٧٧٤هـ) ، تفسير القرآن العظيم ، (القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، بلا) ، ج١ ، ص١٨٤ و ١٨٥ .

الاشقر ، محمد سليمان ، زبدة التفسير من فتح القدير ، (الكويت ، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، ١٩٨٥ ، ص٣٤ و ٢٠٩ و ٢١٢ .

وحوادث ما مضى من العصور السالفة ، فدون كل ما وصله من النسابين والرجال المعمرين الذين ، رووا له وصايا الاجداد السابقين ، فجمع ما بلغه من اخبار ملوك العرب ووصاياهم واشعارهم وخطبهم ونصائحهم الى ذويهم والمقربين منهم ، مضمنين اياها وصاياهم التي تؤكد ان هؤلاء الاجداد نظروا في امرهم ورأو انهم لابد ان يملكوا امرهم شريفاً لا يجدون من طاعته بداً ، فملكوا قحطان بن هود النبي[٨] عليه السلام ، وهو اول نبي مرسل بعد نوح عليه السلام .

وكان قحطان بن هود النبي قد وصى بنيه وصية جامعة لكل جوانب حياتهم،حيث ذكرهم بما حل بقوم عاد وثمود لانهم عتو على

---

[٨] هو قحطان بن هود بن عابر بن شالخ بن آرفخشد بن سام بن نوح :

(ينظر : الاصمعي ، عبد الملك بن قريب (ت٢١٧هـ) ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، (بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٥٩) ، ص٤ .

ابو حنيفة الدينوري ، احمد بن داود (ت٢٨٢هـ) ، الاخبار الطوال ، (القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٠) ، ص٩ .

الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، (القاهرة ، مطابع دار المعارف ، ١٩٦٦) ، ج١ ، ص٦٦ ، و جامع البيان ، ج٢ ، ص٣٦ .

ابن عبد ربه ، احمد بن محمد (ت٣٢٨هـ) ، العقد الفريد ، (القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٢) ، ص ، ص٥٧ .

المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، (بيروت ، دار الاندلس ، ١٩٦٥) ، ج١ ، ص٣٧٩ .

النويري ، احمد بن عبد الوهاب (ت٣٣٤هـ) ، نهاية الارب ، (القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، بلا) ، ج٢ ، ص٢٧٣ .

ربهم ، واتخذوا الهة يعبدونها من دونه ، وعصوا امـــر نبـــيهم هـــود عليه السلام .[٩]

الحث على التسمك بوحدة القبيلة :

سبق ان قلنا ان اقدم وصية وصلتنا هي ما اوصى قحطان بـــن هود النبي عليه السلام بنيه ، ومن المؤكد انه كان يتحـــرى مـــن وراء وصيته هذه مصلحة اسرته التي من خلالها تتحقق اصالة غاية القبيلـــة والتمسك باهدافها الانية والمستقبلية ، والنأي عن كل ما من شـــأنه ان يضعف تماسكها ووحدتها ، فقال يخاطب بنيه : ((... وأوصيكم بـــذي الرحم ، وأياكم والحسد ، فانه داعية القطيعة فيما بينكم ...)) .[١٠]

ويبدو ان قحطان بن هود النبي عليه السلام قد صـــادف فـــي وصيته الرمية ، واصاب الهدف ، واستوفى المســـائل ومضـــمونها ، وشخص ما قد يعترض القبيلة من العوارض الذاتية والخارجية ، ومـــا يحيط بها من الكوامن واسبابها ، واوضح الادلة التي من شأنها ان تضع المُوصي في حرز امين كي يستطيع ان ينفذ مضمون الوصـــية بكـــل جوانبها ، ويسهل عليه الامر في قيادة القبيلـــة ، فعـــين خليفتـــه ابنـــه يعرب ، فقال : ((واخوكم يعرب اميني عليكم وخليفتي بينكم ، فاسمعوا لـــه واطيعـــوا ، واحفظـــوا وصـــيتي واعملـــوا بهـــا ، واثبتـــوا عليها ترشدوا)) .[١١]

ولم ينس قحطان بن هود ان يلتفت الى الموصـــى لـــه يـــذكره بمسؤلياته الدينية والاسرية والاجتماعية ، واحترام افراد القبيلة ، وعدم

---

(٩) الاصمعي ، تاريخ العرب ، ص٦ .

(١٠) الاصمعي ، تاريخ العرب ، ص٦ .

(١١) م.ن .

الاستخفاف بارائهم ومشاعرهم ومصالحهم الخاصة والعامة ، علـــى ان يستوي عنده ميزان التعادلية بـــين افــراد القبيلـــة ، وان يـــوائم بـــين الالتزامات والواجبات عندما يمارس مهامه كقائد لهؤلاء الناس فقال :

أبا يشجب[١٢]أنتَ المرجى وأنتَ لي	امينٌ على سري وجهريَ حافظُ
عليك بديـــن لســـتَ تنكر فضلـــهُ	فقد سبقت فيه اليكَ المواعـــظُ
وواصل ذوي القربى وحطْهُم فانهم	ملاذكَ إن حامتْ عليكَ البواهظُ
ولفظكَ عوّنـــه باحســـن منطـــقٍ	فانك مرهون بمـــا أنْتَ لافـــظُ
وكن كاظمـــاً للغيظ في كل ندوةٍ	اذا استجحظت تلك العيون الجواحظُ
تيقظ من الاعداء ســـراً وجهـــرةً	بحلمكَ وانتك النفوس القوابـــظُ
وماســـادَ مَنْ قد ساد إلا بحلمـــــه	اذا لم يرحظه من البخل لاحظُ
فكن راجحاً محض الشمائل ماجداً	حفياً حمياً انني لك واعـــظ[١٣]

وذكر الاصمعي (ت٢١٧هــ) أن يعرب بن قحطان قد حفـــظ وصية أبيه وثبت عليها ، وعمل بها . ويلوح الباحث أن يعـــرب بـــن قحطان كان وفياً لمضمون وصية والده ، لقناعته التامة بجدواها ، ونيل أهدافها ومبادئها التي كانت حاضرة بوضوح كخلفيـــة زاهيـــة لونـــت ماضي القبيلة بمواقف إنسانية مميزة ، وصاغت أسلوب حياتهـــا فـــي التعاطي مع الآخرين . ومما يؤيد ذلك أن الأصمعي قال للخليفة هارون الرشيد : ((وبلغني يا أمير المؤمنين ان يعرب بن قحطان حفظ وصية ابيه ، وثبت عليها وعمل بها)) .[١٤]

---

[١٢] يقصد ابنه يعرب .

[١٣] الاصمعي ، تاريخ العرب ، ص٦ـ٧ .

[١٤] م.ن ، ص٧ .

وبلا ريب فان الشمولية والموضوعية التي تناولتها وصية قحطان بن هود النبي عليه السلام جعلت كثيراً من الوصايا الاخرى تسير مقتفية اثرها اتفاقا واخلاقا ، مطمئنة الى صدق كاتبها .

وما يصح القول عن وصية قحطان بن هود التي تناولناها تواً يكاد ينطبق على ما جاء في وصية يعرب بن قحطان الذي اتيحت له الاشارة والتاكيد على النهج الصائب الذي اراد ان يسلكه ابناؤه ، ذلك ان يعرب بن قحطان رأي انه لا محيد من تكاتف الاخوة وتآزرهم ، لأن واقع المجتمع القبلي هو أسير هذه الظاهرة التي افرزتها الحياة اليومية المعاشة ، التي كانت تعطي مزيداً من صور التناحر والاقتتال ، فقال : ((يا بني احفظوا مني خصالا عشرا ، تكن لكم ذكراً وذخراً ، يا بني تعلموا العلم واعملوا به ، واتركوا الحسد عنكم ولا تلتفتوا اليه ، فانه داعية القطيعة فيما بينكم ، وتجنبوا الشر واهله ، فان الشر لا يجلب عليكم الا الشر ، وانصفو الناس من انفسكم ، لينصفوكم من انفسهم ، واياكم والكبرياء فانها تبعد قلوب الرجل عنكم ، وعليكم بالتواضع ، فانه يقربكم من الناس ويحببكم اليهم ، واصفحوا عن المسيء اليكم ، فان الصفح عن المسيء يحسم العداوة ، ويزيد من السؤدد سؤدداً ، ومع الفضل فضلا ، والجار الدخيل على انفسكم فلن يسوء حاله ، ولئن يسوء حال احدكم خير له من ان يسوء حال جاره ، لان تفقد الناس المُقْتَدَى اكثر من تفقدهم المُقْتَدِي ، وانصروا المولى ، فان مولاكم في السلم والحرب منكم ولكم ، وابن مولاكم من انفسكم ، وحقه عليكم مثل حق احدكم على سائركم ، واذا استشاركم مستشير فاشيروا عليه بما تشيرون به على انفسكم في مثل ما استشاركم فيه ، فانها امانة القاها في اعناقكم ، والامانة ما قد علمتم وتمسكوا في اصطناع الرجل أجدر ان

تسودوا به غيركم واحرى ان يزيدكم ذلك شرفاً وفخراً الى اخر الدهر)) .[١٥]

ويلوح للباحث ان يعرب بن قحطان لم يؤكد في صويته على ضرورة بقاء الزعامة بيد ابنائه ، والتوجه نحو مصلحة الاسرة والانهماك في مصالحها الضيقة حسب ، لانه وجد ان ذلك يشكل خسارة فادحة للاسرة والقبيلة معاً ، وذلك لان مثل هذا التوجه يفقد الاسرة حضورها الجسدي والذهني ، فضلا عن فقدان قوة القبيلة وكيانها ، لذا رأى يعرب انه لا يمكن ان يقتصر مضمون وصيته على التركيز في مصلحة الاسرة والابناء ، وانما عليه ان ياخذ بنظر الاعتبار مصلحة القبيلة وتنامي قوتها ومنعتها ، وتنوع ما تقدمه من مواقف بطولية تذود بها عن كيان القبيلة ومصالحها الحيوية ، فاكد على حماية الجار والدخيل ، فقال : ((ولئن يسوء حال احدكم خير له من ان يسوء حال جاره))[١٦] ، كما اكد على ضرورة نصرة المولى ، لأن المولى جزء من كيان القبيلة في حالتي السلم والحرب .

ويؤكد الاصمعي (ت٢١٧هـ) ان يشجب بن يعرب ثبت على وصية ابيه دون غيره من سائر اخوته وعشيرته ، فساد الجميع بثباته على تلك الوصية والالتزام بها ، وحفظه ايالها وعمله بها ،ويتضح انه كان على قناعة تامة بصوابها ، وادرك ان البناء القويم الذي ارسى قواعده قحطان بن هود النبي عليه السلام على اسس متينة ، اعطى للقبيلة منعة وقوة استطاعت من خلالها كبح ذوي الاطماع والاطماح ،

---

(١٥) الاصمعي ، تاريخ العرب ، ص٩ــ١٠ .

(١٦) م.ن ، ص١٠ .

وبذلك وصى بنيه قال : ((يا بني لم أسد اخوتي وعشيرتي الا بحفظي وصية ابي يعرب بن قحطان ، وبعملي بها ، وثباتي عليها ، وان ابـــي يعرب بن قحطان لم يسد اخوته وعشيرته الا بحفظ وصية قحطان بـــن هود ، وبعمله بها ، وثباته عليه ، وان جدي قحطان بن هود لـــم يســـد قومه واخوته الا بحفظ وصية ابيه هود ، وعمله بها ، وثباتـــه عليهـــا فأقيموا على ما وجدتموني عليه ، وهو الذي انهيته اليكم كلاماً وشـــعراً مما وصاني به ابي ، وقد حفظتم الكلَّ فاثبوا عليه واعملوا بـــه ، والله خليفتي عليكم ، ثم الرشد المهدي[١٧] منكم))[١٨] ، ثم قال :

اوصى النبي ابنه قحطان جدي كما ... وصي بنيه ابي من بعد قحطان
علمٌ حواه ابـــي مـــن دون اخوتـــه ... وُحزتُهُ بعده من دون اخوانـــي
وزادني يعـــربٌ من عنـــده شيمـــاً ... وصى بنيه بها يوماً ووصانـــي
حفظتها حينما غيري استهانَ بهـــا ... وحفظها اخر الايام من شأنـــي
أعبدَ شمسٍ ابيت اللعـــن من خلفٍ ... هل أنت بعدي في ملك لنا ثاني؟
هل انتَ تحفظ مني ما حفظتُ وما ... به بنيتُ لكم ملكي وسلطانـــي
بلى رايتـــكَ هشـــاً ماجـــداً فطنـــاً ... وقد اخالك طباً غير علاني[١٩]

---

[١٧] يقصد انه اوصى بالزعامة من بعده الى ابنه (عبد شمس) ، وهو ســـبأ بـــن يستجب بن يعرب بن قحطان بن هود (الاصمعي ، تاريخ العرب ، ص١٣) ، في حين قال اليعقوبي (ت٢٩٢هـــ) ، ان سبأ هو ابن يعرب بن قحطـــان ، وهو اول من ملك من العرب (تاريخ اليعقوبي ، (النجف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٤) ج١ ، ص١٦٨ .

[١٨] الاصمعي ، تاريخ العرب ، ص١١ـــ١٢ .

[١٩] م.ن ، ص١٢ .

وبذلك يتضح ان يشجب بن يعرب قد تحدث باسهاب ووضوح في وصيته ، كما دون فيها كل ما يحلو له من الثناء الجزيل والاطراء الواسع على وصايا ابيه واجداده ، وهو ينزه مديحه الغزير بما حققته سياسة والده في تحري الصدق ، ونبل الغاية ، والبعد عن المصالح الذاتية ، ونشدان مصلحة الجماعة ووضع مؤشرات واضحة وشاخصة امام ابنائه وبقية افراد القبيلة متخذاً من ابيه مثلا حياً ، فرسم صورة مشرقة يقتدى بها ، ثم اخذ يشجب يخاطب خليفته وجماعة القبيلة ، محاولا شد ازر القبيلة ، وتفاعل رجالها وتعاضدهم .

ومرة اخرى ذكر الاصمعي ان سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان قد ثبت على وصية ابيه (يشجب بن يعرب) ، وحفظها وعمل بها ، فساد اخوته واهل بيته وقبيلته ، بحيث أنه اصبح ملك الجميع وعمادهم ، وانه برز من سبقه من ملوك العرب في شجاعته واتقانه فنون القتال والتصدي لاعدائه ، فكانت وصيته شاملة ومتوازنة ، ففتحت اسارير فرسان القبيلة للجهر في امتشاق الحسام والذود عن حمى القبيلة والتصدي بشجاعة لاعدائها الطامعين ، وبذلك قال الاصمعي(٢٠) (ت٢١٧هـ)، : أنه أول من سبا واسر الاعادي، فلذلك سمي عبد شمس

---

(٢٠) م.ن ، ص١٣ .

(سبأ)[٢١] ، وهو ابو حمير وكهلان[٢٢]، قال اليعقوبي (ت٢٩٢هـ) : أن اسم سبأ (عبد شمس) ، وقد سمي بهذا الاسم لأنه اول من ملك من ملوك العرب ، وسار في الارض وسبا السبايا[٢٣] ، في حين قال الاصمعي (ت٢١٧هـ) : ان سبأ اغار على بابل بالخيل والرجال فسيطر عليها واخذ الأتاوة من سكانها ، وضرب بالخيل والرجال في الارض ، فكان لا يذكر له بلداً الا قصده وفرض سيطرته عليه ، وبذلك قال الاصمعي : انه اول من فتح البلاد واخذ الاتاوة من اهلها[٢٤] ، فقال الشاعر في حقه :

لقد ملك الأفاق من حيث شرقها	الى الغرب منها عبد الشمس بن يشجبِ
له ملك قحطان بن هود وراثة	عن اسلاف صدق من جدودٍ ومن أبِ
فما مثل قحطان السماحة والندى	ولا كابنه ربٌّ الفصاحة يعربِ
ولا كالمصفىً عبد شمس بن يشجب	اذا ... الناس من خير مطلبِ

---

[٢١] ينظر الحميري ، نشوان ، شمس العلوم ، (ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٥١) ، ص٤٥ و ٥٧ . ابن كثير ، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ) ، البداية والنهاية في التاريخ ، (بيروت ، دار الفكر ، بلا) ، ج٢، ص١٥٨ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، (بيروت ، دار الكتاب ، ١٩٥٦) ، ج٢ ، ص١٠٨٧ .

جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، (بغداد ، المجمع العلمي ، ١٩٥١) ، ج١ ، ص٢٨٤ ــ ٢٨٥ .

[٢٢] الاصمعي ، تاريخ العرب ، ص١٣ .

[٢٣] اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج١، ص١٦٨ .

[٢٤] الاصمعي ، تاريخ العرب ، ص١٣ .

سما بالجياد الا عوجية والقنـــا إلى بابلٍ في مقنبٍ بعــد مقنـــبِ
فآب بابكـــارٍ وعـــونٍ اوانـــسِ مع الخرج منها في الخميس المدرب
ورعَّل فيها الخيل شرقا ومغربا فمشرقها حازت له بعدَ مغربِ[٢٥]

ولكي يستكمل سبأ (عبد شمس) بن يشجب بن يعرب الجوانب النظرية والعملية في وصيته ، كان يحاور ويصحح ، ويقارن وينتقي ، ثم يؤكد باصرار على الذي يوصيه ، ان يتأمل الاحداث الشائكة التـــي تمر بها القبيلة فيحمصها ليخرج بها في احسن وجه ، وهو والحال هذه يريد ان يعطي دليلاً عمليا لحالة حاسمة في زعامة القبيلة ؛ فكان يعمد الى جميع اهل مملكته ، ووجوه اهل بيته وعشيرته ويوعز الـــى ابنـــه (حمير) ان يجلس عن يمينه ، في حين يأمر ابنه الاخر (كهلان) ان يجلس عن شماله ، ثم اشعر الحاضرين انه لا يصح ليمينـــه ان تقطـــع شماله ، ولا يصح لشماله ان تقطع يمينه ، وبين لهم ضرورة ان يمنعوا يمينه ان همت بشماله ، ويمنعوا شماله ان همت يمينه ، وقـــد اعطـــوه العهد والمواثيق على ذلك ، ثم قال لهم : ((اني لم ارد بميني وشـــمال الا حمير وكهلان ، واني لم آمن ان يختلفا بعدي في الامر ، ولم اخـــذ العهود والمواثيق عليكم الا لتحولوا بعدي بين من يـــروم مـــن هـــذين لصاحبه سوءاً او خلافاً ، وان لا يطلب احـــدهما بعـــدي اكثـــر ممـــا يقسم له))[٢٦] وبين لهم ان ابنه الاكبر (حمير) يمينه ، وابنه الاصغر (كهلان) يساره ، وان نصيب حمير من ملكه مثل نصيب يمينه مـــن بدنه ، وان نصيب كهلان من ملكه مثل نصيب شماله من بدنـــه ، ثـــم

---

[٢٥] م.ن ، ص١٣ــ١٤ .

[٢٦] م.ن ، ص١٣ــ١٤ .

طلب عن القوم ان يدفعوا لليمين ما يصلح له ، وان يدفعوا للشمال ما يصلح له . فدفعوا الى اليمين السيف والقلم والسوط ، على اساس ان هذه الاشياء الثلاثة تعمل بها اليمين ، ثم دفعوا الى الشمال : العيس والترس والقوس ، وقالوا هذه ثلاثة اشياء تعمل بها الشمال ، وانه لابد للشمال من معونة اليمين :[٢٧]

وازاء ذلك قلد سبأ ابنه حمير الملك وسلمه اليه ، وسمي (ايمنا) لجلوسه الى يمين ابيه ، وقلد ابنه الاخر كهلان ، الاطراف والثغور واعمالها وحروبها ومناواة العدو حيث كان ، على ان يحصل كهلان على دعم حمير واسعافه بالمال والنجدة وفي ذلك قول الشاعر :

ما ساد هذا الورى ابناء قحطان ... الا لفضل لهم قدماً واحسان

ما في الانام لهم حي يشاكلهم ... ولا لواحدهم في الارض من ثاني

لم يشهد الناس في بدوٍ ولا حضرٍ ... حكماً كحكم عظيم الملك والتنساني

سبابن يشجب لا بنيه وانهما ... ليسدانا رفيقانا العظيمانِ

اعطى ابنه حميراً منه اليمين وقد ... اعطى الشمال ابنه المسمى بكهلانِ

وقال : يُقْسم ملكي اليوم بينهما ... وقسمه المال للابنين سهمانِ

تُعطى اليمين الذي حطوا اليمين به ... فيما يعانيه من سر واعلانِ

وللشمال الذي تسطو الشمال به ... عند النوائب من بأسٍ وسلطانِ

فالسيف والسوط صارا لليمين معاً ... وذلك القلم الجاري بترصانِ

والترس والقوس صارا للشمال وقد ... صار العنان لها فالمال نصفانِ

فصار ذلك بتاج الملك معتصماً ... دون الجحاجح من اولاد قحطانِ

وصارت الخيل تحمي الارض قاطبة ... ومَنْ عليها لهذا الاخر الثاني[٢٨]

---

(٢٧) م.ن .

(٢٨) م . ن ، ص١٦ ــ ١٧ .

وكان الأصمعي قد اخبر الخليفة هارون الرشيد أن حمير وكهلان لم يزالا على ذلك الوئام وكذلك أولادهما وأولاد أولادهما : لحمير على كهلان الطاعة ، ولكهلان على حمير المال والنجدة[٢٩] .

وتميزت وصية حمير بأنه وجهها الى جميع أولاده الاثني عشر رجلا وأكد فيها على أهمية زعيم القبيلة ، وحدد سلطته الواجب توسعها بازاء الفعل الاجتماعي والسياسي والحربي ، اذ قال بهذا الصدد موصيا بنيه : يابني ، ما اجتمع اثنان متآزران متعاضدان على أربعة او خمسة من أشتات الناس الا غلباها وملكا أمرها وقيادها ، وما اجتمع خمسة نفر متعاضدين متآزرين على عشرة أنفار من أشتات الناس الا غلبوهم وملكوا أمرهم وقيادَهمُ ، وما اجمع عشرة أنفار متعاضدين متآزرين على الجماعة التي تكون مثليهم عددا من أشتات الناس الا غلبوهم وملكوا أمرهم وقيادهم ، وايِّما، عصبة غلبت أربعينَ رجلا يوشك لها ان تغلب الثمانين والمئة وما فوقها، وغلاّب المئة حَرِيُون ان يغلبوا المئتين ، وغلاب المئتين حريُون ان يغلبوا الألف ، ومنتهى العز للفرقة ان لا يطمع فيها ألف رجل ، وما من رجل أطاعه رجل واحد فقام بالمجازات على ذلك إلا أطاعه عشرة ، وما من رجل أطاعه عشرة أنفار لها مجازاتها على طاعتها له ، إلا أطاعه ألف رجل وما من رجلٍ أطاعه ألف رجل الا وقد ساد لا محالة ، ومَنْ ساد فقد ملك، وَمَنْ ملكَ فقد أوتي المنتهي في أمله في دنياه))[٣٠] ، ومن المؤكد ان مثل هذه

---

[٢٩] م . ن ، ص ١٧ (ينظر ابن عبد ربه ، شهاب الدين احمد بن حمد الاندلسي (ت٣٢٨هـ) ، العقد الفريد ، (مصر ، مطبعة العامرة الشرقية ،١٣٠٥هـ)، ج٢ ، ص ٥٧ ــ ٥٩ .

[٣٠] الاصمعي ، تاريخ العرب ، ص ١٧ ــ ١٨ .

المواقف تعطي زعيم القبيلة الثقة في اتساع قاعـدة الإسـناد الجمعـي الواجب توافرها، والتي تعزز مكانة القبيلة، وارتفاع صـدى صـوتها عالياً قوياً .

ولم يستطع (حمير) أن يحبس أفكاره ويوقف سـيل وصـاياه ليستكمل بها كل ما من شأنه أن يرسخ أسـس الزعامـة فـي أولاده ، فمضى يقول في وصيته : ((يـا بني أطيعوا الارشد فالارشد مـنكم ، ولا تعصوا (الهميسع) فانه خليفتي ــ بعد الله ــ عليكم ، واميني فيما بينكم ، وانه لسيفكم وانتم حد ذلك السيف ، وما السنان لولا الرمح ، بل ما الرمح لولا سنانه ، انتم (بالهُمَيْسع) وله والهُمَيْسع بكم ولكم))[٣١]

وكان لذكاء(حمير) وفطنته وحسن سيرته بين قومه ، ان أصبح له اثر صارم طوال زعامته للقبيلة ، فكان يتعامل مع أفراد قبيلته بحكمة وحذر ، وفي الوقت نفسه يعمل من اجل فكرة التوفيق والموازنة بـين مصلحة القبيلة وأطماع الاسرة ، ويعد هذا التوفيق ديناً في عنقه ، يتحتم عليه ادءة بكل ما أوتي من إمكانات وقدرات، لذا أوصى خليفته قائلا :

هُمَيْسع لا تجهل مع الناس سيرتي ... فسر لي بها في الناس بعدي هُميْسعْ
بني بهـم أوصيكَ خيـراً فأنهـم ... تَضرُ بهم مَنْ شئتَ يومـاً وتنفـعُ
وعمك وابن العـم دونك بعـده ... مرد الأعادي الكاشحين ومدفـعُ
هُمْ لك كهفٌ بل هُمْ لك مؤئـل ... وَهُـم لكَ مِنْ دونِ البرية مفـزعُ
وليس عقاب الطير يوماً وان لها ... تـذل وتنقاد البغـات وتخضـعُ
تؤول الى وكر سوى وكرها الذي ... تـؤوب اليـه للمبيـت وترجـعُ
همسيع أن الناسَ وحش وانهـم ... الى الرفق من خمس القوارب اسرعُ

---

[٣١] م . ن ، ص ١٨ .

هميسع دارِ الناسَ تُغْطَ قيادهـــم   فحظكَ منهم ان يطيعـــوا ويسْمعَوا

هميسعَ لا والله إنْ انتَ حاصـــدٌ   طوال الليالي غير مـــا أنتَ تزرعُ

أوصيك بالأقصين مثل وصيتي   باخوتك الدنيا فهل أنْتَ تسمع ؟[٣٢]

ويبدو ان الهميسع شعر ان تعاونه مع أخوته وأفراد قبيلته مـــن شأنه ان يضفي الى منفعة القبيلة وصيانة حقوقها . فالتعاون والتـــآزر يجب ان يؤول الى تثبيت قيادة (هميسع) لأن له المقام الاعلـــى هنـــا كقائد وزعيم ، لذلك قال الاصمعي : ان الهميسع حفظ وصـــية ابيـــه ، وثبت عليها وعمل بها ، واجرى اخوته وقبيلته على ما كـــان اجـــراهم ابوه (حمير) حين ولي الملك من بعده ، وسار فيهم سيرته ، وكـــذلك ابنه (ايمن بن الهميسع)[٣٣] .

والحق ان وصية (حمير) كانت مصدر تحذير صارم لابنائه وافراد قبيلته معا ، والذين تأثروا بمضمون الوصية ، ولـــم يســـمحوا لحالات التجاوز على المقامات والاسماء ان تعكر صفاء الاخوة والنسب لغرض تصفية الحسابات ، او الحصول على مكاسب ذاتية ، كما انهم لم يكتفوا بان يعلنوا ولاءهم ومؤازرتهم (لهميسع) وابنه (ايمن) وانمـــا تعهدوا ان يوصوا ابناءهم واحفادهم (ان تكون جموعهم لأيمـــن مـــا عاشوا وما عاش تبعا)[٣٤] . وبلا ريب فان هذا الموقف يشير الـــى ان ارتباط زعيم القبيلة بعلية القوم ووجهاء القبيلة لم يكن واهيا ، وانما كان عكس ذلك ومما يعـــزز مـــا ذهبنـــا اليـــه ويؤكـــده قـــول الشـــاعر مالك بن حمير :

---

(٣٢) م . ن ، ص ١٨ ــ ١٩ .

(٣٣) م . ن ، ص ١٩ .

(٣٤) م . ن .

نُطيعُ ولا نعصي اخانا الهميسعا　　وأيمنَ ما غنى الحمام وسَجَعا

لقد سادَ املاك البلاد هُمَيْسعٌ　　وما كملت خمساً سنوه واربعا

وأيمن شمناً فيه ما في هميسعٍ　　رأته بنو هود فطيماً ومرضعا

فوالله لا ننفك نجمع شملنا　　على ما عليه الرأي والامر اجمعا

ونوصي بنينا أنْ تكون جموعهم　　لايمن ما عاشوا وماعاش تبعا[٣٥]

والمهم في الأمر ان (أيمن) لما ولي الملك بعد أبيه الهميسع ، سار في الناس سيرة أبيه وجده ، وحفظ جميع ما انتهى اليه من وصايا أبائه وإسلافه التي كانوا يؤكدون عليها ويوصون بها ، ويحفظونها استجابة لسياسة المملكة وصيانة الدولة[٣٦] .

وأدرك (ايمن) بثاقب بصره ان الثوابت في سياسة الدولة يجب ان لا تستند على أمور محاطة بضباب كثيف ، وتوقعات خيالية ، وإنما تستند على مرتكزات واقعية وجوهرية تتحقق من خلالها مصلحة الدولة والمواطنين . وفي ضوء ذلك اوصى بالزعامة لابنه (زهير بن ايمن) الذي يشير الأصمعي ان الغوث بن أيمن قال في حقه :

أبي الملكُ إلا ان يكون وليَّه　　ومالكه بعد الهميسع أيمنُ

وأنَّ يتلقاهُ زهيرٌ وراثة　　وللتبر في مبسوطه الأرض معدنُ

ارى لزهيرٍ اذعن الناسُ كلهم　　كما لأبيه او لجده اذعنوا [٣٧]

وتميزت وصية (زهير) الى ابنه الوحيد (عريب) بكونها شاملة فاكد فيها على ضرورة استحضار وصايا اجداده ، لاسيما سبأ بن يشجب ، ونبهه الى انه كيف كان عادلا في تقسيم ادارة الدولة بين

---

(٣٥) م . ن .

(٣٦) م . ن .

(٣٧) م . ن ، ص ١٩ ــ ٢٠ .

الاخوين (حمير) و (كهلان) كما أوصاه بالثبات على سيرة أبيه (زهير) الذي استهدف العدل بين الرعية ، والتجاوز عن المسيء ، والكف عن أذى العشيرة ، والتحبب إليها ، ونبهه الى ان : (ما المرء إلا بقومه ولو عَزَّ وعلا)[٣٨]

وقال :

عريبُ لا تنسى ما وصى أبوكَ به   إِنَّ الوصيةَ لم يعدم بها الرشدُ
كل امرئ عِزَّهُ ــ فاعلم عشيرته   وفي العشيرة يلقى العز والعددُ

* * *

اولا العرين ولولا حبس غابته   لما سطا موهناً بالغِدْرة الاسدُ
فصيلة المرء تؤويه وتعضده   إنَّ الذليلْ الذي ليست له عضدُ[٣٩]

وكان الأصمعي قد ابلغ الخليفة هارون الرشيد بان عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع قد وصى بنيه الأربعة بوصية اتسمت بالواقعية المستمدة من التجارب اليومية والحوادث التاريخية التي تؤكد واقعاً اجتماعياً وسياسياً أفرزته الحياة اليومية والمعاشة ، فقال : (يا بُنَّي ، اني وجَدت الشرف والسؤدد والعز والنجدة ، والطاعة والملك يدور على ستة أشياء ، يا بنًّي أني وجدت الشرف لا يزايل الكرم ، ولا سؤدد لمن لا كرم له ، واني وجدت العزَّ في العدد حيث كان ، ولا عزَّ لي لا عدد له ، ولا عدد لمن لا عشيرة له ، واني وجدت النجدة في الايادي ، ولا نجدة لمن لا ايادي له ، واني وجدتُ الطاعة في العدل ، ولا طاعة لمن لا عدل له ، واني وجدت الملك في اصطناع الرجال ،

---

(٣٨) م . ن ، ص ٢٠ .

(٣٩) م . ن ، ص ٢٠ ــ ٢١ .

ولا ملك لمن لا يصطنع الرجال ، يا بني أحفظوا وصيتي ، ولا تعصوا أخاكم (قطناً) فانــه خليفتــي بعــد الله ولــيٌّ الملــكَ بعــدي دون سائر أخوته)[٤٠] .

وبذلك يكون عريب بن زهير قد استهدف من وصــيته تســليط الضوء على مواقفه الكثيرة والمهمة التي عززت مــن مناعــة وقــوة القبيلة ، لبعد نظره ، وشجاعته في مواجهة الأعداء ، وسخائه وكرمه ، ومواقفه الإنسانية ، وكشف بدقة وموضوعية عــن مخــاطر تخلخــل وتشتت القبيلة ، ومن اجل ان يضمن الأخذ بهذه المبادئ خاطب ابنــه المرشح قائلا :

مضت لأسلافنا فيمن مضى سنن	ساسوا بها لهم ملكاً فما وهنــوا
وسست بعدهم الملكَ الذي ملكوا	وانتَ سائس ذلك الملكَ ياقطــنُ
لم اعْدُ سيرتهم يوماً وانتَ لهــم	لا تعد عن سيرة ما اورقَ الفننُ
بالاصل تمرعُ لا بالفرع مونعة	**وكيف يخضرــ لولا أصله ــ الغصــنُ**
ذر التفاضل عن نيل تجــود به	إنَّ التغافل عيٌّ والهدى فطــن[٤١]

وإزاء هذا التشخيص الدقيق ، والرؤى الواضحة ، لم يكن أمام (قطن) منزع إلا أن يسير في الناس ، إلا سيرة أبيه ، وسيرة أسلافه بعد ان ولي الملك .

ولكي لا يقع ابنه ووريثه في مزالق ومثالب تنعكس سلبا على مصلحة الزعامة والقبيلة معاً ، قلد (قطن) الملكَ في حياته لابنه الغــوث بــن قطن بن عريب وأوصاه قائلا : يا بني ، أني لم أقلدك الملــك ارتعابــا

---

[٤٠] م . ن ، ص ٢١ .

[٤١] م . ن ، ص ٢١ ــ ٢٢ .

عنه ... إلا إني أردت أن أقف على سيرتك في الناس ، وسياستك للملك بينهم ، وان اعلم كيف طاعتهم لك ، كي لا اخرج من الدنيا وبي غصة من ذلك في أمرك وأمر الناس ، يا بني أوصيك بأخوتك أن تفعل لهم ما فعلته لك ، وانبذ إليهم نصيحتك ، وخفض لهم جناحك ، واسألك أن تفعل للعشيرة ما سألتك أن تفعله لأخوتك ، فما الراحة الا بالأصابع ، وما الساعد الا بالعضد))[٤٢] ولم يكتف (قطن) بذلك بل أردف يقول :

وصيت غوثاً بما وصى اوائله	وللوصية إنماء وانكاثُ
قلدتُهُ الملكَ لما ان رأيت له	...[٤٣] نحوها للملك انعاث[٤٤]
ورثتُهُ سنناً قد كنت وارثها	وللملوك مواريث ووارثُ
قد ينعش الملك ذو الرأي الأصيل كما	يحمي زراعته بالري حراثُ
كل جرى بالذي كانت تعلمه	آباؤه ولكل لاح ميراثُ
والشرُ شرٌ ولو رويته زمناً	والاري اري[٤٥]ولو نالته أحداث[٤٦]

ولما ولي (الغوث) الملك في حياة أبيه وبعد وفاته ، كان من أحسن الملوك سيرة ، وأثبتهم على سنن آبائه وأجداده ، وقبل ان تدرك (الغوث) الوفاة كان قد وصى ابنه (وائل بن الغوث) : بأن الملك دار بناها الله لإسلافه فعمروها بالعدل والإحسان ، وأكد على ضرورة

---

[٤٢] م . ن ، ص ٢٢ .

[٤٣] كلمة مطموسة ولم يتضح معناها .

[٤٤] الانعاث : الجد والاجتهاد . (ابن منظور ، لسان العرب ، ماد نعث) .

[٤٥] الاري : اذكاء الناء او الغيظ (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة اري) .

[٤٦] الاصمعي ، تاريخ العرب ، ص٢٢ــ٢٣ .

اقتفاء أثرهم ، وبين له ان المملكة كالبنيان إنْ حصلت فيه ثلمة تبعتها ثلم مثلها فانهدم البنيان واوصاه خيراً بالرعية وانشأ يقول :

الملكُ دار لمن بالعدل يعمرها ... ممن يفوز بها من ال قحطانِ
من كان منهم له الاحسان يملكها ... بما لها من عمارات وسكانِ
ما ساكن الدار لولا الدار يحفظها ... الا كمن حلٍّ في صحراء غيطانِ
وما عسى الدار لولا ما أحاط بها ... لعامر الدار من باب وبنيانِ
فان تعاودها ثَلْمٌ فساكنها ... وساكن الفدفدِ الفيفاء سيانِ
ما الدار الا بمَنْ يحتلها وبمن ... يريد يعهد هامنه بعمرانِ
وما عسى يَجْمع الراعي اذا افترقت ... ليلا على الحجرة المعزى مع الضانِ[٤٧]

وكان وائل بن غوث بن قطن بن عريب قد ساس الملك بعد ابيه سياسة حمده عليها اهل زمانه ، وكذلك فعل ابنه عبد شمس بن وائل بن غوث حين ولي الملك اذا سار بالناس سيرة ابيه واصارهم على سنن اجداده واسلافه ولم تشر المصادر التي بين ايدينا الى ان عبد شمس بن وائل اوصى لمن بعده وكذلك الحال في عمرو بن معاوية ومعايه بن علاق ، ولاعلاق بن شدد ، ولا شدد بن الفظاظ[٤٨]

وعرف عن حمير الاصغر (الذي هو زرعة بن كعب بن سهل) انه كان حسن السيرة في الناس حين ولي الملك وكان قد اوصى ابنه شدداً فقال : لو كان الملك يسعى بثاقب رأيه دون اراء الناس لفضل عقله وكمال معرفته وبارع ادبه وفطنته وعلمه بما تقدم من التجارب لأسلافه مع ما حفظه ورواه واحاط به من سنن الاوائل من ابائه وملوك

---

(٤٧) م.ن ، ص٢٣ــ٢٤ .
(٤٨) م.ن ، ص٢٤ .

قومه وسنن الماضيين من اجداده لكنت اغنى الناس عن مشاركة الاراء ومشاركة الاقيال ووصيه الموصين.

الا ان لابد للملك ممن يعينه في الرأي والامر والنهي ولابد له من مشير يحمل عنه بعض ما يثقله من ذلك ، ولابد للولد من وصية الوالد_ قلت الوصية او كثرت[٤٩] _ وبذلك يكون حمير الاصغر (زرعة) قد سبق عبدالله بن المقفع (ت١٤٢هـ) الذي خاطب الخليفة المنصور (١٣٦_١٥٨هـ) قائلا : لا يستقيم السلطان الا بالوزراء والاعوان ولاينفع الوزراء الا بالمدد والنصيحه وأن حليه الملوك وزراؤهم وأبصر الوزراء من بصر صاحبه عيبه .

وتمثل وصية حمير الاصغر (زرعة) التي استعرضناها تواً ، استخلاصاً دقيقاً وجوهرياً يمكن ان تتحقق من خلاله مصلحه الاسرة والقبيلة معاً ذلك انه خاطب ابنه شدد بوصية اخرى صاغ مفرداتها شعراً فقال :

جربتُ قلبكَ اسباباً علمتُ بها	في الملكِ يبني وبين الناس ياشددُ
فُلم اجد عدةً للملك تكلؤه	مثل النوال اذا ماقلَّتْ العددُ
ولم اجد طاعةً كالعدل ابرعهت	من طاعة لمليك في الانام يدُ
والناس كالوحش ان داريتهم شربوا	وان دنيت لهم عافوا وما وردوا
متى اطاعك سادات العشيرة لا	يعطيك في الناس فاعلم بعدها احدُ
دار الورى وذوي القرن وجد لهم	بالفضل انك مطلوب بما تجد[٥٠]

---

[٤٩] م.ن ص٢٥ .

[٥٠] م.ن ،ص٢٦ .

وكان الاصمعي(ت٢١٧) قد ابلغ الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ـ١٩٣هـ) بأن شدد بن زرعة بن كعب قد ولي الملك دهراً طويلاً لا يعصيه احد من حمير ولا من كهلان في ملكه وبأنه سار في الناس سيرة ابائه واجدادهم على سنن اجداده ، وحفظ وصايا الاوائل من اسلافه والتزم بها وعمل بما دلت عليه الى ان توفى[٥١]

وشكلت نهاية حكم شدد بن زرعة نقله نوعية في سلسلة وصايا ملوك العرب التي نحن بصدد استعراض مضامينها وتوجهاتها ، ذلك ان المصادر التي بين ايدينا لم تشر الى ان شدد بن زرعة قد اعطى وصية لمن بعده ولعل مرد ذلك الى ان شددا لم يعين ابنه خليفه من بعده ذلك ان الملك انتقل الى ابن عمه الحارث الرائش بن قيس بن صيفي بن سبأ الاصغر بن كعب بن سهل بن قيس بن معاويه بن يشجب بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن ايمن بن الهميسع[٥٢] والرائش هو جد التبابعة السبعة[٥٣]

وتشير النصوص ان (الرائش) قام بمبادرة جريئة وجديدة اذ قسم الاراضي الزراعية بين افراد القبيلة ، واعانهم على عمارتها ، فارتاشت العشائر واستغنى بعضهم عن بعض وعن كثير مما كانوا محتاجين اليه مما في يد زعيمهم ، ولارتياشهم معه سموه (الرائش)[٥٤]

---

(٥١) م.ن .

(٥٢) م.ن، ٢٦ـ٢٧ .

(٥٣) جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج١ ، ص٣٩.

(٥٤) الاصمعي ، تاريخ العرب ، ص٢٧ .

وقبيل وفاة الرائش وصى ابنه (ابرهة ذا المنار بن الرائش) بفعل الخير وحثه على العدل بين الناس والاحسان على جميع افـراد القبيلة وانشأ يقول :

حويتُ لك الملكَ الذي كان حازه لاولاده في سالف الدهر حمـيرُ

فكن حافظا للملك بعدي عامراً فقد يحفظ الملك الاثيل ويعمـرُ

وعمرانه ان يبسط العدل دونـه وبالعدل تنهـي مانهيت وتأمـرُ

وثابر على الاحسان انك لن ترى فتي محسـناً إلأيمـان ويُنْصـرُ

وقومك واصلهم وحطهـم فانمـا بقومك تعلـو مَنْ اردتَ وتقهـرُ

قال الاصمعي ان ابراهة ذا المنار ولي الملك بعد ابيه وهو اول ملك نصب الاعلام ، وبنى الاميال والعلاقات الدالة علـى الطـرق والمناهل فلذلك سمي (ذو المنار) وانه لم يتوسل باداة مـن خارجـة حلبة الاسرة والقبيلة ولا بحدث من موضع الخيـال والفرضـيات ، وهذا لعمري مايفرق المجرب الخصب عن الجاهل العقيم[٥٥]

لذلك وصى ابنه (عمرو ذا الاذعار) قائلا : يـابنيَ ان الملـك زرع ، والملك قيم ذلك الزرع فان احسن القيم قيامه عليه ، وتعاهده بالحفظ ، وحماه من المؤذيات من البهائم والطير ، زكا زرعه وكثر حصاده ومحصوله وحُمِدَ القيم واستكرمت الارض وان كان القيم غير متفقد لذلك الزرع ، ولا متيقظ للمثابره على سقيه وحمايتـه اوهنـه العطش وايبسه واكلته الطير وداسته البهائم فـلا الـزرع زاك ، ولا الارض معمورة ، ولا القيم محمود ، ولكي يؤكد وصـيته صـاغها شعراً فقال :

---

(٥٥) م.ن ، ص٢٨ .

ياعمرو انك ماجهلتَ وصيتي — اياك ما حفظهـا فانك ترشدُ
ياعمرو والله ماساد الــورى — فيما مضى الا المعين المرفــدُ
كل امرئ ياعمرو حاصد زرعــه — والزرع شئ لا محالة يحصــدُ
ان كان مذموماً فيعرف دونه — بالــذم فيــه الــزارع المتقلــدُ
او كان محموداً فتحمد ارضه — والزرع والــزراع كل يحمــدُ
ياعمرو من يشري العلا بنواله — كرماً يقال له :الجــواد السـيدُ
واصل ذوي القربى وحطْهم انهم — بهمُ تعز الأبعــدين وتضهــدّ[٥٦]

وذكر الاصمعي[٥٧] ، ان (عمرو ذا الاذعار) وصى ابنيه تبعاً ورفيدة وصية رسمت اطاراً محدداً يربط الاخوين ويشد اصرهما وتماسكهما وفي الوقت نفسه يجعلهما يشكلان محور القبيلة وقطبها الذي لابد من تعزيزه وتقويته ، لأنه يمثل صلب القبيلة وقوتها ومنعتها ، فقال في وصيته لهما : ما الملك الا رحا تدور على قطب ، فان جعل لها مع ذلك القطب قطب اخر ، وقفت الرحا وما دارت كذلك الحال في الملك فهو لا يستوي لاثنين الا ان يكون احدهما المُقْتَدي والاخر المقتدى به ، وان التاج لايسع الرأسين ، فلا يجتمع الرأسان في تاج ابداً ، كما لا يصلح السيفان في غمد واحد ثم صاغ افكاره هذه شعراً فقال:

رفيدة لاتعصي اباك فانــه — رأى رأيه ان يعطي الملكَ تبعا
ليعطيك الخيل المغيره تبع — فترعى له الملكَ اللقاح الممنعـا
ينال بكَ العليا وأنْتَ بمثله — تنالُ به طوداً من العــز منقعـا

---

[٥٦] م.ن ، ص٣١ .
[٥٧] م.ن ، ص٣١ـ٣٢ .

وبعد وفاة (عمرو ذو الاذعار) تولى الملك ابنه تبع بن عمرو ذو الاذعار وقلد اخاه (رفيده بن ذي الاذعار) الوزارة ، وكان الى تبع مايكون الى الملك وكان الى رفيدة مايكون الى الوزير ، فبقيا في ذلك دهراً طويلاً على وصية ابيهما عمرو بن ذي الاذعار، وسار الملك تبع في الناس سيرة ابيه وبسط العدل والاحسان في الارض ورضى عنه الجميع.

وخلاصه القول يتضح امام الباحث ان الوصية عند العرب قبل الاسلام كانت قصيرة وبليغة ، وتتصف بأنها واقعية وعملية ، لانها تستمد معانيها ومعطياتها من واقع حياتهم اليومية المعاشة ، وان الثبات عليها من قبل الموصى له امر في غاية الاهمية ، لان من شأن ذلك ان يمهد السبيل للملتزم بالوصية نيل الرئاسة والفوز بالملك بعد الموصي ، كما ان الثبات على مضمون الوصية يعني التحلي بتلك الصفات الحميدة التي تؤهل صاحبها لنيل الرئاسة وبذلك يصبح هذا الملتزم نموذجاً ادبياً واخلاقياً يحتذى به.

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم :
- ابن الاثير ، ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد (ت٦٣٠هـ) .
الكامل في التاريخ (بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ،(بيروت ، دار الكتاب ، ١٩٥٦) .
- ابن عبد ربه ، شهاب الدين احمد بن محمد (ت٣٢٨هـ) .
العقد الفريد ، (مصر ، المطبعة العامرة الشرقية ، ١٣٠٥هـ) .
- ابن قدامة ، موفق الدين ابو محمد عبد الله بن احمد (ت ٦٢٠هـ) .
المعني في فقه الامام احمد بن حنبل ، (بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٣) .
- ابن كثير ، ابو الفداء عماد الدين اسماعيل (ت٧٧٤هـ) .
ـ البداية والنهاية في التاريخ ، (مصر ، مطبعة السعادة ، ١٩٣٤) .
ـ تفسير القرآن العظيم ، (القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، بلا) .
- ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ) .
لسان العرب ، (بيروت ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٦) .

- ابو حنيفة الدينوري ، احمد بن داود (ت٢٨٣هـ) .
الاخبار الطوال ، (القـاهرة ، مطبعـة عيسـى البـابي الحلبـي وشركاؤه ، ١٩٦٠) .
- الازهري ، محمد بن احمد (ت٣٧٠هـ) .
تهذيب اللغة (القاهرة ١٩٦٧ مادة (وصى) .
- الاشقر ، محمد سليمان .
زبدة التفسير في فتح القدير ، (الكويت ، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، ١٩٨٥) .
- الاصمعي ، عبد الملك بن قريب (ت٢١٧هـ) .
تاريخ العرب قبل الاسلام ، (بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٥٩) .
- الجوهري ، اسماعيل بن حماد (ت٣٩٨هـ) .
الصحاح ، (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٧) .
- الحميري ، نشوان .
شمس العلوم ، (ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٥١) .
- الزمخشري ، ابو القاسم محمد بن عمر (ت٥٣٨هـ) .
اساس البلاغة ، (القاهرة ، مطابع الشعب ، ١٩٦٠) .
- الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) .
ـ جـامع البيـان عـن تأويـل آي القـرآن ، (بيـروت ، دار الفكر ، ١٩٨٨)
ـ تاريخ الرسل والملوك ، (القـاهرة ، مطـابع دار المعـارف ، ١٩٦٧) .
- علي ، جواد .

تاريخ العرب قبل الاسلام ، (بغداد ، مطبعـة المجمـع العلمـي ، ١٩٥١) .

- الفراهيدي ، الخيل بن احمد (ت١٧٥هـ) .
العين ، (بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٧٦) .
- المسعودي ، علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ) .
مروج الذهب ومعـادن الجـوهر ، (بيـروت ، دار الانـدلس ، ١٩٦٥) .
- النويري ، احمد بن عبد الوهاب (ت٧٢٣هـ) .
نهاية الارب ، (القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، بلا) .
- اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب (ت٢٩٢هـ) .
تاريخ اليعقوبي ، (النجف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٤) .

رعاية الموهوبين
على مستوى مؤسسات التعليم العالي

أ.د. كامل ثامر الكبيسي

أستاذ القياس النفسي والإحصاء

التربوي جامعة بغداد/كلية التربية

الملخص :

تعد رعاية أصحاب المواهب العامة من طلبة الجامعة أهم مستلزمات بناء المجتمع وتقدمه، لأنهم يشكلون القاعدة التي ترفد المجتمع بالطاقات الإبداعية المتخصصة، لذلك فإنهم يمثلون الثروة البشرية التي لا تعادلها ثروة أخرى، مما ينبغي الكشف عنهم وتوفير الرعاية المناسبة لهم لتفجير طاقاتهم الإبداعية واستثمارها بالاتجاه الصحيح.

بيد أن هذا يتطلب الكشف عنهم وتوفير المناخات الإثرائية لهم على وفق آلية شاملة ودقيقة، وهذا ما توصل إليه هذا البحث، إذ تناولت هذه الآلية تشخيصهم على وفق الاتجاه التكاملي، الذي يأخذ بنظر الاعتبار، محكات التحصيل الدراسي المرتفع والذكاء الذي لا تقل نسبته عن ٨٥% والتفكير الإبداعي وخصائص الشخصية الموهوبة اللذان ينبغي أن تقع درجة كل منهما في الربع الأعلى من بين درجات المجموعة التي ينتمي إليها وتضمنت الآلية أيضاً كيفية الرعاية والتقويم والمستلزمات.

مشكلة البحث وأهميته :

من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى تأكيد أو إثبات، هـو إن الثـروة البشرية أعم نفعاً، وأكثر فائدة من جميع الثروات المادية الأخرى، إذا ما أحسن إعدادها واستثمارها في تطوير الإنتاج وزيادته وتنويعه، وأكبر دليل على ذلك ما وصلت إليه اليابان وكوريا الجنوبية على سبيل المثال لا الحصـر، مـن تقـدم تكنولوجي وعلمي، لم يأت من امتلاكهما لثروات مادية أو مالية، فهمـا قياسـاً بدول أخرى من الدول غير الغنية في ثرواتها الطبيعية، لكنهما وصلتا إلى ما هو عليه بفضل حسن إعدادها للموارد البشرية واستثمارها بشكل صحيح، وبخاصة الموهوبين منهم الذين يمتلكون طاقات مبدعة قادرة على الإضـافة والابتكـار والاختراع والتوصل إلى حلول وأفكـار جديـدة (الطـواب، ١٩٨٦، ص٧١) (القذافي، ٢٠٠٠، ص٢٢)، إذ أصبح مستقبل الدول وتقدمها والسعي إلى امتلاك ناحية العلم والتكنولوجيا المتطورة، يعتمد إلى حد كبير على مدى اهتمـام هـذه الدول بالموهوبين ورعايتهم، وتوفير المناخ المناسب لإطلاق قدراتهم الإبداعية (معوض، ١٩٨٩، ص٥).

إن جميع الدراسات التي أجريت في هذا المجال أكدت ضرورة رعايـة الموهوبين والعناية بهم، من أجل مساعدتهم علـى تطـوير قـدراتهم وتنميـة استعداداتهم من جهة، ومن اجل حسن الاستفادة من قدراتهم ومواهبهم الإبداعية، حتى لا تذبل ويصيبها الانطفاء من جهة أخرى، فهم يمثلون مورداً بشرياً هامـاً

يفوق قيمة أي من الموارد المادية الأخرى (القذافي، ٢٠٠٠، ص٢١) ويعدون الثروة البشرية الوطنية التي لا تعادلها ثروة، وإن استثمارها وتنميتها أمر ضروري للفرد والمجتمع على حد سواء (البسام، ١٩٨٢، ص١٦) لذلك فإن أي مجتمع يسعى للتقدم والبناء، عليه أن يتطلع إلى عقول الموهوبين من أبنائه ويعمل على رعايتهم وتوفير المناخات المناسبة لإطلاق قدراتهم وطاقاتهم الإبداعية (Clark, ١٩٨١, p.٣٦٥).

إن الإنجازات التي يحققها الموهوبين تزيد عن تلك التي يحققها عدد مماثل من العاديين بكثير سواء من الناحية الكمية أو الكيفية، فالاكتشافات التي غيرت تاريخ البشرية، وأتاحت للإنسان فرصة التحكم والسيطرة على كثير من ظروفه البيئية في شتى مجالات العلم والطب والاقتصاد والصناعة وغيرها، إنما ذلك من عمل وإنجازات الموهوبين، في حين إن المجتمعات التي لا تحاول اكتشاف الموهوبين ولا تتيح لهم فرصة تنمية مواهبهم فإنها تبقى في دائرة التخلف والجمود (العمري، ٢٠٠٦، ص٢).

بيد إن إطلاق قدرات الموهوبين يتطلب تهيئة الجو المناسب الذي يساعد على تفجر طاقاتهم عما هو دفين فيها من مهارات ومواهب واستعدادات خاصة، والابتعاد عن تلك الأجواء التقليدية الجامدة التي تفرضها ظروف الدراسة في ظل النظام التعليمي التقليدي، سواء في المرحلة الابتدائية أو الثانوية أو على مستوى التعليم العالي، لذلك سعت معظم دول العالم إلى تحديد الفلسفة

التي تسترشد بها في رعاية الموهوبين وإلى تهيئة التـدابير اللازمـة وتـوفير الوسائل المناسبة للكشف عنهم، ورعايتهم في مؤسساتها التربوية علـى وفـق برامج إثرائية خاصة، لأن الموهبة إذا لم تتوافر لها شروط الاستمرار والنمو أو التطور فإنها قد تخبو، أو تسير بالاتجاه الذي لا يتناسب مع حاجـات المجتمـع وتطلعاته (Newland, ١٩٧٦, p.١١٨).

ويبدو - وعلى قدر إطلاع الباحث- إن معظم الاهتمامات في رعايـة الموهوبين واكتشافهم تتركز على مرحلة الطفولة أو المدرسة الابتدائية وعلـى مرحلة الدراسة الثانوية ولاسيما في الأقطار العربيـة (المعايطـة والبـواليز، ٢٠٠٠، ص٢٧٦-٢٧٧)، في حين إن التعليم الجامعي يكاد يكون مهملاً في هذا الاتجاه على الرغم من إن الاهتمام بالموهوبين في مرحلة التعليم الجامعي يشكل حجر الزاوية في اكتشاف الطاقات المبدعة والخلاقة وتوجيههم واثـرائهم بمـا يكفل استمرارهم في الدراسات العليا بتفوق وإبداع (النعيمـي، ٢٠٠٠، ص٧). فضلاً عن إن المرحلة المقبلة لاشك ستشهد تحولات جديدة في علاقـة التعلـيم العالي ومؤسساته العلمية بالمجتمع وحاجات بنائه وتطويره، وهذا ما دعا العديد من الجامعات إلى تنشيط حركة الاهتمام بالموهوبين والمبدعين باعتبارهم أدوات التغيير وعلماء المستقبل المتعدد والمتشابك التحديات، وبرزت دعوات للكشـف عنهم وتشخيصهم، وضرورة توفير المناهج والمقررات والبرامج الإثرئية التـي

تلبي احتياجاتهم، فضلاً عن خلق البنى والهياكل المؤسسية القـادرة علـى إدارة هذه الأنشطة والعمل على تطويرها (صبحي، ١٩٩٢، ص١٠-١١).

إن رعاية الموهوبين على مستوى مؤسسات التعليم العالي تشكل الأساس الصلب لتنمية الموارد البشرية وحسن استثمارها، على الرغم من ضرورة توفير المناخات المناسبة منذ مرحلة الطفولة لتفجير الطاقات الإبداعية وتنمية المواهب (Newland, ١٩٧٦, p.١١٩)، لأن التعليم العالي بمـا يملكـه مـن قـدرات وخبرات وكفاءات في تشخيص أصحاب المواهب والطاقات الإبداعيـة، وفـي رعايتهم وتوفير الأجواء المناسبة والبرامج الإثرائية لهم، ينبغي أن يعمل علـى اكتشاف الموهوبين والمبدعين من الطلبة ويعمل على تنمية مواهبهم وتوجيههـا بالمسار المطلوب، حتى لا تبقى المواهب كامنة في أعماقهم، وقد يصيبها الذبول أو تسير باتجاهات لا تناسب تطلعات الفرد وحاجات المجتمع (العمري، ٢٠٠٦، ص١) فضلاً عن إن اكتشاف الطلبة الموهوبين في مرحلـة التعلـيم الجـامعي ورعايتهم والعمل على إطلاق طاقاتهم الإبداعية، يوفر للدراسات العليا في البلد طلبة متميزين وكفاءات علمية، مما يسهل إعدادهم والارتقاء بهم، وبالتالي توفير كفاءات علمية وطنية سواء في مجال التدريس الجامعي أو في مجـال البحـث العلمي، لأن إعداد كوادر تدريسية موهوبة للتعليم الجامعي يؤدي إلـى تطـوير التعليم الجامعي وتنمية مواهب طلبته، إذ تشير الكثير من الدراسات إلى تـأثير المدرسين في تنمية مواهب طلبتهم من خـلال أسـاليب تدريسـهم وبـرامجهم

الإثرائية واستثارة قدراتهم الكامنة، وهذا يتطلب أن يكون المدرس على قدر من الموهبة والإبداع (القذافي، ٢٠٠٠، ص٢٣٥).

بيد إن رعاية الموهوبين من طلبة المرحلة الجامعية يتطلب توافر آليــة تتضمن أساليب تشخيصهم أو اكتشافهم، وكيفيــة رعــايتهم وتنميــة قــدراتهم، ومستلزمات تنفيذها، ونظراً لعدم توافر مثل هذه الآلية - علـــى قــدر إطــلاع الباحث- إلا من محاولة جرت عام ١٩٩٩م في وزارة التعليم العالي والبحــث العلمي في العراق، ولم تبصر النور في وقتها لأسباب تتعلق بالموافقات الرسمية العليا عليها، لذلك جاء البحث الحالي يرمي إلى إعداد هذه الآلية.

هدف البحث :

يرمي البحث الحالي إلى إعداد آلية لرعاية الطلبة الموهوبين في مرحلة الدراسة الجامعية، متضمنة المستلزمات والتشخيص وكيفية الرعاية.

حدود البحث :

يقتصر البحث الحالي على طلبة الكليات الرسمية التابعة لوزارة التعليم العالي ولاسيما المقبولين الجدد فيها، لكون هذه الآلية تبدأ أساساً من الطلبة الجدد المقبولين في الصف الأول في الكليات، وعلى أصحاب المواهب العامــة مــنهم فقط.

تحديد المصطلحات :

إن المصطلحات التي وجد الباحث لزاماً عليه تعريفها أو تحديدها في هذا البحث هي:

١- **الآلية** : لم يجد الباحث تعريفات نظرية محددة للآلية لذلك يعرفها بأنها الخطوات الإجرائية المترابطة للقيام بأي عمل، وتعرف إجرائياً في هذا البحث بأنها خطة تتضمن الإجراءات العملية لرعاية الموهوبين من طلبة الجامعات متضمنة أساليب التشخيص والمستلزمات وكيفية الرعاية.

٢- **الرعاية** : هي توفير المناخ المناسب الذي تتوافر فيه الخبرات الإثرائية والفرص التي تؤدي إلى تفجير وإذكاء الطاقات الإبداعية لدى الطلبة أصحاب المواهب العامة، الذين يتم تشخيصهم من بين طلبة الأقسام الدراسية في الكليات، وبما يؤدي إلى تميزهم علمياً في مجال اختصاصهم.

٣- **الموهوبون** : إن المعنى اللغوي للموهبة Giftedness قد اخذ من الفعل وهبَ أي أعطى شيئاً مجاناً، أما كلمة موهوب Gifted في اللغة فقد أتت أيضاً من الأصل وهب، فهو الإنسان الذي يعطي أو يمنح شيئاً بلا مقابل (العمري، ٢٠٠٦، ص١).

أما تعريف الموهبة أو الموهوب اصطلاحياً، فكما يبدو هناك تعريفات متعددة، يكاد يتداخل بعضها مع مفاهيم الإبداع والعبقرية والتفوق، ومن هذه التعريفات تعريف (ويتي، ١٩٥٩) الذي يذكر إن الموهوب هو ذلك الفرد الذي يبدي بشكل ظاهر قدرة واضحة ومتميزة في جانب من النشاط الإنساني (Witty, ١٩٥٩, p.١) بينما يعرف (ويكفيلد، ١٩٦٧) الموهوب بأنه الفرد الذي يمتلك قدرة عالية أو استعداد في موهبة أو مجال معين (Wakefeld, ١٩٦٧, p.٣١٩) وعرف (مكتب التربية الأمريكي، ١٩٧٢) الموهوب بأنه الفرد الذي يكون أداؤه عالياً مقارنة بالمجموعة العمرية التي ينتمي إليها في قدرة أو أكثر من القدرات العقلية، أو في الاستعداد الأكاديمي، أو القدرة الإبداعية أو القدرة القيادية أو القدرة في الفنون الأدائية والبصرية (Renzulli, ١٩٨٣, p.٤٣).

أما (مارلند، ١٩٧٢) Marlnd فقد عرف الموهوب بأنه (الفرد الذي يظهر أداءً متميزاً في التحصيل وفي القدرة العقلية والاستعداد الأكاديمي والتفكير الابتكاري والقدرة القيادية والمهارات الفنية والحركية (الروسان، ١٩٨٩، ص٤٤). وعرف (رنزولي وآخرون، ١٩٧٦) الموهوب بأنه الفرد الذي يمتلك ثلاث سمات متداخلة ومتفاعلة مع بعضها، وهي قدرة عقلية عالية، وقدرة على المثابرة والالتزام بالمهمات المطلوبة منه، وقدرة عالية على الإبداع (Renzalli, etal, ١٩٧٦,

p.٣) بينما عرف (بيتروفسكي، ١٩٨٨) الموهوب بأنه ذلك الفرد الذي يمتلك قدرات عقلية عامة تساهم بأدائه المميز في جميع الفعاليات الإنسانية (Petroviski, ١٩٨٨, p.١٢).

ومن التعريفات المشهورة للموهوب ما أوردته الجمعية الأمريكية القومية للدراسات التربوية (١٩٥٨) إذ ذكرت إن الموهوب هو من يظهر امتيازاً مستمراً في أدائه في أي مجال له قيمة (المعايطة والبواليز، ٢٠٠٠، ص٣٩).

ويبدو مما تقدم من تعريفات إن الموهبة هي استعداد يلد الفرد به ويحتاج إلى خبرات بيئية ثرية في كمها ونوعها لتحويل هذا الاستعداد إلى قدرة عقلية عالية تظهر في نشاطات أو فعاليات الفرد في مجال معين فتسمى بالموهبة الخاصة أو في معظم مجالات الحياة فتسمى بالموهبة العامة (Banbe & Renzulli, ١٩٧٥, p.٦٣) وإن الموهوب يتميز بسمات أو خصائص متعددة هي ذكاء عالي، وقدرة على الإبداع أو تفكير إبداعي عالي، وتحصيل دراسي أو أكاديمي متميز وسمات شخصية بارزة.

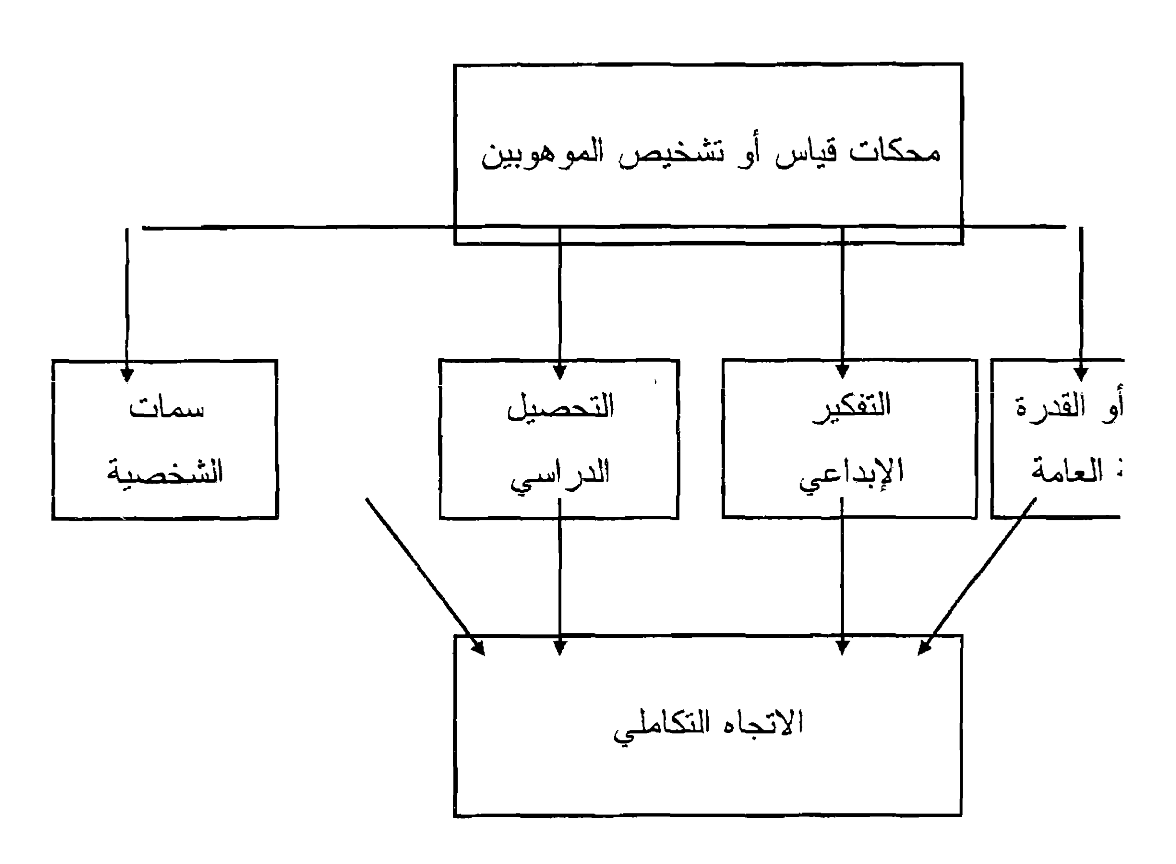
وعليه فإن البحث الحالي يعرف الموهوب إجرائياً بأنه الطالب الذي لا تقل نسبة ذكائه عن ٨٥% من درجات الاختبار المستخدم في قياس الذكاء، وتقع درجة تفكيره الإبداعي ضمن ٢٥% العليا من درجات التفكير الإبداعي لأقرانه، وتكون درجته على مقياس الخصائص

الشخصية للموهوبين ضمن ٢٥% العليا أيضاً من درجات أقرانه على هذا المقياس، وأن يكون معدل تحصيله الدراسي في الدراسة الثانوية (الإعدادية) ضمن العشرة الأوائل المقبولين معه في القسم الدراسي لتلك السنة.

٤- **مؤسسة التعليم العالي** : المقصود بمؤسسات التعليم العالي في هذا البحث هي الكليات في الجامعات التابعة لوزارة التعليم العالي.

محكات تشخيص الموهوبين :

يبدو إن عملية اكتشاف أو تشخيص الموهوبين عملية معقدة، تتطلب الكثير من الإجراءات، وأكثر من أداة من أدوات التشخيص والقياس، ويعود ذلك إلى تعدد الآراء حول الموهبة، وتعدد مكوناتها ومظاهرها، وما تبع ذلك من تعدد النظريات التي حاولت تفسيرها، مما نجم عن ذلك عدم وجود اتفاق على تعريف محدد للموهبة، لذلك ينبغي أن تكون أدوات أو اتجاهات القياس منسجمة مع التعريفات التي تعتمدها (Dlirr, ١٩٦٤, p.١٧) (الروسان، ١٩٨٩، ص٤٤) (المعايطة والبوليز، ٢٠٠٠، ص٤٢). ويبدو إن هناك خمسة محكات رئيسة ظهرت لقياس أو تشخيص الموهوبين والموضحة في المخطط الآتي:-


محكات قياس أو تشخيص الموهوبين
أو القدرة
العامة
التفكير
الإبداعي
التحصيل
الدراسي
سمات
الشخصية
الاتجاه التكاملي

وهذه المحكات هي :

١- محك الذكاء أو القدرة العقلية :

يعد استخدام الذكاء في اكتشاف الموهوبين من أول الاتجاهات المستخدمة في تشخيص الموهوبين (Halhan & Kaurran, ١٩٨١, p.٣٨) لكن العلماء اختلفوا في تحديد نسبة الذكاء التي تميز الفرد الموهوب عن العاديين، إذ يرى (تيرمان) إن هذه النسبة ينبغي أن لا تقل عن (١٤٠) درجة في حين ذكرت (هونجرت) إن النسبة التي ينبغي أن يكون عليها الموهوب هي (١٣٠) درجة فأكثر (Kirk, ١٩٧٩, p.٤٢) (العمري، ٢٠٠٠، ص٢) بينما قسم (دنلاب Danulp) المتفوقين عقلياً إلى ثلاثة مستويات هي:-

١- **فئة الممتازين** : وهم الذين تتراوح درجات ذكائهم بين (١٢٠-١٢٥) درجة، و(١٣٥-١٤٠) درجة، على وفق مقياس (ستانفورد - بنييه) للذكاء.

٢- **فئة المتفوقين** : وهم الذين تتراوح درجات ذكائهم من (١٣٥-١٤٠) درجة إلى (١٧٠) درجة على وفق مقياس (ستانفورد - بنييه).

٣- **فئة المتفوقين جداً (العباقرة)** : وهم الذين تبلغ درجات ذكائهم (١٧٠) درجة فأكثر، على وفق مقياس (ستانفورد - بنييه) أيضاً.

وقد حاول (كرونشانك) تصنيف الموهوبين أو المتفوقين عقلياً إلى ثلاثة مستويات هي:-

أ. **الأذكياء المتفوقون** : وهم الذين تتراوح درجات ذكائهم بين (١٢٠) و(١٣٥) درجة، ويشكلون في المجتمع حوالي ٥% إلى ١٠%.

ب. **الموهوبون** : وهم الذين تتراوح درجات ذكائهم من (١٣٥-١٤٥) درجة لغاية (١٧٠) درجة، ويشكلون في المجتمع ما بين ١% إلى ٣% تقريباً.

ج. **العباقرة أو الموهوبون جداً** : وهم الذين تبلغ درجات ذكائهم (١٧٠) درجة فأكثر ويشكلون في المجتمع حوالي واحد في كل مائة ألف (عبد الغفار والشيخ، ١٩٦٦، ص٨٦)، (العمري، ٢٠٠٦، ص٢)، (زياد، ٢٠٠٦، ص٧).

وهناك اختبارات ومقاييس للذكاء يمكن استخدامها في الكشف عن الموهوبين لعل من أشهرها وأكثرها استخداماً مقياس (ستانفورد – بنييه) ومقياس (وكسر) للذكاء واختبار (مكاري) للقدرة العقلية العامة.

ولكن كما يبدو إن هناك بعض الانتقادات أو المآخذ على استخدام الذكاء محكماً وحيداً لاكتشاف الموهوبين، وذلك لعدة مبررات، منها عدم وجود اتفاق على درجة الذكاء، وإن اختبارات الذكاء تتأثر بالثقافة التي أعدت فيها، فضلاً عن إنها لا تقيس سوى قدرات عقلية محددة لا تعطي صورة شاملة عن المستوى الوظيفي للفرد (Kirk, ١٩٧١, p.٤٣) (الخالدي، ١٩٧٦، ص٣٧).

٢- محك التفكير الإبداعي : Creative Thinking

يعد كل من تورانس (Torrance) و(جلفورد) Gulfford مـــن أوائـــل الذين اعتمدوا محك التفكير الإبداعي في الكشـــف عـــن الموهـــوبين، نتيجـــة للانتقادات التي وجهت إلى مقاييس أو اختبارات الذكاء التي تقيس قدرة عقليـــة عامة، وذلك لأن اختبارات التفكير الابتكاري أو الإبداعي تقيس مجموعة مـــن القدرات مثل الخيال والتصور والأصالة والمرونة والتأمل والاســـتطلاع التـــي حددها (تورانس) في ثلاث قدرات هي المرونة والأصـــالة والطلاقـــة (Dlirr, ١٩٦٤, p.٢٧) (الآلوسي، ١٩٩٠، ص١٧)، فضلاً عن إن التفكير الإبداعي هو تفكير غير مألوف وغير تقليدي، فهو لا يتبـــع الطرائـــق المألوفـــة فـــي حـــل المشكلات، مما يمكن استخدامه محكاً، أو وسيلة لاكتشاف الموهوبين، لاسيما إن التفكير الإبداعي يتطلب حداً معيناً من الذكاء لا يقل بأي حال من الأحوال عـــن الوسط أو فوق الوسط (العمري، ٢٠٠٦، ص٣-٤).

ويعد مقياس (تورانس) للتفكير الإبداعي من المقاييس المشـــهورة فـــي قياس التفكير الإبداعي فضلاً عن مقياس (جيلفورد) الذي يستخدم أيضاً في قياس هذا التفكير، ويمكن استخدام مقياس (سيد خير الله، ١٩٧٥) للتفكير الإبداعي في البيئة العربية لكونه معد عليها، ويتكون من قسمين يعتمد القسم الأول على إحدى بطاريات (تورانس) للتفكير الإبداعي، ويستند القسم الثاني على اختبار (بارون)

Barron للتداعيات، ويقيس هذا الاختبار الدرجة الكلية للتفكير الإبداعي، فضلاً عن قدراته الثلاث الطلاقة والمرونة والأصالة (خير الله ، ١٩٧٥، ص٥-٨).

إلا إن المأخذ الرئيس أو الصعوبة الأساسية في استخدام محك التفكير الإبداعي في الكشف عن الموهوبين، هو عدم وجود درجة قطع فيه، لكون اختباراته لا توجد فيها درجة عليا محددة، بل مفتوحة، فضلاً عن إمكانية اختلاف المصححين فيها إلى حد ما، لذلك لا يمكن الاعتماد كلياً على هذا المحك في تشخيص الموهوبين بل يمكن أن يكون أحد المحكات، فهو مؤشر للفرد ضمن أفراد مجموعته.

٣- محك التحصيل الدراسي : Achievement

استخدمت اختبارات التحصيل الدراسي أو الأكاديمي، سواء كانت اختبارات مدرسية من إعداد المعلم أو اختبارات مقننة، في الكشف عن الموهوبين، لأن التحصيل الأكاديمي أحد المظاهر الأساسية للنشاط العقلي الوظيفي للفرد، فضلاً عن كونه أحد المحكات السهلة الاستخدام في الكشف عن الطلبة الموهوبين، (العمري، ٢٠٠٦، ص٢).

واعتمد محك التحصيل الدراسي في الكشف عن الموهوبين انطلاقاً من إن الذين يصلون إلى تحصيل أكاديمي عال، يتمتعون بقدرة عقلية عالية (حواشين وحواشين، ١٩٨٩، ص٣٤) ساعدتهم على الوصول في تحصيلهم الأكاديمي إلى مستوى مرتفع، لذلك نجد إن الموهوبين يتفوقون بصورة عامة

على غير الموهوبين في الاختبارات التحصيلية (المعايطة والبـــواليز، ٢٠٠٠، ص٢٠٣).

ويبدو إن هناك شبه اتفاق على إن الطالب يعد موهوباً إذا كانت درجـــة تحصيله الأكاديمي ٩٠% فأكثر وكان تفوقه مستمراً، أو أن يكون ضمن أعلـــى ٣% من أفراد مجموعته (النعيمي، ٢٠٠٠، ص٣٠) (زياد، ٢٠٠٦، ص٩).

غير إن استخدام محك التحصيل الأكاديمي في الكشـــف عـــن الطلبـــة الموهوبين فيه بعض المحاذير، بسبب وجود عوامل عديدة تؤثر في التحصـــيل، معظمها لا يتعلق بقدرات الطالب العقلية، لذلك ينبغي أن يكون أحـــد المحكـــات وليس المحك الوحيد، وفي الوقت ذاته أن يقيس الإنجاز الحقيقـــي بعيـــداً عـــن الظروف المحيطة بالطالب قدر الإمكان (Dlirr, ١٩٦٤, p.٢١).

٤- محك خصائص الشخصية Personality Characteristics

لقد أجمعت معظم الدراسات التي أجريت في مجال شخصية الموهوبين إن هناك خصائص شخصية تميزهم عن غيرهم من العاديين، تظهر من خـــلال سلوكهم في المواقف المختلفـــة (العيســـى، ٢٠٠٦، ص٥) (العمـــري، ٢٠٠٦، ص٤) وهذا الاتجاه أكد عليه (رنزولي) Renzulli منذ بدايات عقد الســـبعينات من القرن العشرين، إذ يرى إن الموهوبين يتميـــزون عـــن العـــاديين بـــبعض الخصائص، لاسيما إذا كانوا متقاربين فـــي قـــدراتهم العقليـــة، وتبـــرز هـــذه الخصائص لدى أصحاب الموهبة العامة، إذ يرى (رنزولي) إن هنـــاك موهبـــة

عامة تظهر لدى من يمتلك قدرة ذكائية عالية وقدرة إبداعية متميزة وتفوق في التحصيل الدراسي وسمات عقلية وشخصية معينة، وقد أكد ضرورة اعتماد محك الخصائص الشخصية بوصفه من المحكات الأساسية التي تميز الموهوبين من غيرهم (Barbe & Renzuly, ١٩٧٥, p.٦٣) (Renzuly, etal, ١٩٧٦, p.٣) لذلك أعد (رنزولي وزملاؤه، ١٩٧٦) مقياساً لتقدير الخصائص السلوكية للموهوبين يتضمن أربع خصائص رئيسة هي القدرة على التعلم، والدافعية، والإبداعية، والقيادية (المعايطة والبواليز، ٢٠٠٠، ص٤٣) واتجهت الباحثة (سلفا ريم) Rimm في ضوء هذا الاتجاه إلى إعداد ثلاثة مقاييس لقياس خصائص الموهوبين، أحدهما لأطفال ما قبل المدرسة الابتدائية، والثاني لتلاميذ المدرسة الابتدائية، والثالث لطلبة المرحلة الثانوية (Rimm, ١٩٨٣, p.١-٢٢) وأعدت الباحثة (النعيمي، ٢٠٠٠) في العراق مقياس لخصائص الطلبة الموهوبين في الصف السادس الإعدادي (النعيمي، ٢٠٠٠، ص٤٥-٩٠). يمكن استخدامه في الكشف عن الطلبة الموهوبين من خلال خصائصهم الشخصية، إذ تضمن ثمانية مقاييس فرعية لقياس ثمان خصائص هي: الرغبة في التعلم، وتعدد الاهتمامات، والأصالة في التفكير، والاستقلالية، والمرونة في التفكير، والمثابرة، والقدرة القيادية، والاتزان الانفعالي. ويبدو مما تقدم إن محك خصائص الشخصية لا يمكن الاعتماد عليه بمفرده في تشخيص الموهوبين، لكنه

يعد محكاً مع المحكات الأخرى ولاسيما عندما تتقارب درجات هـذه المحكـات عند الأفراد.

٥- الاتجاه التكاملي :

يبدو من المحكات الأربعة المذكورة آنفاً، إنه لا يمكن لأي محك منها أن يتمكن بمفرده من تشخيص الموهوبين بدقة، لأن كل محك يتناول جانباً معيناً من الموهبة العامة، ويهمل الجوانب الأخرى، لذلك ظهر الاتجاه التكاملي الذي يأخذ أكثر من محك واحد في تشخيص الموهوبين، وقد أكد (مارلند Marland) على إن الفرد يعد موهوباً إذا أظهر أداءً متميزاً مقارنة مع مجموعته في أكثـر مـن مجال، فتكون نسبة ذكائه تزيد عن نسبة انحرافين معيـاريين مـوجبين عـن المتوسط، ويمتلك قدرة إبداعية عالية، وقدرة على التحصيل الأكاديمي، فضـلاً عن بعض الخصائص الشخصية مثل المثابرة والالتزام والدافعيـة والأصـالة.. (Jonat, ١٩٨٥, p.٢٨٢) وهذا الاتجاه أكد عليه (رنزولي، ١٩٧٩) أيضاً وعده ضرورياً لتشخيص أصحاب المواهب العامة (Renzuly, eral, ١٩٧٦, p.٤).

لذلك اعتمد البحث الحالي في تشخيص أصحاب المواهب العامـة مـن الطلبة المقبولين في الأقسام العلمية الدراسية في كليات الجامعة الاتجاه التكاملي، عند إعداد آلية رعايتهم، التي يرمي البحث الحالي إلى إعـدادها، فضـلاً عـن ضرورة التثبت من مستوى صحتهم النفسية الذي ينبغي أن يكون مرتفعاً.

آلية رعاية الموهوبين على مستوى مؤسسات التعليم العالي:

إن المنهج الذي اعتمده الباحث في إعداد هذه الآلية هو المنهج الاستنباطي الذي يعتمد على استقراء الأفكار والطروحات والتوصل إلى مبادئ أو أسس لصياغة إجراءات أو خطوات ممكنة التطبيق، فضلاً عن إن الباحث التقى بعض زملائه المختصين في هذا المجال وحاورهم في بعض الإجراءات، واتفق على معظم خطوات هذه الآلية مع نخبة من المهتمين والمختصين في رعاية الموهوبين عندما كان رئيساً للجنة شكلت في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في العراق عام ١٩٩٩م لوضع أسس ومبادئ رعاية الموهوبين من طلبة التعليم العالي.

ويشير الباحث هنا إن هذه الآلية قابلة للتعديل بما يتلاءم مع طريقة قبول الطلبة في المرحلة الأولى في الكليات، إذ قد تختلف طريقة القبول من دولة إلى أخرى، كما ينبغي على البلد الذي يريد تطبيق هذه الآلية أن يقوم بتجريبها أولاً على أقسام علمية وإنسانية محددة وفي جامعة معينة، وبعد تقويم التجربة - يمكن تعميمها- وفيما يأتي توضيح لمستلزماتها وآلية التشخيص والرعاية فضلاً عن أهدافها ومحفزاتها علماً إن هذه الآلية لا تتطلب تغيير نظام القبول في الكليات لكونها تبدأ بعد قبول الطلبة في كل قسم دراسي في الكلية.

أهداف الآلية :

تهدف الآلية إلى توفير أجواء لرعاية أصحاب المواهب العامة من الطلبة في الأقسام الدراسية، للارتقاء بقدراتهم وتميزهم، بغية استمرارهم في الدراسة الأولية الجامعية بتفوق وصولاً للدراسات العليا (ماجستير ودكتوراه) في مجال اختصاصهم، لتوفير كوادر تدريسية متميزة للجامعات.

المحفزات :

١- أن تقوم الكلية بتوفير قسم داخلي بمواصفات جيدة لإسكان الطلبة الذين تشملهم الآلية تتوافر فيه خدمات ترويحية ومستلزمات الدراسة والاتصال عن طريق الانترنيت والخدمات الأخرى.

٢- يمنح الطالب مكافأة مادية شهرية طيلة مدة الدراسة.

٣- يستمر الطالب بالدراسات العليا ويعين تدريسياً في القسم أو الكلية التي تخرج منها بعد إكماله دراسة الدكتوراه.

مستلزمات تنفيذ الآلية :

١- أن يشرف على تنفيذ الآلية في الكلية أستاذ متخصص في القياس النفسي.

٢- أن يعاون المشرف على تنفيذ الآلية معاونون بواقع معاون لكل قسم من أقسام الكلية ويفضل من الاختصاص النفسي أو يتم تدريبهم لتنفيذ آلية التشخيص.

٣- توفير قاعة دراسية نموذجية تحتوي على أجهزة حاسوب وخط انترنيت.

٤- أن يكون في الكلية مرشد نفسي متخصص لهذه الفئة من الطلبة.

٥- تشكل شعبة في الكلية باسم شعبة رعاية الموهوبين، ولجنة برئاسة العميد وأعضاء يمثلون الأقسام الدراسية وبمرتبة علمية لا تقل عن أستاذ في كل اختصاص للإشراف على هذه الفئة من الطلبة.

التشخيص :

تعتمد الآلية في تشخيص أصحاب المواهب من الطلبة المقبولين في القسم الاتجاه التكاملي الذي يعتمد (٤) محكات معاً هي التحصيل الدراسي والذكاء والتفكير الإبداعي وخصائص الشخصية وكالآتي:

١- يتم اختيار أو تحديد أسماء العشرة الأوائل من بين المقبولين في القسم بالاعتماد على درجات الامتحانات العامة للمرحلة الثانوية، على أن لا يقل معدل الطالب عن (٨٠) درجة.

٢- يقاس ذكاء هؤلاء المختارين في الفقرة (١) بأحد اختبارات الذكاء، التي تعتمد في البلد، ويفضل أن يكون لدى الكلية أكثر من اختبار واحد من الاختبارات العالمية المقننة مثل مقياس (ستانفورد - بينيه) ومقياس (وكسلر) واختبار (رافن) على أن لا تقل درجة ذكاء المرشح عن ٨٥% من الدرجة الكلية للمقياس أو الاختبار المعتمد.

٣- يتم تطبيق اختبار التفكير الإبداعي على جميع الطلبة المقبــولين فــي المرحلة الأولى في القسم، وتحسب درجات التفكير الإبداعي لكل واحد منهم، شريطة أن لا تقل درجات المرشحين عن درجــات الـــــ٢٥% العليا، لكون اختبارات التفكير الإبداعي ليس فيها درجة كليــة عليــا، ويفضل - كما سبق الإشارة لذلك- استخدام اختبار (ســيد خيــر الله) للتفكير الإبداعي، وذلك لكونه مقنن على البيئة العربية وسهل الاستخدام ويقيس قدرات التفكير الإبداعي.

٤- يطبق مقياس خصائص الشخصية للموهــوبين علـــى جميــع الطلبــة المقبولين في المرحلة الأولى في القسم أيضاً، كما هــو مــع اختبــار التفكير الإبداعي، على أن لا تقل درجة المرشحين في هذه الخصائص جميعها عن درجات الــ٢٥% العليا، وفي الوقت ذاته أن لا تقل درجة كل خصيصة إذا كان المقياس يحتوي على مقاييس فرعية عن المتوسط النظري لمقياسها.

٥- بعد أن يجتاز الطالب هذه المحكات الأربعة وهـــي أن يكــون معــدل درجات تحصيله الدراسي في مرحلة الدراسة الثانوية ضمن العشــرة الأوائل المقبولين في القسم، وتكون نسبة ذكائه ٨٥% فــأكثر، وتقــع درجات تفكيره الإبداعي وخصائص شخصيته في الربع الأعلـــى مــن درجات الطلبة المقبولين في القسم، يقبل الطالب في الصــف الخــاص

لرعاية الموهوبين بعد التأكد من صحته النفسية باستخدام أحد المقاييس، ومهما كان عدد المقبولين إذ يمكن أن يقبل العشرة جميعهم، أو أي عدد منهم ويمكن أن لا يقبل أي واحد منهم في تلك السنة الدراسية إذا لم تتوافر جميع الشروط فيهم.

الرعاية :

١- بعد أن يتم تحديد أسماء المقبولين يفتح لهم صف خاص وتخصص لهم قاعة دراسية تتوافر فيها جميع المستلزمات.

٢- يقوم بتدريس هذه المجموعة من هم بمرتبة الأستاذية ومن المتميزين منهم، وفي حالة عدم توفر أستاذ لبعض المواد يمكن الاستعانة بأساتذة من أقسام أو كليات أخرى، وفي حالة تعذر ذلك أيضاً، يمكن تكليف أستاذ مساعد متميز، وتحسب ساعات التدريس والمحاضرات كما هو لطلبة الدراسات العليا.

٣- يتم إعداد مواد إثرائية تدرس مع المواد التي تدرس في الصف الاعتيادي على أن يتم تدريس مادة أو مادتين باللغة الإنكليزية.

٤- توفير المصادر والمجلات العلمية لهم وربط قاعة المحاضرات بشبكة الانترنيت.

٥- يتوسع التدريسي بالمادة الدراسية المعطاة للصف الاعتيادي في الصف الخاص كماً وعمقاً، واستخدام التقنيات التربوية الحديثة أثناء التدريس.

٦- يقوم مرشد تربوي مع إدارة القسم بمتابعتهم والوقوف على مشاكلهم الشخصية والدراسية والعمل على تذليلها قدر الإمكان.

المتابعة والتقويم :

١- يشرف عميد الكلية شخصياً على الامتحانات النهائية للصفوف الخاصة في كل الأقسام.

٢- تكون درجة النجاح ٦٠% للمادة الواحدة، و٧٠% للمعدل.

٣- إذا لم يحصل الطالب في الصف الأول على معدل ٨٠% فأكثر، يعاد للدراسة إلى الصف الاعتيادي في الصف الثاني، وكذلك في حالة رسوبه يعاد للصف الأول الاعتيادي.

٤- يحق للطلبة الذين اجتازوا الصف الأول في الصف الاعتيادي بمعدل جيد جداً التقديم للترشيح للصف الخاص في الصف الثاني، بعد أن يجتاز متطلبات محكات الذكاء والتفكير الإبداعي وخصائص الشخصية.

٥- تقوم التجربة سنوياً من لجنة مختصة لتذليل المعوقات ومعالجة السلبيات.

التوصيات والمقترحات :

أولاً : إن آلية رعاية الموهوبين التي أعدت في هذا البحث تحتاج إلى إجراءات أخرى قبل البدء بتجريبها، لذلك يوصي الباحث بـ:

١- تهيئة الاختبارات والمقاييس المناسبة للذكاء والتفكير الإبداعي وخصائص الشخصية والتثبت من صلاحية استخدامها على الطلبة المقبولين في الكليات من خلال التحقق من صدقها وثباتها.

٢- إعداد برنامج إثرائي متكامل للطلبة الموهوبين بدءاً من المرحلة الأولى إلى المرحلة المنتهية ولكل قسم دراسي مشمول بالرعاية، وذلك من خلال تشكيل لجنة متخصصة تأخذ على عاتقها إعداد البرنامج.

٣- توفير الملاك الإشرافي والتدريسي قبل البدء بالتجربة فضلاً عن المستلزمات المادية الأخرى.

ثانياً : قبل العمل بهذه الآلية ينبغي تجريبها على قسم أو قسمين دراسيين للاختصاص العلمي وآخرين للاختصاص الإنساني بغية تقويمها وتحديد جوانب الضعف وجوانب التطوير لها.

ثالثاً : أن تسعى الجامعات العربية لتوحيد جهودها في هذا المجال لوضع برنامج إثرائي للطلبة العرب الموهوبين، وتبادل الخبرات في هذا المجال.

رابعاً : يقترح الباحث إعداد آلية لرعاية الطلبة أصحاب المواهب الخاصة في الجامعات.

المصـــــــــــــــــادر :

١. الآلوسي، صائب أحمد (١٩٩٠)، "آفاق منهجية وتدريسية في تنمية قدرات التفكير الابتكاري" الندوة العلمية الثانية لكلية التربية – ابن رشد.

٢. البسام، عبد العزيز (١٩٦٢)، المراهقة، الحقائق الأساسية وصدقها بالتربية مع الإشارة لأحوال المراهقين في المجتمع العربي، بغداد، مطبعة السجل.

٣. حواشين زيدان نجيب – ومفيد نجيب حواشين (١٩٨٩)، تعلـيم الأطفـال الموهوبين، عمّان، دار الفكر للنشر والتوزيع.

٤. الخالدي، أديب (١٩٧٦)، سيكولوجية المتفوقين عقلياً، بغداد، مطبعـة دار السلام.

٥. خير الله، سيد (١٩٧٥)، اختبار القدرة على التفكير الابتكاري، بحوث فـي علم النفس، القاهرة، مطبعة دار العالم العربي.

٦. الروسان، فاروق (١٩٨٩)، سيكولوجية الأطفال غيـر العـاديين، عمّـان جمعية عمال المطابع الأردنية.

٧. زيـــاد، ســـعد محمـــد (٢٠٠٦)، الموهبـــة والموهوبـــون، http:www.geocikies.com/dr-mosad/inder١٠٥.htm? ٢٠٠٦٣٠

٨. صبحي، تيسير (١٩٩٢)، الموهبة والإبداع، طرائق التشـخيص وأدواتـه المحسوبة، عمّان، دار التنوير العلمي.

٩. الطواب، سيد محمود (١٩٨٦)، "تطور قدرات التفكير الابتكاري من الصف

الثالث حتى الخامس الابتدائي لدى عينة من تلاميذ الإسكندرية" الكتاب السنوي في علم النفس، المجلد (٥)، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات النفسية.

١٠ العمري، جمعان بن محنوس الطلاب الموهوبون بين الكشف والرعاية، المملكة العربية السعودية، تعليم المخواة، مركز رعاية الموهوبين (الانترنيت).

١١ العيسى، لبنى (٢٠٠٦)، الإبداع.. دراسة مقارنة بين إبداع الذكر وإبداع الأنثى، مركز الدراسات آمان – الانترنيت.

١٢ القذافي، رمضان محمد (٢٠٠٠)، رعاية الموهوبين والمبدعين، الإسكندرية المكتبة الجامعية.

١٣ الكبيسي، كامل ثامر وآخرون (١٩٩٩)، خطة عمل وزارة التعليم العالي والبحث العلمي لرعاية الموهوبين في الجامعات العراقية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – العراق.

١٤ المعايطة، خليل عبد الرحمن ومحمد عبد السلام البواليز (٢٠٠٠)، الموهبة والتفوق، الأردن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٥ معوض، خليل ميخائيل (١٩٨٣) قدرات وسمات الموهوبين، دراسة ميدانية، الإسكندرية، دار الفكر العربي.

١٦ النعيمي، إنعام هاشم سلطان (٢٠٠٠)، بناء مقياس الكشف عن خصائص

الشخصية للطلبة الموهوبين في الصـــف الســـادس الإعـــدادي، (رســـالة ماجستير) جامعة بغداد – كلية التربية – ابن رشد.

١٧. Barbe, W.B. & Kenzulli, J. (١٩٧٥) Psychology and Education of the Gifted, Distributed, Halted Press.

١٨. Clark, G.A. (١٩٨١) "In research of concept of talent" INSEA research Performance Rotterdam, Indiana University.

١٩. Dlirr, W. (١٩٦٤) The gifted student, Oxford University Press.

٢٠. Jonat, Freeman (١٩٨٥) The Psychology of gifted Children, st. Edmands bary press.

٢١. Kirk, S. (١٩٧٢) Test of Psychological Universal abilities, linois, University of linois press.

٢٢. Newland, I.E. (١٩٧٦) The gifted in socio educational perspective, prentice – Hall.

٢٣. Petrovsky. A.V. (١٩٨٧) Psychological dictionary, union of souier.

٢٤. Renzulli, J et al (١٩٧٦) scale forting the behavioral characteristics of superior student, creative learning press, INC.

٢٥. Rimm, S.B. (١٩٨٣) Preschool & Kindergarten interest descriptor pride manual for administration, Wisconsin.

٢٦. Wakefield, H.G. (١٩٦٤) "The Advanced learners" dictionary of current English (Ed), Oxford.

٢٧. Witty, P. (١٩٥٩) Indentivitv of gifted and talented children, New York.

تزوير الوثائق والمستندات
قديماً وحديثاً

سالم الآلوسي

الملخص :

يتناول البحث ظاهرة شاذة ومدانة ، شرعاً واخلاقاً ، هي ظاهرة التزوير ، ويقصد بها مجموعة من العمليات الفنية يراد بها قلب الحقائق وتغييرها شكلا ومضموناً ، من حال الى حال اخرى ، بهدف تحقيق مطالب وغايات ، أكانت شرعية ام مذهبية ام دينية ، ام سياسية ، ام اقتصادية ، تقوم بها الجماعات والأفراد والمؤسسات من اجل تحقيق المنافع والمكاسب المادية أو المعنوية كالأموال والعقارات والمناصب والامتيازات والشهرة . او لأغراض التشهير بالخصوم والاعداء والإقلال من شأنهم في المجتمع

كانت هذه الظاهرة معروفة منذ قديم الزمان وما تزال شائعة ومنتشرة في البيئات والمجتمعات الشرقية والغربية على حد سواء رغم التقدم المدني والحضاري في العالم .

ونظراً لسعة الموضوع وتنوع اساليب التزوير ، اقتصر البحث على تقديم امثلة من مختلف العصور القديمة والاسلامية والعصور الوسطى في اوربا ومن التاريخ الحديث والمعاصر . وقد عززنا البحث بذكر ما جاء في قانون العقوبات البغدادي رقم (١١١) لسنة ١٩٦٩ من مواد تتصل بالتزوير كما قنّنها المشرّع العراقي .

المقدمـــــة :

اولاً ــ التزوير في اللغة والاصطلاح :

هناك مصطلحان : التزوير والتزييف . فالتزوير مــن فعــل (زَوَّرَ) يزوّر ، تزويراً) ، وله معانٍ عدة كما جــاء فـــي معجــم (لسان العرب) لأبن منظور ، منها : فعل الكذب والباطل والتشــبيه والمسخ . والزور في الأصل تحسين الباطل .

اما التزييف ، فهو من فعل (زَيَّف) ، ومعناه على الأغلــب يقترن بوصف الدراهم الرديئة . وفي هذا السياق قال امرؤ القيس :

ترى القوم أشباهاً اذا نزلوا معاً   وفي القوم زيف مثل زيف الدراهم

اما التزوير إصطلاحاً ، فهو على ضربين : التزوير في القول والتزوير في العمل :

وقد نهى القرآن الكريم في عدد من السور عن قول الــزور وشــهادة الزور ، مثل : ((... فأجتنبوا الرجسَ من الأوثان وأجتنبــوا قــول الزُور .)) (سورة الحج ، الآية ــ ٣٠)

وكذلك : ((... والذين لايشهدون الزُورَ ، وإذا مرّوا بــاللغو مرّوا كراماً)) (سورة الفرقان ، الآية ــ ٢٥) .

وجاء ايضاً : ((قال الذين كفروا إنّ هذا إلاّ إفكٌ إفتراه وأعانه عليـــه قـــومٌ آخـــرون ، فقـــد جـــاؤا ظلمـــاً وزوراً)) . (الفرقان ، الآية ــ ٤)

وجاء فيه ايضاً : ((.... وإنهم ليقولون منكراً مــن القــول وزوراً .)) (سورة المجادلة ، الآية ــ ٢) .

الى جانب عدد من الآيات

وفي الحديث النبوي الشريف : ((عدَّ شهادة الزور الشِركَ بالله))[1]

اما التزوير في العمل ، فهو مجموعة من العمليات الفنية ، يراد بها قلب الحقائق وتغييرها من حالٍ الى حال اخرى ، بهدف تحقيق أغراض ومطالب وغايات ، أكانت شرعية ، أم مذهبية ، أم دينية ، أم سياسية أم اقتصادية ، تقوم بها الجماعات أو المؤسسات او الأفراد ، من أجل إكتساب شهرة أو الحصول على المنافع المادية أو المعنوية ، كالأموال والمناصب والامتيازات أو التشهير بالخصوم والأعداء والأقلال من شأنهم في المجتمع .

وفي هذا المجال تبرز اهمية (التزوير الخطي) ، الذي يستهدف إحداث تغييرات في الوثائق والمستندات الصحيحة ، يترتب عليها إدخال تغيير لما كانت تحويه أصلاً من بيانات وأرقام وغير ذلك ، وهو ما يطلق عليه مصطلح (التزوير المادي) .

والتزوير معروف منذ أقدم الأزمنة عند الشعوب والأقوام والحكومات والجماعات والأفراد ، وهو ظاهرة شائعة في البيئات والمجتمعات الشرقية والغربية على حدٍ سواء .

ويعبرَّ عن هذين المصطلحين في اللغة الانكليزية بكلمتين :

١ــ Fake ، كما هو الحال في تزوير القطع والآثار الفنية ، فيقال Faked object اي قطعة مزوّرة .

٢ــ سود Pseud ، او سودو Pseudo ومعناها الكاذبة او الباطلة ، كما هو الحال في تزوير الوثائق والمستندات ، وقد اخذت

---

[1] اللسان ، لأبن منظور (فعل زور) .

التشريعات الحديثة في التفريق بين التزوير والتزييف ، وذلك فيما يتصل بتزوير العملات الورقية والمسكوكات والمعاملات المصرفية .

ولكون التزوير وكذا التزييف يعدُّ عملاً غير شرعي ومخالفاً للقوانين والأعراف والتقاليد ، لما يترتب على نتائجه من أضرار مادية ومعنوية ، فقد قامت الحكومات والأدارات والجهات المسؤولة بإتخاذ الوسائل والإجراءات والتدابير الرادعة ، تمثّلت بإصدار القوانين والأنظمة واللوائح والبيانات ، للحدِّ من هذه الظاهرة الباطلة والشاذة ومنعها ، وإنزال العقوبات بمرتكبيها والعاملين على ترويجها .

ولما كانت عملية الكشف عن التزوير تتطلب إجراء بحوث ودراسات على مواد الكتابة وأدواتها والورق الذي حررت عليه ، فقد تضافرت الجهود العلمية والفنية في الجامعات والمعاهد ومراكز الأبحاث ، والدوائر المسؤولة عن كشف الجرائم ، على دراسة ظاهرة التزوير واساليبه وإعداد الدراسات وإجراء العمليات والتجارب المختبرية ، باستخدام الأجهزة والمعدات العلمية والفنية والمواد الكيمياوية لهذا الغرض ، ولم تتوقف الجهود عند هذه الحدود بل تجاوزتها الى إعداد كوادر الاختصاصات والكراسي لتدريس هذا الموضوع الخطير الذي يهدد الحضارة الانسانية ومنجزاتها .

ثانياً ـ تزوير المستندات والوثائق :

وبقدر تعليق الأمر بتزوير الوثائق والمستندات والآثار وغيرها ، فقد حظي علم الآثار (الأركيولوجيا Archaeology) وعلم دراسة الخطوط والكتابات القديمة (الباليوغرافيا

Palaeography) وغيرهما من العلوم المساعدة ، بأهتمام متزايد من العلماء والجامعات ومراكز الابحاث ، بتدريس هذا الموضوع ، تمنح فيها الشهادات بمختلف الاختصاصات ، ومن بينها دراسة الخطــوط القديمة والحديثة ، وهو الشائع في الكشــف عــن تزويــر الوثــائق والمستندات والشهادات فحسب ، بل اصبح تزييف العملات المحليــة والأجنبية والصكوك واسع النطاق والخطورة . يضاف الى ما تقــدم القيام بتزييف وتزوير اللوحات الفنية والتماثيل والآثار وغيرها ، وقد اتسعت دائرة عمليات التزوير الــى الأصــوات البشــرية والأفــلام والصور الفتغرافية .

لقــد إســتند علــم قــراءة الخطــوط والكتابــات القديمــة (الباليوغرافيا) على أسسس وقواعد علمية وفنية ، منها :

١ــ ملاحظة نوع الخط من حيــث بــدايات الحــروف ونهاياتهــا ، وتشخيص الشاذ فيها .

٢ــ دراسة أنواع الورق وخصائصه وصناعته وألياقه ــ اي تركيبــه الكيمائي وطمغته المائية ــ فقد كان لكل حكومة أوراقها الخاصة المميزة . ويمكن بواسطة المجهر والتحليــل الكيميــائي معرفــة عمر الورق .

٣ــ نوع القلم المستعمل في الكتابة ، هل كان من الريش أو القصب أو المعدن ، وقوة ضغطه على وجه الورقة وميل الكتابة .

٤ــ انواع الحبر المواد المستعمل في الكتابة وتركيبه الكيميائي .

٥ــ الاختام المستعملة وطمغاتها ، والنصوص والشارات (العلامات) المنقوشة عليها ، وكذلك التواقيع والامضاءات والطوابع الملصقة على الوثائق والمستندات .

٦ــ وقد توصل العلم الحديث ، وتطور الاجهزة والمعدات الفنية الــى الكشف عن الشخص المزوّر أو المزيف ، وذلك من خلال دراسة آثار طبع الأصابع على الوثائق والمستندات المزوّرة .

ثالثا ــ امثلة وشواهد من وسائل التزوير

وتوثيقاً لهذا البحث نورد نماذج من وسائل التزوير قديماً وحديثاً

١ــ العيلاميون يزوّرون شريعة حمورابي[٢]

تعدُّ شريعة حمورابي أنظم وأكمل شريعة في تاريخ الحضارات القديمة . وكان الملك البابلي العظيم حمورابي (١٧٩٢ــ١٧٥٠ قبل الميلاد) كتبها باللغة الاكدية وهي من أقدم اللغات العربية القديمة التي اطلق عليها علماء المسماريات مصطلح (اللغات السامية) . وقد نقشت مواد الشريعة المؤلفة من (٢٨٢) مادة قانونية على مسلّة من الحجر الاسود المعروف ب (الديورايت Diorite) وأقيمت على الأرجح في (اي ــ ساجيلا E-Sagila) وهو المعبد الرئيس في بابل المخصص لعبادة الآلــه (مردوخ) ، ليرجع القضاة والناس اليها دفعاً لظلاماتهم وإحقاق حقوقهم .

كان قد عثر على هذه المسلة الخطيرة في العاصمة العيلامية (سوسه Susa) في جنوب غربي ايران . من قبل بعثة التنقيبات الآثارية الفرنسية عامي ١٩٠١ ــ ١٩٠٢ ، وقام بترجمتها عن اللغة الأكدية الى الفرنسية الأب فنسان شايل / عضو البعثة المذكورة ، ونقلت الــى

---

[٢] طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارت القديمة ــ ج٢ ، بغداد ــ ١٣٧٥هـ ــ ١٩٥٦ ، ص٢٩٢ ــ ٢٩٣ .

فرنسا ، وهي معروضة اليوم في متحف اللوفر بباريس ، وشاع امرها في العالم فترجمت عن الفرنسية الى عدة لغات كالانكليزية والالمانية وغيرها . وبناء على طلب دائرة الآثار العراقية في اواسط الثلاثينيات فقد أهدى متحف اللوفر نسخة جبسية للمسلة وهي المعروضة اليوم في المتحف العراقي .

اما سبب وجودها في (سوسه) فذلك لأن العيلاميين كانوا قد غزوا العراق في أواخر العهد الكشّي Kassite في حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وقضوا على السلالة الكشية الحاكمة ، وأشاعوا الدمار والخراب في البلاد وأخذوا غنائم ثمينة كثيرة ، كان من بينها مسلة حمورابي ومسلة (مانشتوسو) الأكدي ، ونصب النصر العائد الى الملك الآكدي (نرام ـ سين Naram – Sin) .

وقد أزال العيلاميون أقسام مهمة من الكتابة المسمارية في الجزء الاسفل من وجه المسلّة التي تتضمن نصوصاً من الشريعة ، ويرجح ان الملك العيلامي (شوترك ـ ناخنتي Shutruk - Nakhunte) الذي سلب المسلة ، هو الذي أحدث ذلك بقصد التزوير ونسبة الشريعة اليه من اجل ان ينقش إسمه وألقابه في المكان الذي أزاله ومحاه من الكتابة ، كما فعل في آثار اخرى بابلية ، ولكنه لم يفعل ذلك في شريعة حمورابي ، لأنه ، على مايبدو ، ذُعر وتهّيب وخاف من اللعنات الشديدة التي دوّنها حمورابي في خاتمة المسلة ، وعلى كل من يبدّل ويغيّر في نصوص شريعته أو يزيل بعضاً من موادها .

ومن حسن الحظ ان الاجزاء الناقصة الممحاة من الشريعة قد أكمل مؤخراً قسم كبير منها ، لأنه وجدت أجزاء من نسخ الشريعة مدونة على الحجر او الطين في امكنة اخرى من مواقع الآثار التي جرى التنقيب الآثاري فيها .

٢ ـ الكتابة على قبة الصخرة[٣]

هذا المثال يتناول وثيقة بنائية (معمارية) تتضمن نصاً مكتوباً بالخط الكوفي يؤرّخ ويوثّق بناء قبة الصخرة في المسجد الأقصى الشريف . وكانت القبة شيّدت في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي حكم في المدة (٦٩ ـ ٧٢هـ) (٦٨٨ ـ ٦٩١م) وقد نقشت القبة بالنص الكتابي الآتي :

((بنى هذه القبة عبد الله عبد الله المأمون

امير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه))

ويتبين من دراسة هذا النص إن التزوير حصل في زمن الخليفة العباسي عبد الله المأمون ، وذلك عند مروره بالقدس الشريف وزيارته للمسجد الأقصى عند سفره الى مصر ، ومن المعلوم ان الخليفة المأمون حكم في المدة (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) ويحتمل ان بعض المتزلفين قام بهذا العمل تقرباً للمأمون . وعملية التزوير واضحة في هذه الوثيقة المعمارية للأسباب الآتية :

---

[٣] ينظر كتاب : الآلوسي (سالم عبود) ، علم تحقيق الوثائق (الدبلوماتيك) ص ٩ ـ ١٢ .

١ــ طمس اسم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ووضــع اســم المأمون مكانه ، ويظهــر ان فراغاً حصــل في مساحـــة نص الكتابة ، فإضطر المزوّر الى ان يكــرر اســم عبــد الله لســد هذا الفراغ .

٢ــ غفل المزور عن التاريخ الحقيقي لبناء القبة وهو عام (٧٢هــ) فأبقاه على حاله ، والتاريخ المذكور يقع في مدة حكم عبد الملــك ابن مروان .

ومن المعلوم تاريخياً ان الخليفة عبد الله المأمون قام بزيــارة المسجد الاقصى وعند إطلاعه على حالــة القبــة المترديــة فــأمر باصلاحها وليس ببنائها ، فهي عمليــة صــيانة وتــرميم وتجديــد على ما نرى .

٣ ــ اليهود يزوّرون وثيقة للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)

يعود تاريخ تزوير هذه الوثيقة الى العصر العباسي ، وعلــى وجه التحديد الى عام (٤٤٧هــ = الموافق ١٠٥٥ ــ ١٠٥٦م) ، اي الى عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٣٩١ ــ ٤٦٧هــ) ، يــوم حمل اليهود الى رئيس الرؤساء أبي القاسم علي بن المسلمة ، وثيقــة إدعوا فيها بعض الادعاءات ، ومنها الطلب باسقاط الجزيــة عــنهم . فأستدعى الوزير ــ اي رئيس الرؤساء ــ احد الثقات ، اي الخبــراء كما نسميهم في هذا العصر ، لدراسة هذه الوثيقة وبيــان صحتها مــن

زيفها ، وهو المؤرخ الشهير الخطيب البغدادي[٤] الذي قام بعمل غاية في االبراعة والدقة والتحليل العلمي الصحيح ، فأثبت بالبرهان القاطع بطلان إدعاء اليهود واسقاط حجتهم .

الروايـــة

ذكر السخاوي[٥] فـــي كتـــاب ((الأعـــلان بـــالتوبيخ لمـــن ذمَّ التاريخ ، ص٢٥)) في موضوع فائدة التاريخ ما يأتي : ((اظهـــر بعض اليهود كتاباً وأدعوا انه كتاب رسول الله ــ صـــلى الله عليـــه وسلم ــ باَسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادة الصـــحابة ــ رضي الله عنهم ــ وذكر أن خط الأمام علي ــ رضي الله عنـــه ــ فيه . وحمل الكتاب في سنة سبع وأربعين وأربعمائة الـــى رئـــيس

---

(٤) الخطيب البغدادي (٣٩١ ــ ٤٦٣هــ) هو احمد بن علي بن ثابت بن احمد بن مهدي ، ابو بكر الخطيب ، احد مشاهير الحفّاظ وصاحب (تاريخ بغداد) وغيره من المصنفات العديدة المفيدة ، له نحو من ستين مصنفاً . وقد وصفه الســـمعاني صاحب (تاريخ بغداد) وغيره من المصنفات العديدة المفيدة ، له نحو من ستين مصنفاً . وقد وصفه السمعاني صاحب كتاب الأنساب بقوله : ((كان الخطيـــب في درجة الكمال والرتبة العليا خلقاً وخُلقاً ، وقد انتهى اليه معرفة علم الحـــديث وحفظه وختم به الحفاظ)) . وقال ابن ماكولا في تاريخ دمشق : ((كان ابو بكر الخطيب آخر الأعيان ممن شاهدناه ، معرفةً وحفظاً واتقانـــاً وضـــبطاً لحـــديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتفنناً في علله واســـانيده وخبـــرةً برواتـــه وناقليه ، وعلماً بصحيحه وغريبه ومفرده وسقيمه ومطروحـــه)) . أمـــا ابـــن عساكر فيقول عن الخطيب البغدادي : ((انه ختم بـــه ديـــوان المحـــدثين)) . (تراجع مجلة (الدارة) ، العدد ــ ٤ ، السنة ــ ٥ ، رجب ١٤٠٠هــ .

(٥) السخاوي : هو الحافظ المؤرخ شـــمس الـــدين محمـــد بـــن عبـــد الـــرحمن . (توفى سنة ٩٠٢هــ)

الرؤساء أبي القاسم علي ، وزير القائم بأمر الله ، الذي عرضه على الحافظ الحجّة أبي بكر الخطيب ، فتأمله ثم قال : ((هذا مزوّر)) . فقيل له : وما الدليل على كذبه وتزويره ؟ فقال الخطيب : ((لأن فيه شهادة معاوية بن ابي سفيان ، ولم يكن أسلم يوم خيبر ، وكانت خيبر في سنة سبعٍ من الهجرة ، وانما اسلم معاوية يوم الفتح[٦] . وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وقد مات عام الخندق سنة خمس قبل فتح خيبر بسنتين ، يوم بني قريضة)) .

فأستحسن ذلك منه ، وأعتمده وأمضاه ولم يجز اليهود على ما في الكتاب لظهور تزويره .

هذا المثال يدل على براعة المؤرخين العرب والمسلمين في الكشف عن الوثائق المزوّرة ونقدها . أسبق من الأوربيين بحوالي الف عام ، وهو ما عرف عندهم بعلم الدبلوماتيك Diplomatics .

٤ ــ تزوير وثائق الأنساب[٧]

وتعرف في المصادر والمراجع بـ (شجرات الانساب) ، وهي من الوثائق المهمة في التاريخ الاسلامي ، التي تدوّن أشجار النسب وقوائم أسماء الملوك والسلاطين بالشرق والغرب على حدٍ سواء . ولم تنج شجرات النسب في التاريخ الاسلامي من التزييف والتزوير . ففي ربيع الآخر سنة (٤٠٢هـ) كتب الخليفة العباسي

---

[٦] يوم فتح مكة كان في العشرين من رمضان عام (٨) للهجرة .

[٧] تراجع حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد ــ ٩ لسنة ١٩٦٤ ص١١٧ ، مقال كتبه الدكتور احمد السعيد سليمان بعنوان : وثائق التاريخ العربي وكيفية صيانته ، ص١١٣ ــ ١٣٢ .

ابو العباس احمد القادر بالله ، محضراً بيّن فيه زيف نسب الفاطميين ، وقرئت نسخ المحضر ببغداد ، واخذت عليها خطوط توقيعات القضاة والأئمة والاشراف .[٨]

وكان الخلفاء العباسيون يهتمون إهتماماً كبيراً في الأنساب والأحساب ، فقد أُثر عن الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور انه تولى بنفسه الأجابة على كتاب محمد النفس الزكية حين همَّ كاتبه ـ اي كاتب المنصور ـ ان يجيبه فقال له المنصور : ((لا ، بل أنا أُجيبه اذا تقارعنا على الأحساب فدعني وإياه)) .[٩]

وقبل نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد) حاول نظام الملك وكان وزيراً للسلطان حسين (باي قرا) في مدينة هراة ، ان يلحق نسبه بأولاد النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم . وأمر فأعدّت له شجرة نسب ، ثم أمر فصدّق عليها العلماء ، وطلب الى العالم الفقيه عبد الرحمن الجامي ان يصدق عليها فأعتذر بلباقة وأرسل اليه ابياتاً من الشعر بالفارسية منها :

آنـراكه بود نور نبي دربشـره

حاجت نه بود باطول وعرض شجرة

وترجمتها : ما حاجة من كان نور النبي بادياً على وجهه الى شجرة طويلة عريضة تثبت نسبه .

وكان من أتراك الشرق من يلحق نسبه من ناحية ، بالنبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن ناحية اخرى بـ (آغوز خان) .

---

[٨] عن النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص٢٢٩ وما بعدها .

[٩] حسن (الدكتور حسن ابراهيم) ـ تاريخ الاسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي جـ٢ ، ط٧ ، القاهرة ـ ١٩٦٤ ، ص٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

وقد رأى المؤرخ التركي الاستاذ زكي وليدي وثيقة تخلط بين هذين النسبين في مكتبة خالص افندي باسطنبول .

ومنذ وقت قريب حاول ملك مصر السابق فاروق الأول ان يلحق نسبه بالشجرة الهاشمية ، لاغراض سياسية . (احمد السعيد سليمان ، المصدر نفسه) .

٥ ـ راهب ايطالي يكشف عن وثائق بابوية مزورة

عمليات الكشف عن هذه الوثائق البابوية المزورة ترجع الى العصور الوسطى في اوربا ، وتحديداً الى القرن الخامس عشر الميلادي ، وهي تقيم الدليل الدامغ على فضح التزوير ودفع الشبهات للوصول الى الحقائق الناصعة .

كشف عن تزوير هذه الوثائق الراهب الايطالي (لورنزو فالا Lorenzo Valla الذي عاش قرابة خمسين عاماً (١٤٠٦ ـ ١٤٥٧م) ويعدُّ (فالا) من أبرز علماء عصر النهضة في ايطاليا ، ولد ونشأ في روما ، ثم صار قسيساً ولم يلبث ان ترقى الى منصب كاتم اسرار (سكرتير) الفونس الخامس ملك (ارغون) ، وعرف بثقافته الواسعة وأفكاره العقلانية الجريئة . وضع عدداً من الكتب والمؤلفات كان من اشهرها تصديه لنقد الوثائق الآتية :[١٠]

١ ـ هبة قسطنطين ،

٢ ـ الترجمة اللاتينية للأنجيل (الفلجات)

---

[١٠] اعد الباحث دراسة موسعة عن هذه الوثائق معدّة للنشر .

٣ ـ مجموعة الأوامر الكاذبة (الاوامر الأسيدورية (Pseodo – Isodoric) وتعدّ وثيقة (هبة قسطنطين) من أهم اعماله ، من حيث آثارها على البيئة الدينية والسياسية في أوربا .

هبة قسطنطين Donation of Constantine

وتعرف في المصادر اللاتينية باسم (دونيتيوكونستانتيني (Donitio Constantini)) التي كانت تعدُّ من الوثائق المقدسة ، لأن البابوات كانوا يدعون ان الامبراطور قسطنطين الكبير (٢٨٨ـ ٣٣٧م) وهب فيها اراضي ايطالية للكرسي البابوي على اعتبار انها إرث الرسول بطرس ، أخذه عن السيد المسيح مباشرة .

وبعد دراسة هذه الوثيقة بإمعان ودقة ، أثبت الراهب (فالا) انها وثيقة زائفة ومزوّرة ، وان رجال الكنيسة زيّفوها ووضعوا عليها ختم الامبراطور قسطنطين ، وان السيد المسيح لم يمنح الحواري بطرس شيئاً في ايطاليا أو غيرها . لقد أحدث هذا الكشف زلزالاً عنيفاً في البيئات العلمية والدينية والسياسية في أوربا ، وهوجم (فالا) هجوماً عنيفاً وقاسياً وتعرض للمحاكمة والملاحقة واختفى على اثر ذلك مدة من الزمن حفاظاً على حياته . إلاّ ان النجاح الذي حققه هذا الراهب الجريء ، فتح الأبواب على مصاريعها أمام العلماء والباحثين لدراسة الوثائق والسجلات القديمة ، كما اغرى الكثيرين من الرهبان والقسس والمؤرخين على الانكباب على المخطوطات والوثائق القديمة التي تحت ايديهم وخاصة تلك الوثائق المكدسة في الأديرة والكنائس والكتدرائيات وقصور الامراء ، فاقبلوا على دراستها دراسة معمقة ، وكانت هذه الحركة فاتحة للاهتمام باصول الوثائق وبداية لنشوء العلوم

المساعدة وفي مقدمتها علم قراءة الخطوط والكتابات القديمة المعروف بـ (البالبوغرافيا) .

نقد ترجمة الانجيل (الفلجات Vulgate)

وقد تبين للراهب (فالا) ان الترجمة اللاتينية للعهد الجديد (الانجيل) المعروفة بـ (الفلجات) مزورة وتشتمل على تحريف لعقائد السيد المسيح والرسل ، مما اقلق كثيراً رجال الكهنوت .

كما تصدى (فالا) لنقد الوثائق المعروفة بـ (الاوامر الكاذبة) او الأوامر الاسيدورية Isodorian Decretals وهي مجموعة من الأوامر والوثائق المزورة التي ظهرت في اواسط القرن التاسع للميلاد ، ترمي الى الغاية نفسها التي ترمي اليها (هبة قسطنطين) ، مع انها صدرت لمنفعة الاساقفة وليس لنفع البابا ، وكان الحزب البابوي يحتج بها ، فاثبت (فالا) زيفها وبطلانها .

٦ـ خريطة ارض الكروم (فنلاند Vinland)[١١]

قضية تزوير هذه الخريطة تعود الى ستينيات القرن العشرين ، وهي تكشف عن عملية تزوير خريطة قديمة تمَّ الكشف عنها في أواخر الخمسينيات ونشرت في الستينيات .

تبلغ مساحة الخريطة [١٦×١١ بوصة ـ (انج)] رسمت بالحبر على ورق قديم يعود تاريخ الى القرن الخامس عشر الميلادي ، وفي وسط الخريطة تظهر جزيرتا (غرينلاند Greenland) و (آيسلاندا Iceand) ، وفي شرقها تظهر الجزر البريطانية والشواطيء الاسكندنافية .

---

[١١] يراجع : الآلوسي (سالم عبود) : علم تحقيق الوثائق ، ص٨ ـ ٩ .

لقد عكف على دراستها عدد من الخبراء دراسة علمية متأنية فذهبوا الى انها خريطة تبيّن ان (الفايكنغ Viking ــ وهم أجداد شعوب الدنمرك والسويد والنروج) هم مكتشفو أمريكا الحقيقيون ، وانهم ــ أي الفايكنغ ــ سبقوا كريستوفر كولمبوس إليها بنحو (٥٠٠ سنة) ، وبدت تلك الخريطة وكأنها تقيم الدليل القاطع على ان الفايكنغ هم الرواد وأصحاب الفضل الأول في إكتشاف العالم الجديد (امريكا) :

وقد أطلق على هذه الخريطة اسم أرض الكروم ــ اي ارض الأعناب ــ وقد أثارت هذه الخريطة إهتمام البيئات العلمية والدوائر التاريخية في بلاد الغرب جميعاً مما حدا بجامعة ييل (Yale University الأمريكية على شرائها بنحو ربع مليون دولار امريكي ، وعهدت الى عدد من الخبراء الانكليز والامريكيين بالتحقيق عن اصالتها ، وقد عكف اؤلئك الخبراء على فحص الخريطة واخضاعها الى التجارب المختبرية طوال مدة ٧ ــ ٨ سنوات ، حتى تبين لهم ولجامعة ييل انها صادقة وأصيلة . فنشرت عام ١٩٦٥ يوم ذكرى اكتشاف كولمبوس لأمريكا .

ثم جاءت سنة ١٩٧٤ وإذا بالعلم والخبرة يقيمان الدليل القاطع على ان خريطة الكروم مزوّرة ومزيّفة . فقد دلّت التجارب والتحاليل العلمية التي أجراها فريق من المختصين إن الحبر الذي رسمت به الخريطة ، وهو أصفر اللون مائل الى البنّي ، يحتوي على مادة (ثاني أوكسيد التيتانيوم Titanium Dioxide) وهي مادة لم ينجح علماء الكيمياء في صنعها قبل سنة ١٩٢٠ ، فالخريطة اذن ليست قديمة وإن رسمها لا يعود الى القرن الخامس عشر للميلاد ، وانما يعود الى

القرن العشرين ، فهي اذن ليست أصيلة بل مزوّرة ، والذي رسمها ليس من (الفايكنغ) وانما هو انسان مزوّر بارع ومزيّف محنك على علم بشؤون التاريخ وطبيعة المواد المستخدمة .

٧ ـ الرسالة المزوّرة

من الأمير شكيب أرسلان الى مفتي القدس امين الحسيني[١٢]

هذا مثال آخر من امثلة تزوير الوثائق السياسية في القرن العشرين المنصرم ، نسوقه للتدليل على استمرار اعداء الأمة في أساليب تشويه المواقف الوطنية والإساءة الى سمعه الشخصيات الوطنية والقومية في تاريخنا العربي المعاصر .

ففي النصف الأول من ثلاثينيات القرن العشرين النصرم ، تأزمت الأوضاع السياسية في العالم عامة ، وفي اقطار الشرق العربي خاصة ، ذلك بعد قيام القوات العسكرية الايطالية باحتلال الحبشة ، يضاف الى ذلك إضطراب الاوضاع في فلسطين ومعارضة السياسة البريطانية في تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين . فأثارت هذه الأوضاع الوطنيين والقوميين في الاقطار العربية والإسلامية ، الذين نهضوا مشمرين عن سواعد الجد والدفاع عن قضايا الامة ومصالحها ومستقبلها ودرء الاخطار عنها بشتى السبل والوسائل .

وكان من ابرز اؤلئك الوطنيين الامير شكيب ارسلان (١٨٦٩ـ ١٩٥٦) الذي كان ينظر الى الدول الاوربية مثل فرنسا ، وبريطانيا ، وايطاليا ، واسبانيا ، كونها دولاً استعمارية لها خططها

---

[١٢] ملخص عن كتاب : شكيب ارسلان ودوره السياسي في حركة النهضة العربية الحديثة . للدكتور ظاهر محمد صكر الحسناوي ، بيروت ـ ٢٠٠٠ ، ص١٧١ـ١٧٥ .

وأطماعها في اقطار الوطن العربي ، وكان ينبه العرب والمسلمين على الاخطار التي يتعرضون اليها ، ويؤكد على وجوب النضال السياسي ضد هذه الدول المستعمرة ،والاستفادة من التنافس والنزاعات بينها ، لتحقيق المطالب الوطنية والقومية .

كان الامير شكيب ارسلان في البدء يناصب ايطاليا العداء ويهاجم سياستها بعد قيامها باحتلال ليبيا عام ١٩١١ ، ثم ما لبث ان بدأ بمهادنتها في اواسط الثلاثينيات ويبث الدعاية لها مستغلاً التنافس بينها وفرنسا ، ويرى ان هذه الدعاية ربما تعود بالفائدة على العرب ، لان كلاً من فرنسا وإيطاليا سيعمل على كسب رضاهم الى جانبه ، وأكدَّ ان لاضرر من هذه الدعاية ما زالت فرنسا تحتل سوريا ، ويجب ان يكون مبدأ الجميع ان لا فرق بين فرنسا وإيطاليا ما دام الاجنبي يحتل الارض العربية ، فلا يصحّ الترجيح بين الأجانب ، فكلهم استعماريون على حدٍ سواء .

كانت الدوائر الاستعمارية والصهيونية متيقظة وحذرة من النشاط السياسي الذي يقوم به الأمير شكيب أرسلان ورفاقه من الوطنيين والقوميين من العرب والمسلمين ، فأخذت تلك الدوائر تدسُّ الدسائس وتثير الاشاعات وتنشر الرسائل المزوّرة لتشويه سمعة اؤلئك الوطنيين المخلصين ، نذكر منها ((الرسالة المزوّرة)) التي نشرتها جريدة (الجامعة الاسلامية) لصاحبها الشيخ سليمان التاجي في عددها الصادر في ١٩٣٥/٢/٢٤ على انها رسالة من شكيب ارسلان الى الحاج امين الحسيني ، مؤرخة في ١٩٣٥/٢/٢٠، يطلب فيها من امين الحسيني ان يظهر العداء للانكليز وعدم الثقة بوعودهم . ويبدو من هذه الرسالة ان شكيب أجرى مفاوضات ومباحثات مع الزعيم الايطالي

موسوليني ، كان قد اتفق على مضمونها مع الحسيني في مكة أثناء وجودهما في وفد المؤتمر الاسلامي ، وان شكيب كلّف السياسي السوري احسان الجابري بإطلاع الحسيني عليها ، وأبدى شكيب ارتياحه عن النتائج التي تمخضت عنها تلك المفاوضات ومن التأكيدات التي قطعها موسوليني له بشأن مناصرة إيطاليا للحقوق العربية في فلسطين ، تلك التي ذكر فيها انه إتفق مع موسوليني على المباشرة في بث الدعاية لإيطاليا في الاقطار العربية بأسرع ما يمكن ، وإنه سيباشر هذه الدعاية والتمهيد لها في مجلته (الامة العربية La Nation Arabe) التي كان شكيب يصدرها بالفرنسية في سويسرا . وقال انه سيشير قضية الخلاف بين ايطاليا والحبشة ويظهر مساوئ الاحباش بالنسبة للمسلمين ، وان مكتب الدعاية في روما سيرسل بعض المعلومات الى بعض الصحف العربية ، كما كتب الى رياض الصلح ليتولى أمر الدعاية في سوريا .

ادعى شكيب بان هذه الوثيقة (الرسالة) مزوّرة ، وانه لم يكتب الى مفتى القدس امين الحسيني بهذا المعنى ، وهو عازم على اقامة الدعوى ضدّ المزورين ، وقد وجّهت الاتهامات الى الشيخ سليمان التاجي صاحب جريدة (الجامعة الاسلامية) التي يصدرّها في (يافا) والتي نشرت الرسالة المزوّرة ، والى فخري النشاشيبي المعروف بعلاقاته المشبوهة مع اليهود في فلسطين وترويجه بيع الاراضي الفلسطينية لليهود .

كان الهدف من نشر هذه الوثيقة المزوّرة هو الطعن بالمفتي الحسيني ، وقد استنكرت فلسطين بأسرها هذه المحاولة الخبيثة معلنةً ثقتها بالحسيني وبشكيب ارسلان ، كما استنكرتها الحركات الوطنية في

سوريا والمغرب وجهات عديدة في العراق ومصر واليمن ، مثلما استنكرتها بعض الصحف الصادرة في هذه الاقطار .

ان هذه الوثيقة (الرسالة) المزوّرة تفضح نفسها بنفسها للاسباب الآتية :

١ــ كثرة الاخطاء الاملائية والنحوية فيها التي يستبعد ان يقوم بها الامير شكيب المشهور بــ (امير البيان) .

٢ــ اختلاف الاسلوب الذي كتبت فيه الرسالة عن اسلوب الامير شكيب الرفيع المستوى .

٣ــ الاختلاف البيّن في الخط عن خط شكيب ارسلان ان يقع فيها كاتب مثل شكيب .

لقد استخدم الامير شكيب كل مهارته الكتابية والصحافية في إبراز حقيقة هذه الرسالة المزوّرة وذلك بالتركيز على الناحية الشكلية فيها ، وقد إتضحت الاهداف من وراء نشر هذه الوثيقة المزوّرة ، فقد جاءت في سياق الحملة الدعائية المضادة التي شنّتها فرنسا وبريطانيا والصهيونية ضد الامير شكيب ارسلان ومفتى فلسطين الحاج امين الحسيني وبعض اعضاء الوفد السوري في جنيف (سويسرا) .

٨ــ تزوير الصور الفتغرافية

صورة مزورة للباخرة اليمنية ((ظفر))[١٣]

ذكرنا ان عمليات التزوير اتسع نطاقها فشملت مجالات كثيرة ، من بينها تزوير الصور الفتغرافية لأهداف سياسية

---

[١٣] عن : مجلة ((متابعات اعلامية)) ، صنعاء العدد ــ ٦٤ مايو ــ اكتوبر ١٩٩٩ ص١٩ ــ ٢٠ .

اقتصاديــة ، اجتماعية ودينية ، وهي حالات لا تحصى ولا تعدُّ فــي انحاء المعمورة كافة ، ومن الأمثلة المعاصرة نذكر قصـــة (صـــورة الباخرة اليمنية وهي راسية في ميناء حيفا) ، قـــام بتزويرهـــا احـــد المصورين اليمنيين بهدف إلحاق تهمة العمالة للعدو الصهيوني بإحدى الشخصيات الوطنية اليمنية . وهي صورة الباخرة اليمنيـــة (ظفـــر) التي تعود ملكيتها الى (بيت الوجيه) من الأسر التجارية في اليمن . فقد قام هذا المصور بخدعة تصويرية ، حيث جاء بلوحة كبيرة كتـــب عليها ميناء حيفا وعليها العلم الاسرائيلي ، ثم وضعها امامها البـــاخرة (ظفر) والتقط صوراً توهم من يراها ان الباخرة (ظفر) راسية في ميناء حيفا الاسرائيلي . وقد تسربت الصورة الى جامعة الدول العربية التي قامت بارسال نسخة منها الى الإمام احمد عـــام ١٩٥٧ مرفقـــة بمذكرة إحتجاج شديدة تستنكر ذهاب الباخرة الى اسرائيل .

وإزاء هذه القضية الخطيرة التي تمس سمعة اليمن ومواقفهـــا القومية ، ثم استدعاء خبير إيطالي بشؤون التصوير الفتغرافي ، الذي درس الصورة دراسة فنية ورفع تقريراً بذلك ، أثبت فيه ان الصـــورة مزوّرة ، وإن الميناء لم يكن ميناء حيفا ، وعلى أثر ذلك هدأت هـــذه العاصفة ، واستنكرت الأوساط الوطنية عملية التزوير هذه .

رابعاً ـ طرائف وقصص عن تزوير الكتب

تحفل كتب الأدب والتراث بطائفة من أخبار تزوير الكتـــب ، من ذلك ما جاء في كتاب (نشوار المحاضـــرة وأخبـــار المـــذاكرة)

للقاضي التنوخي (ابي علي المحسّن بن علي)[١٤] نورد بعضاً منها بشيء من التصرف .

أ ـ عاطل يزوّر كتاباً للوزير ابن الفرات[١٥]

ذكر ان رجلاً دامت عطلته فزوّر كتاباً عن ابي الحسن على ابن محمد بن الفرات ، وزير الخليفة العباسي المقتدر بالله ، الى ابي زنبور الحسين بن احمد بن رستم المدارائي عامل ومتولى الخراج في مصر ، وخرج اليه ولقيه بها ، فاستراب أبوزنبور وأنفذ الكتب الى ابن الفرات فوصلت الى ابي الحسن بن الفرات ، وأصحابه بين يديه ، فسألهم عن العمل فاشاروا اليه بقطع يده لتزويره على الوزير ، او قطع إبهامه او يضرب ويحبس . فقال ابن الفرات : ما أبعد طباعكم عن الجميل وانفرها عن الحرية ؟ رجل توسل بنا وتحمل المشقّة الى مصر وأمل بجاهنا الغنى ، ولعله كان لا يصل الينا ، ولا حرمة له بنا ، فيأخذ كتبنا فخفف عنا بان كتب لنفسه ما قدّر انَّ به صلاحاً ، ورحل ملتمساً الرزق وجعلنا سببه . فهرع الى الدواة وقلب الكتاب المزوّر ووقع عليه بخطه : ((هذا كتابي ، ولا أعلم لأي سبب أنكرته .... فأجزل عطيته وتابع برّه ووفر حظه من التصرف فيما يصلح له .

ثم بعد مدة طويلة دخل الرجل الذي زوّر الكتاب على ابن الفرات باكياً شاكراً ، فسأله الوزير ابن الفرات : مالك ؟ فقال : انا صاحب الكتاب المزور الى ابي زنبور فضحك ابن الفرات وقال الحمد لله . أيها الرجل ، ألزمنا فاننا ننفعك ان شاء الله .

---

[١٤] حقق هذا الكتاب الاستاذ عبود الشالجي المحامي ، وطبع ببيروت بـ (٨) اجزاء في السنوات ١٩٧١ ـ ١٩٧٣ .

[١٥] النشوار ، المجلد ـ ١ ، ص٥٧ ـ ٥٩ .

ب ـ ابو عمر القاضي يعامل بالجميل مزوراً[١٦]

كان ذلك عام ٣٤٩هـ ذلك ان رجلاًزوّر عن القاضي ابي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الازدي رقعةً الى ابي القاسم الحواري ، يسأله تصريفه ـ اي تعيينه بوظيفة ـ وسار الرجل بالرقعة الى ابي القاسم ، فأخذت منه وحجُب فجلس يتوقع الجواب . وأتفق ان جاء أبو عمر القاضي ليسلّم على ابن الحواري فوجد القاضي الرقعة مشبّهة بخطه ، واستدعى مزوّر الرقعة ، وكان المزوّر قد توسّل الى ابي عمر قائلاً : ((ايها القاضي ... ما حملني على ذلك إلا عدم القوت وشدة الفقر ، وانني وثقت بكرمك ففعلت ذلك)) . فرأف به القاضي وقال له : ان ابن الحواري قد وعد بتصريفك والاحسان اليك .

جـ ـ أراد ان يزوّر على رجل مرتعش اليد[١٧]

قال ابو الحسن بن عياش القاضي : ((رأيت رجلاً صديقاً لي على بعض زواريق الجسر ببغداد ، جالساً في يوم ريحٍ شديد وهو يكتب ، فقلت له : ويحك في مثل هذا الموضع ومثل هذا الوقت ؟
قال : أريد أن أزوّر على رجل مرتعش ويدي لا تساعدني ، فتعمدت الجلوس ها هنا لتحرك الزورق بالموج في هذه الريح فيجيء خطي مرتعشاً فيشبه خطه ..

---

[١٦] النشوار ، الجزء ـ ١ ، ص٦٠ـ٦١ .

[١٧] النشوار ، ج١ ، ص٢٣ .

خامساً ـ التزوير في القوانين العراقية[١٨]

تناول موضوع التزوير (قانون العقوبات رقم ـ ١١١) لسنة ١٩٦٩ في عدد من المواد القانونية . نستعرضها في الآتي : عرفت المادة ـ ٢٨٦ التزوير :

((هو تغيير الحقيقة بقصد الغش في سند أو وثيقة ، او اي محرر آخر ، بأحدى الطرق المادية أو المعنوية التي بينّها القانون ، تغييراً من شأنه احداث الضرر بالمصلحة العامة او بشخص من الاشخاص)) .

اولاً ـ تزوير الاختام والتواقيع :

نصت المادة ـ ٢٧٥ من القانون على :

١ـ يعالقب بالحبس من قلّد او زوّر بنفسه أو بواسطة غيره ، ختم الدولة أو ختم أو إمضاء رئيس الجمهورية ، أو ختماً او علامة للحكومة أو إحدى دوائرها الرسمية او شبه الرسمية ، او احد موظفيها او توقيعه ، او دمغات الذهب والفضة المقررة قانوناً .

٢ـ وتكون العقوبات السجن مدة لا تزيد على عشر سنين ، اذا كان محل الجريمة ختماً أو علامة لدولة أو ختم أو علامة أحد المصارف او احدى المؤسسات او الشركات ، او الجمعيات او المنظمات ، او المنشآت التي تساهم الدولة في مالها بنصيب . او

---

[١٨] اعتمدنا في ايراد المعلومات على كتاب (نظرية الاثبات ـ المحررات او الادلة الكتابية ـ مدنياً وجزائياً ، شرعاً وقانوناً ، شكلاً وموضوعاً ، علماً وعملاً) لمؤلفة الاستاذ حسين المومن المحامي . مكتبة النهضة ـ بيروت ١٩٧٥ في الصفحات ١٩٢ـ١٩٦ ، وسيشار اليه بـ (المومن) وكذلك على قانون العقوبات رقم (١١١) لسنة١٩٦٩ .

ختم او علامة احدى شركات المساهمة او الجمعيات التعاونية ، او النقابات المنشأة طبقاً للاوضاع المقررة قانونا ، او احدى الجمعيات او المؤسسات المعتبرة قانوناً ذات نفع عام .

٣ــ ويعاقب بالعقوبة ذاتها ــ حسب الأحوال ــ من استعمل شيئاً مما تقدم او أدخله البلاد مع علمه بتقليده أو تزويره .

المادة (٢٧٦) نصت على :

((يعاقب بالسجن مدة لا تزيد على عشر سنوات كل من استعمل بدون وجه مشروع احدى الجرائم المنصوص عليها في الفقرة الأولى من المادة السابقة ، وتكون العقوبة السجن مدة لا تزيد على سبع سنوات أو الحبس ، اذا كان محل الجريمة مما جاء ذكره في الفقرة الثانية من المادة السابقة)) .

ثانياً ــ تزوير الطوابع وعلامات المرور :

نصت المادة (٢٧٧) على :

١ــ يعاقب بالسجن مدة لا تزيد على عشر سنوات من قلّد او زوّر طوابع مالية للعراق ، أو لدولة اجنبية ، أوعلامات أو طوابع البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية للعراق أو لدولة اجنبية منظمة لاتحاد البريد الدولي ، أو اوراق المراسلات المدموغة بقصد استعمالها على وجه غير مشروع ، أو روّجها مع علمه بأمرها . فاذا كان محل الجريمة طوابع لهيئات غير حكومية معترف بها رسمياً تكون العقوبة الحبس .

٢ــ ويعاقب بالحبس كل من استعمل طابعاً مقلداً او مزوّراً ، من نوع ما ذكر في الفقرة المتقدمة ، أو استعمل طابعاً صحيحاً من ذلك كان قد سبق استعماله او أدخله البلاد بقصد استعماله على وجه

غير مشروع ، او بقصد ترويجه ، مع علمه بتقليده او تزويره ، او سبق استعماله .

ثالثاً ــ تزوير المطبوعات وتوزيعها :

نصت المادة (١٧٨) على :

يعاقب بالحبس أو بغرامة لا تزيد على مائتي دينار ، كل من صنع او حاز ، بقصد البيع ، أو وزّع ، او عرض للبيع ، مطبوعات او نماذج منها ، مهما كانت طريقة صنعها ، تشابه بهيئتها الظاهرة علامات وطوابع البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية في العراق ، وفي البلاد الداخلة في اتحاد البريد الدولي ، او أوراق المراسلة المدموغة مشابهة تسهل قبولها بدلاً من الأوراق الصحيحة ، وتعتبر في حكم هذه الطوابع والعلاقات قسائم من المجاوبة البريدية الدولية .

رابعاً ــ تزوير اللوحات المعدنية والعلامات الاخرى

نصت المادة (٢٧٩) على :

((يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنة ، أو بغرامة لا تزيد على مائة دينار ، من قلّد أو زوّر اللوحات المعدنية او العلامات الاخرى التي تصدر تنفيذاً للقوانين والانظمة والتعليمات الخاصة بالنقل أو المرور او الحرف . ويعاقب بالعقوبة ذاتها ، من استعمل شيئاً من ذلك ، مع علمه بتقليده أو تزويره ، ومن استعمل لوحة او علامة صحيحة مما ذكر ، لا حقّ له في استعمالها)) .

خامساً ــ تزوير أوراق النقد والسندات المالية :

نصت المادة (٢٨١) على :

((يعاقب بالسجن كل من زوّر أو قلّد بنفسه ، أو بواسطة غيره ، سندات مالية أو أوراق نقد ، او اوراق عملة مصرفية معترف

بها عراقية أم أجنبية بقصد ترويجها ، أو إصدار هذه الاوراق المزوّرة أو المقلّدة ، أو إدخالها العراق ، او دولة اخرى ، او تعامل بها ، وهو عالم في كل ذلك على بينة من أمرها)) .

سادساً ــ إنتحال اسم كاذب او شخصية أو صفة كاذبة :

نصت المادة (٢٩٢) على :

((يعاقب بالحبس وبالغرامة التي لا تزيد على ثلثمائة دينار ، أو باحدى هاتين العقوبتين ، من توصل بإنتحال اسم كاذب أو شخصية كاذبة ، الى الحصول على أية رخصة رسمية او تذكرة هوية ، او تذكرة انتخاب عام ، أو تصريح نقل أو إنتقال ، أو مرور داخل البلاد . ويعاقب بالعقوبة ذاتها من زوّر أو اصطنع محرراً من هذا القبيل)) .

ونصت المادة (٢٩٣) على :

((يعاقب بالحبس كل موظّف او مكلّف بخدمة عامة ، أصدر احدى الاوراق المذكورة في المادة السابقة ، مع علمه بأن من صدرت له قد إنتحل اسماً كاذباً أو شخصية كاذبة)) .

سابعاً ــ التقريرات الكاذبة والمزوَّرة في المواد الشخصية :

نصت المادة (٢٩٤) على :

((يعاقب بالحبس وبالغرامة ، أو بأحدى هاتين العقوبتين ، كل من قرر أمام السلطة المختصة ، في اجراءات تتعلق بتحقيق الوفاة او الوراثة ، اقوالاً غير صحيحة عن الوقائع المراد إثباتها ، متى صدرت الوثيقة على اساس هذه الأقوال . وكل من أبدى أمام السلطة المختصة ، او القائم بعقد الزواج ، أو بقصد إتمام عقد الزواج ، مع وجود مانع شرعي أو قانوني ، أقوالاً غير صحيحة ، أو حرر ، أوقدَّم

لأحدٍ ممن ذكر ، أوراقاً تتضمن معلومات غير صحيحة ، متى وُثّق عقد الزواج على اساس هذه الأقوال والأوراق . ويعاقب بالعقوبة ذاتها ، كل موظف أو مكلف بخدمة عامة أصدر الوثيقة المتعلقة بالوفاة أو الوراثة ، أو وثّق عقد الزواج ، مع علمه بعدم صحة البيانات او الاوراق التي بُنيت عليها الوثيقة أو عقد الزواج)) .

ثامناً ــ تدوين امور كاذبة او إغفال امور صحيحة في الدفاتر الخاضعة للرقابة الرسمية :

نصت المادة (٢٩٦) على :

((يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنة وبغرامة لا تزيد على مائة دينار ، أو بأحدى هاتين العقوبتين ، من كان مكلفاً قانوناً بأن يمسك دفاتر أو أوراقاً خاضعة لرقابة السلطات العامة ، فدوّن فيها اموراً غير صحيحة ، أو أغفل تدوين أمور صحيحة فيها ، وكان من شأن ذلك خدع السلطات المذكورة وايقاعها في الغلط)) .

تاسعاً ــ إعطاء تقارير طبية غير صحيحة :

نصّت المادة (٢٩٧) على :

١ــ يعاقب بالحبس مدة لاتزيد على سنتين ، او بغرامة لا تزيد على مائتي دينار ، كل طبيب أو قابلة ، أعطى على سبيل المجاملة شهادة يعلم انها غير صحيحة في أحد محتوياتها ، بشكل حمل ، أو ولادة ، او مرض ، او عاهة ، أو وفاة ، او غير ذلك ، مما يتصل بمهنته ، فاذا كانت الشهادة قد أُعدّت لتقدّم الى القضاء او لتبرير الأعفاء من خدمة عامة ، تكون العقوبة الحبس أو الغرامة التي لا تزيد على ثلثمائة دينار .

٢ـ اذا كان الطبيب او القابلة قد طلب ، او قبل اخذ عطية ، او وعد لأعطاء الشهادة ، او كان قد اعطاها ، نتيجة لتوصية أو وساطة ، يعاقب هو ومن قدّم أو اعطى أو وعد ، أو تقدّم بالتوصية ، أو تدخّل بالوساطة ، بالحبس وبالغرامة أو باحدى هاتين العقوبتين .

٣ ـ يعاقب بالعقوبة ذاتها ، حسب الأحوال ، كل من زوّر او اصطنع[١٩] بنفسه ، او بواسطة غيره ، شهادة من قبيل ما ذكر في الفقرة اولاً .

عاشراً ـ استعمال المحررات الصحيحة الصادرة للغير بدون حق :

نصت المادة (٢٩٩) على :

((يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنتين وبغرامة لا تزيد على مائتي دينار ، او بأحدى هاتين العقوبتين ، كل من إستعمل ، أو إنتفع بغير حق ، بمحرر صحيح صادر لغيره)) .

احد عشر ـ إتلاف المحررات :

نصت المادة (٣٠٠) على :

١ـ يعاقب بالسجن مدة لا تزيد على سبع سنوات ، او الحبس ، كل من أتلف أو أفسد ، أو عيّب ، أو بطل بسوء نيّته محرراً موجداً ، أو مثبتاً لدين ، او تصرف في مال ، أو إبراء ، أو مخالصة ، أى محرر يمكن إستعماله لأثبات حقوق الملكية .

---

[١٩] الأصطناع : كما عرفته المادة (٢٩١) من قانون العقوبات ، إنشاء محرر لم يكن له وجود من قبل ، ونسبته الى غير محرره ، دون ما ضرورة لتعمد تقليد محرر بالذات وخط انسان معين .

٢ـ وتكون عقوبة الحبس إذا ارتكب الفعل في محرر آخر غير ما ذكر في الفقرة المتقدمة .

اثنا عشر ـ إتلاف المستخدمين لدفاتر أو أوراق مستخدميهم ، او تدوينهم قيوداً مزوّرة ، أو إغفالهم تدوين قيود صحيحة :

نصت المادة (٣٠١) على :

((يعاقب بالحبس أو بالغرامة ، أو باحدى هاتين العقوبتين ، كل مستخدم في محل خاص ، أتلفَ أو أفسد ، او أبطل ، أو دوّن قيداً ، أو أهمل تدوين قيد ذي أهمية في دفاتر ، أو اوراق أو سجلات مستخدمة ، وكان للك كله بقصد الغش)) .

* * *

تعريفـــــات

وردت في المواد الخاصة بالتزوير او التزييف المدرجة في قانون العقوبات رقم (١١١) لسنة ١٩٦٩ بعض المصطلحات ، رأينا شرحها والتعريف بها زيادة في الفائدة :

اولاً ـ المحررات :

يراد بالمحررات الادلة الكتابية ، ويسميها البعض الحجج الخطية ، ويطلق عليها البعض الآخر ، الإسناد او السندات ، وهي كل كتابة من شأنها إثبات حق أو نفي حق أو تبيان حق بشكل صريح ، أو الاشارة إليه من طريق خفي ، او عرضاً عن طريق التلميح .[٢٠]

وقد عرّفها القانوني المصري العلامة احمد فتحي زغلول :

---

[٢٠] يراجع : المؤمن (حسين) ، المصدر السابق ، نقلاً عن :

أ ـ عبد السلام ذهني : المداينات او الأدلة ، ج١ ، ص١١٠ .

ب ـ فارس الخوري : شرح الاصول الحقوقية ، ط٢ ، بند٩٦ ، ص٣١٤ .

((هي البرهان الثابت كتابةً ، ويقال لها سنداتٍ او صكوكاً ، متى كانت محررةً لتكون برهاناً على الحق)) .[٢١]

وتقسم المحررات الى :

أ ـ المحررات الرسمية : وهي ما صدرت عن موظف عام مختص بتحريرها . وعرّفت المادة (٢٨٨ ، الفقرة ـ ١) من قانون العقوبات المحرر الرسمي : ((هو الذي يثبت فيه موظّف أو مكلّف بخدمة عامة ما تمَّ على يديه أو من ذوي الشأن ، طبقاً للاوضاع القانونية ، وفي حدود سلطته وإختصاصه ، أو تدخَّل على أية صورة بأعطائه الصورة الأصلية الرسمية)) .

والمحررات الرسمية على نوعين :

١ـ المحاضر : وهي التي يقوم بتحريرها موظفون مختصون بالتحقيق في الجرائم وظروفها ووسائل إثباتها والأدلة على مرتكبيها .

٢ـ المحررات الرسمية الأخرى : وهي التي ينظّمها أو يوثّقها موظفون مختصون مثل كتّاب العدول ومسجلي الشركات .

ب ـ المحررات العادية :

عبّرت عنها المادة (٢٨٨ الفقرة ـ ٢) من قانون العقوبات : ((كل ماعدا المحررات الرسمية هي محررات عادية)) .

---

[٢١] شرح القانون المدني (المصري) ، ص٣٩٦ .

ثانيا ـ الكتابة :

بمعناها اللغوي ، اسم المكتوب ، وإستعمال الفقهاء لها بالمعنى المعروف ، أي تصوير اللفظ بحروف الهجاء ، فيه تسامح كما يقول صاحب معجم (المصباح المنير)[٢٢]

ثالثاً ـ السند :

تعتبر تسمية الدليل الكتابي سنداً تسمية غير دقيقة ، ذلك لأن السند أيضاً يطلق على سبب الحق أو مصدره ، كما ورد في العبارة : ((الحيازة في المنقول سند الملكية)) وجاء في المنجد إن لفظ (السند) كان من معانيه أداة الإثبات .

رابعاً ـ الورقة :

وان كانت أداة الأثبات الاعتيادية للأدلة الخطية ، غير إنه قد توجد أدوات اخرى للدليل الكتابي ، كما لو كانت الكتابة موضوعة على حجر أو خشب أو قطعة معدنية أو غيرها . ويُفضل استخدام (المُحَرّر) او (المحررات) على التسميات الأخرى لأنها أدقُ تعبيراً وأوفى بالغرض ، وعلى ذلك فالتعبير عن أداة الاثبات الكتابي بـ (عقد) أو (سند) او (صك) او (حق) يعبُّر تعبيراً غير سليم .

خامساً ـ التزوير الخطي :

هو ما يستهدف إحداث تغييرات في الوثائق والمستندات الصحيحة ، يترتب عليها إدخال تغيير لما كانت تحتوي به اصلاً من بيانات وارقام وغير ذلك ، وهو ما يطلق عليه التزوير المادي .

* * *

---

[٢٢] للفيومي ، الطبعة السادسة ، ص٧١٩ .

المصادر والمراجع :

أ ــ الكتب :

١ــ الآلوسي (سالم عبود) :

علم تحقيق الوثائق المعروف بـ (الدبلوماتيك) ، بغداد ــ ١٩٧٧ .

٢ــ الآلوسي (سالم عبود) :

تزوير الوثائق والمستندات : قديماً وحديثاً ، (محاضرة) صنعاء (اليمن) ١٩٩٩ .

٣ــ حسن (الدكتور حسن ابراهيم) :

تاريخ الاسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي . جـ٢ ، ط٧ ، القاهرة ١٩٦٤ .

٤ــ الحسناوي (ظاهر محمد صكر ــ الدكتور) : شكيب ارسلان ، ودوره السياسي في حركة النهضة العربية الحديثة (١٨٦٩ ــ ١٩٤٦) . وهذا الكتاب في الاصل رسالة ماجستير من كلية الآداب جامعة بغداد باشراف الاستاذ الدكتور ابراهيم خلف العبيدي . بيروت ــ ٢٠٠٢ .

٥ــ طه باقر :

مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج٢ ، بغداد ــ ١٩٥٦ .

٦ــ عثمان (الدكتور حسن) :

منهج البحث التاريخي : ط٢ ، القاهرة ــ ١٩٦٥ .

٧ـ المؤمن (حسين المحامي) :
المحررات او الأدلة الكتابية . مدنياً وجزائياً ، شرعاً وقانونـاً ، شكلاً وموضوعاً ، علماً وعملاً . منشورات مكتبـة النهضـة ، بيروت ـ ١٩٧٥ .

٨ـ وزارة العدل ـ (العراق) :
قانون العقوبات . رقم (١١١) لسنة ١٩٦٩ .

ب ـ المجلات والدوريات :

٩ـ حوليات كليـة الاداب بجامعـة عـين شـمس ، المجلـد ـ ٩ لسنة ١٩٦٤ .

١٠ـ متابعـات اعلاميـة (صـنعاء) العـدد ـ ٦٤ مـايو ـ اكتوبر ـ ١٩٩٩ .

١١ـ مجلة العربي (الكويت) ، العدد ـ ٢٠٣ ، لسنة ١٩٧٥ .

* * *